زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحق الحصري القيرواني

فصّله وضبطه وشرحه

بقلم

الدكتور زكي مبارك

الجزء الثاني

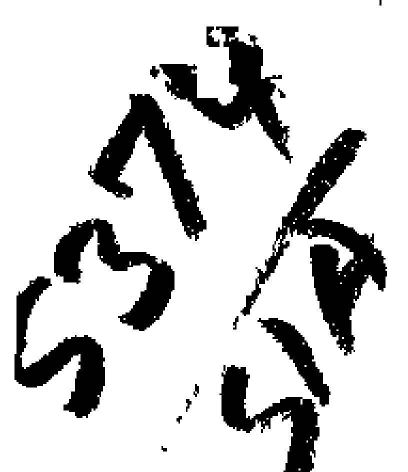
يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها عبد الرحمن محمد





marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخِصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملآى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

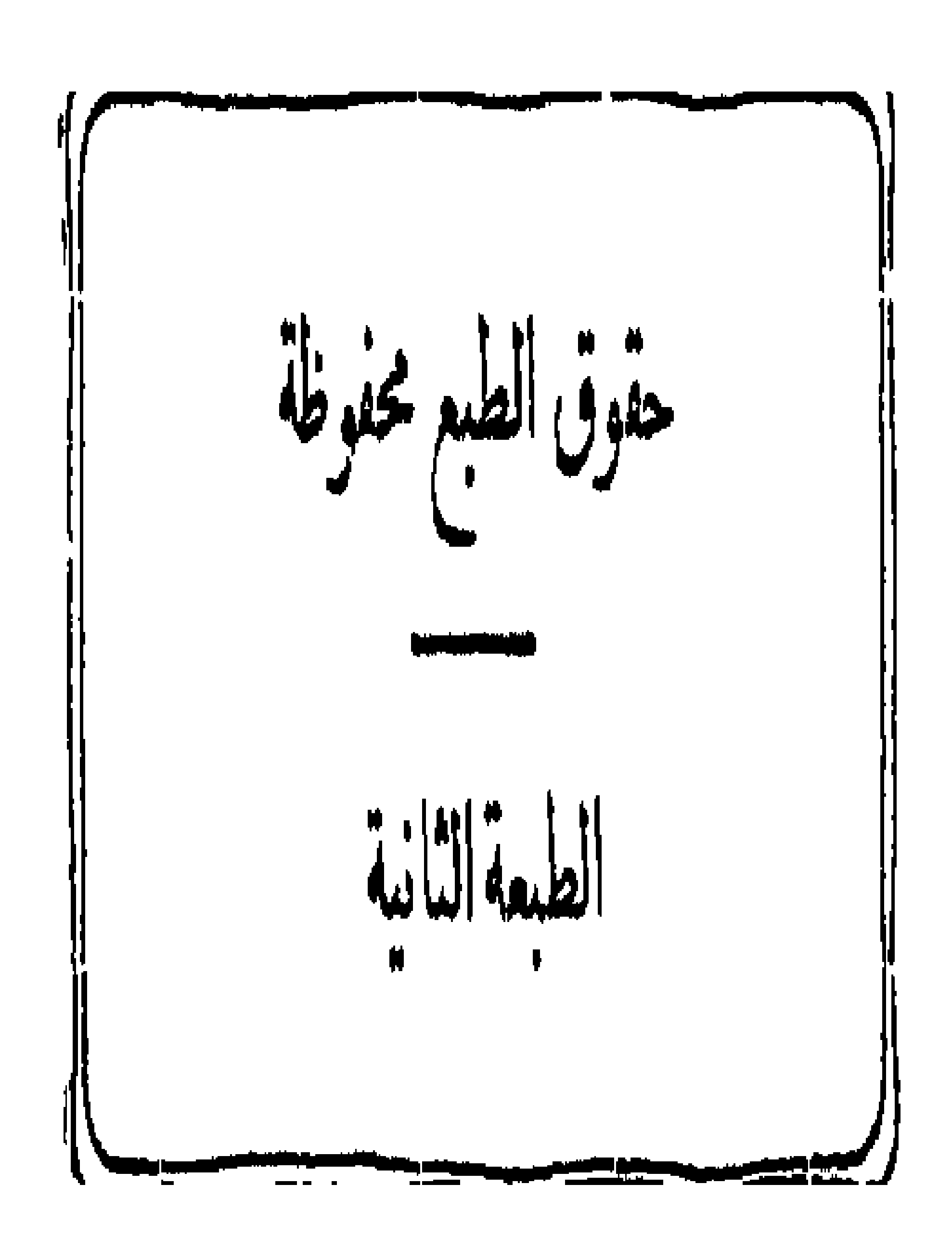
هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي


حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات الطعام

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الطعام ومقدماته وموائده وآلاته

— أورش طعامك اسم الله ، وألحفه حمد الله

— لا يطيب حضور الخِوان ، إلا مع الاخوان

— البخل بالطَّعام ، من أخلاق الطَّغام

— الكريم لا يحظر ، تقديمَ ما يحضُر

— قد قامت خطباء القدور ، قدورٌ أبكار ، بخواتم النار ، قد طار عرْفها ، وطاب غرفها

— دهماء تهدر كالفنيق(١) ، وتفوح كالمسك الفتيق

— مائدة كدارة البدر ، تباعد بين أنفاس الجلاس

— مائدة مثل عروس ، مائدة لطيفة ، محفوفة بكل طريفة

— مائدة تشتمل على بدائع المأكولات ، وغرائب الطيبات

— مائدة كأنما عملها صنَّاع صنعاء ، تجمع بين أنوار(٢) الربيع ، وثمار الخريف

وقال الجماز : جاءنا فلان بمائدة كأنها زمن البرامكة على العفاة

وذم آخر رجلا فقال : لا يحضر مائدته إلا أكرم الخلق ، والأمهم : يريد الملائكة والذباب

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخّر الطعام :

قد حُنَّ أصحابك من جوعهمْ   فاقرأ عليهم سورة المائدة

ولبعض أهل العصر يذم رجلا :

خِوانٌ لا يُلِمُّ به ضيوف   وعِرض مثل منديل الخِوانِ

(١) الفنيق : الفحل الهائج (٢) فى الأصل « أنواع » وهو تحريف

– رغفان كالبدور المنطقة بالنجوم

— حَمل ذهبيّ الدِّثار ، فضيّ الشعار

— أطيب ما يكون الحمل ، اذا حلت الشمس الحمل

— جَدْيٌ كأنما نُدِف على جبينه القزّ

— زيرباجة ، هي للمائدة ديباجة ، تشفي السقام ، ولونها لون السقيم

— سكباجة تفتق الشهوة ، وأسفيذباجة تغزو القرم ،وطباهجة يتفكه بها ، وخبيص يختم بخير

— طباهجة من شرط الملوك ، كأعراف الديوك ، وقليّة كالعود المَطْرِي ،مغمومة تفرج غم الجائع

— هريسة نفيسة ، كأنها خيوط قز مشتبكة ، كأن المُرّي عليها عصارة المسك ، على سبيكة الفضة

– أرزة ملبونة ، في السكر مدفونة

— شِوَاء رشراش ، وفالوذج رجراج[1]

— طباهجة تغذي ، وفالوذجة تعزي ، وأسفيذباجة تصفع قفا الجوع[2]

— لا فراش للنبيذ ، كالحمل الحنيذ

— دجاجة سميطة ، لها من الفضة جسم ، ومن الذهب قشرة

— دجاجة دينارية سِمَنا ولوناً

وهذا محاول من قول على بن العباس الرومي يصف طعاما أكله عند أبي بكر الباقطاني :

---

(١) من كلام أبي بكر الخوارزمي

(٢) تلك أسماء الأطعمة التي كان يعرفها العرب لعهد الدولة العباسية ، وأكثرها أسماء فارسية تغيب عنا مسمياتها الآن ، لأن للأطعمة اليوم أسماء جديدة أكثرها تركية وفرنسوية

وسميطةٍ صفراءَ ديناريةٍ ثمنا ولونا زفها لك حَزْوَرُ(١)
عظُمَتْ فكادت أن تكون أوِزَّةً وغلتْ فكاد إهابها يتفطرُ
طفقتْ تجود بذَوبها جوذابةً فأتى لباب اللوز فيها السكرُ
ظلْنا نقشّر جلدها عن لحمها فكأن تبراً عن لجين يُقشَرُ
وتقدمتْها قبل ذاك ثرائدٌ مثل الرياض بمثل ذاك تصدَّرُ
ومرقّقاتٌ كلهنّ مزخرف بالبيض منها مُلْبَس ومدثّرٌ
وأتت قطائفُ بعد ذاك لطائفٌ ترضي اللّهاةَ بها ويرضى الحنجر
ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها دمع العيان من الدهان يُعصَّرُ

المقامة البغدادية

قال البديع : حدثني عيسى بن هشام قال :

اشتهيت الأزاذ ، وأنا ببغداذ(٢) وليس معي عَقْد ، على نقد(٣) فخرجت أنتهز محالَّه حتى أحلني الكرخ(٤) فاذا أنا بسوادي يحدو بالجهد حماره ، ويطرّف بالعقد إزاره(٥) فقلت ظفرنا والله بصيد ، وحياك الله أبا زيد ! من أين أقبلت ، وأين نزلت ، ومتى وافيت ، فهلم الى البيت . فقال السوادي : لست بأبي زيد ، ولكنى أبو عبيد ! فقلت نعم ، لعن الله الشيطان ، وأبعد النسيان ! أنسانيك طول العهد بك . كيف أبوك ،

(١) الحزور : السريع إلى اكرام الضيف
(٢) الازاذ : من أجود أنواع التمر ، وبغداذ : هي بغداد
(٣) ليس معي عقد على نقد : أي ليس معي نقود يعقد عليها الكيس والثوب
(٤) المحال : جمع محل ، والكرخ في الجانب الغربي من بغداد
(٥) السوادي : الرجل من قرى العراق ، نسبة إلى السواد ، وسمي العراق سواداً لاكتساء أرضه بالخضرة — يطرف بالعقد ازاره : أي يرد أحد طرفيه إلى الآخر

أشابَ كعهدي، أم شاب بعدي[1] قال قد نبت المرعى على دِمْنته[2]، وأرجو أن يصيّره الله الى جنته ، فقلت إنالله ، ولا قوة إلا بالله ، ومددت يد البدَار ، الى الصّدار[3] أريد تمزيقه، وأحاول تخريقه[4] فقبض السوادي على خصري بجُمْعِه[5] وقال : نشدتك بالله لامزقته ، فقلت فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق نشتري شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستفزته حُمَةُ القَرَم[6] وعطفته عاطفة النّهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شوّاء يتقاطر شواؤه عرقاً ، ويتسايل جُوذابه مرقاً[7] فقلت أفرز لأبي زيد من هذا الشوّاء ، ثم زِنْ له من تلك الحلواء ، واختر من تلك الاطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ، وشيئاً من ماء السُّماق[8] ليأكله أبو زيد هنيا . فأنحى الشواء بساطوره[9]، على زبدة تنوّره ، فجعلها كالكحل سَحقاً ، وكالطحين دقاً ، ثم جلس وجلست ، ولا نبس ولا نبست ، حتى استوفيناه ، وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوّزينج رطلين[10] فانه أجرى في الحلوق ، وأسرى في العروق ، وليكن ليليّ العُمْر ، يوميّ النشر[11] رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن ،

(١) كعهدي : أي كعهدي به حين عرفته

(٢) الدمنة : آثار الديار ، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالخراب يريد أن أباه مات منذ زمن طويل

(٣) البدار : المسارعة ، والصدار : قميص صغير يلي البدن

(٤) يريد انه هم بتمزيق ثوبه من الحزن

(٥) جمع الكف ، بضم الجيم ، قبضته

(٦) الحمة : إبرة العقرب يلسع بها من يلمسه ، والقرم شدة الشهوة إلى اللحم

(٧) الجوذاب خبز يوضع في التنور ومعه طائر أو لحم

(٨) السماق حب أحمر صغير شديد الحموضة ، شجره يشبه الرمان

(٩) الساطور : آلة يقطع بها الجزار اللحم

(١٠) اللوزينج: نوع من الحلوا يصنع من نوع من الخبز يسقى بدهن اللوز. ويحشى بالجوز

(١١) ليلي العمر : صنع من ليلته ، ويومي النشر : نشر في يومه

كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيا . فوزنه . ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت [1] واستوفيناه ، ثم قلت يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة [2] ويفثأ هذه اللقم الحارة [3] اجلس أبازيد ، حتى آتيك بسقاء ، يجيئنا بشربة من ماء ، ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يرانى ، أنظر ما يصنع به . فلما أبطأت عليه قام السوادي الى حماره ، فاعتلق الشواء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ قال ما أكلته إلا ضيفاً ! قال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ! زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادي يبكي ويمسح دموعه بأردانه ، ويحل عقده بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول أنت أبو زيد !

فأنشدت :

اعمل لرزقك كل آلة ... لا تقعدن بذل حالة
وانهض بكل عزيمة ... فالمرء يعجز لا المحالة [4]

وصف القطائف

ومن مليح ما قيل فى القطائف قول على بن يحيى بن أبى منصور المنجم

قطائف قد حشيت باللوز ... والسكر الماذى حشو الموز [5]
يسبح فى آذى [6] دهن الجوز ... سررت لما وقعت فى حوزى
سرور عباس بقرب فوز [7]

(١) جرد وجردت : يريد أن كلا منهما جرد يده من ثيابه استعداداً للمائدة

(٢) الصارة : العطش

(٣) يفثأ : يسكن

(٤) قد ترجمنا هذه المقامة الطريفة الى الفرنسية فى كتابنا
La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

(٥) الماذى : العسل

(٦) الآذى : الموج

(٧) فوز : هى معشوقة العباس بن الأحنف

ومن ألفاظ أهل العصر فى الحلواء :

فالوذج بلباب البُرّ ، ولُعاب النحل ، كأن اللوز فيه كواكب در فى سماء عقيق ،

ولم يقل أحد فى صفة اللوزينج أحسن من قول ابن الرومى :

لا يخطئنى منك لوزينجٌ اذا بدا أعجب أو عجَّبا
لم تُغلق الشهوة أبوابها إلا أبتْ زُلفاه أن يُحجَبا
لو شاء أن يذهب فى صخرةٍ لسهّل الطِّيب له مذهبا
يدور بالنفخة فى جامهِ دوراً ترى الدّهن له لَوْلَبا[1]
عاون فيه منظرٌ مَخبراً مستحسنٌ ساعد مُستعذَبا
مستكثف الحشو ولكنهُ أرقُّ جلداً من نسيم الصبا[2]
كأنما قُدَّتْ جلابيبهُ من نقطة القطر اذا حبَّبا[3]
يُخال من رقة خِرشائِه[4] شارك فى الأجنحة الجندُبا[5]
لو أنه صُوِّرَ من خبزهِ ثغرٌ لكان الواضحَ الأشنبا[6]
من كل بيضاء يودُّ الفتى أن يجعل الكف لها مركبا
مدهونةٍ زرقاء مدقوقة[7] صهباء تحكى الأزرق الأشهبا
قرة عين[8] وفم حُسِّنَتْ وطُيِّبت حتى صبَا من صبا
ذِيق له اللوز فما مُرةٌ مرت على الذائق إلا أبَى[9]

(١) اللولب : استدارة الماء

(٢) رواية الديوان «أرق قشراً»

(٣) حبب : صار ذا حبب ، بالتحريك . ورواية الديوان « من أعين القطر الذى قببا » وفى رواية أخرى « طنبا »

(٤) الخرشاء : الجلدة الرقيقة

(٥) الجندب : الجراد

(٦) الأشنب : من الشنب وهو رقة وبرد وعذوبة فى الاسنان

(٧) كذا فى الأصل . وفى الديوان « مدفونة »

(٨) رواية الديوان « ملذ عين »

(٩) يريد أن صانع اللوزينج كان يختبر اللوز ليطرح منه ما يجد فيه مرارة

وانتقد الـكر نُقادهُ وشاوروا فى نقده المذهبا
فلا إذا العين رأته نَبَتْ ولا اذا الضّرس علاه نبَا
لاتنكروا الإدلال من وامق وجّه تلقاءكم المطلبا

هذه الأبيات يقولها فى قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن بشر المرثدى ويهنيه بابن ولده وأولها :

شمس و بدر ولدا كوكبا أقسمت بالله لقد أنجبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم دخلت على أبى الحسن وهو يعمل هذه القصيدة فقلت : لو تفاءلت فيها لأبى العباس بسبعة من الولد — لأن أبا العباس معكوسا سابع — لجاء المعنى ظريفاً ، فقال :

وقد تفاءلت له زاجراً كنيتهُ لا زاجراً ثعلبا
انى تأملت له كنيةً اذا بدا مقلوبها أعجبا
يصوغها العكس أبا سابع لا كذب الله ولا خيّبا
بل ذاك فألٌ ضامنٌ سبعةً مثل الصقور استشرفت مرقبا
يأتون من صلب فتى ماجد وذاك فألٌ لم يعد معطبا
وقد أتى منهم لهُ واحدٌ فلننتظرهم ستة غُيَّبَا
فى مدة تعمرها نعمةٌ يجعلها الله له تُرتبا[1]
حتى نراه جالسا بينهم أجلّ من رَضوى ومن كبكبا
كالبدر وافى الارض فى نوره بين نجوم سبعة فاحتبى[2]
وليشكر الناجم عن هذه فانها من بعض ما بوّبا
سدًى ، وألحمتُ ، أخٌ لم أزلْ أشكر ما أسدى وما سبّبا

(١) الترتب ، على وزن قنفذ وجندب ، الشىء المقيم الثابت

(٢) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها . وهى جلسة معروفة عند أشراف العرب

نهم ابن الرومى

وكان ابن الرومى منهوما فى المآكل ، وهى التى قتلته ، وكان معجباً بالسمك فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث اليه كل يوم بوظيفة لاتنقطع ، فبعث اليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال

مالحيتاننا جفَتنا وأنّى ... أخاف الزائرون منتظريهم
جاء فى السبت زَوْرهم فأتينا ... من حِفاظٍ عليه مايكفيهم (١)
وجعلناه يوم عيد عظيمٍ ... فكأنّا اليهود أو نحكيهم
وأراهم مصممين على الهجــــر فلِمْ يُسخطون من يُرضيهم
قد سبتْنا وما أتتنا وكانوا ... يوم لايسبتون لاتأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب إلى ابن الرومى :

أبا حسنٍ أنت من لا نزا ... ل نحمد فى الفضل رجحانهُ
فكم تُحسن الظنّ بالمرثدىّ ... وقد قلّل الله إحسانَهُ
ألم تدر أن الفتى كالسّراب ... اذا وعدَ الوعدَ إخوانَهُ
فبحر السراب يفوت القلوب ... فقل فى طِلابك حيتانَهُ

وصف العنب الرازقى

وخرج ابن الرومى إلى بعض المتنزهات وقصدوا كرما رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمونه في شعره ، فقالوا ان كان ماتنشدنا لك فقل فى هذا شيئاً ، فقال : لاتريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته :

ورازقيّ مُخْطَفِ الخصُورِ ... كأنه مخازن البلّورِ
قد ضمّنت مسكاالى الشطورِ ... وفى الأعالى ماءورد جورى (٢)

(١) الزور : الضيف
(٢) جورى : نسبة الى جور وهى مدينة فيروزاباد

بلا فريد وبلا شذورِ ... له مَذاق العسل المشورِ (١)
وبَرْدُ مس الخصر المقرورِ (٢) ... ونكهة المسك مع الكافورِ
ورقة الماء على الصدورِ ... باكرتُه والطير فى الوكورِ
بفتيةٍ من ولد المنصورِ ... أملاءٌ للعين من البدورِ
حتى أتينا خيمة الناطورِ ... قبل ارتفاع الشمس للذُّرورِ (٣)
فانحط كالطاوى من الصقورِ ... بطاعة الراغب لا المقهورِ
والحر عبد الحلَب المشطورِ ... حتى أتانا بضُروعٍ حُورِ (٤)
مملوءةٍ من عسل محصورِ ... والطلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ
ثم جلسنا جلسة المحبورِ (٥) ... بين حَفافَىْ جدول مسجورِ (٦)
أبيض مثل المُهْرَق المنشورِ (٧) ... أو مثل متن المنصُل المشهورِ
ينساب مثل الحية المذعورِ ... بين سِماطَىْ شجرٍ مسطورِ (٨)
ناهيك للعقود من ظهورِ ... فنيلت الأوطار فى سرورِ
وكل ما يقضى من الأمورِ ... تَعِلَّةٌ من يومنا المنظورِ
ومُتْعةٌ من مُتَع الغرورِ

---

(١) من شار العسل يشوره : جناه
(٢) من الخصر ، بالتحريك ، والقر ، بالضم ، ومعناهما البرد
(٣) الذرور : الطلوع — والناطور : حافظ الكرم والنخل
(٤) جمع أحور
(٥) المحبور : المسرور
(٦) مسجور : مملوء
(٧) المهرق : الصحيفة
(٨) السماط : الصف

صفات الفواكه والثمار

(ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر فى صفات الفواكه والثمار)

— كَرْم نُسلفه الماء القَراح ، ويقضينا أمهات الراح

— عنقود كالثريا ، وعنب كمخازن البلور ، وضروب النور ، وأوعية السرور

— أمهات الرحيق ، فى مخازن العقيق

— نخل نسلفه الماء ، ويقضينا العسل

رطب كأنها شهدة ، بالعقيق مقنّعة ، وبالعقيان مقمّعة

— رمان كأنه صُرَر الياقوت الأحمر

— سفرجل يجمع طيبا ، ومنظرا حسنا عجيباً ، كأنه زِئبِر[1] الخز الأغبر ، على الديباج الأصفر

— تفّاح نَفّاح[2] ، يجمع وصف العاشق الوجل ، والمعشوق الخجِل ، له نسيم العبير ، وطعم السكر ، رسول المحب ، وشبيه الحبيب

— تين كأنه سُفَر مضمومة على عسل

— مشمش كأنه الشهد فى بيادق الذهب

وصف الليل

قال بعض الرواة أنشدت أعرابيا قول جرير بن عطية بن الخَطَفَى :

أَبُدّل الليلُ لاتسرى كواكبُه   أم طال حتى حسبت النجم حيرانا

فقال : هذا حسن فى معناه ، وأعوذ بالله من مثله . ولكنى أنشدك فى ضده من قولى وأنشدنى

(١) الزئبر بكسر الزاى وسكون الهمزة وكسر الباء الموحدة هو مايظهر من درز الثوب

(٢) ينفح بالرائحة العطرة

وليلٍ لم يقصّره رقادٌ — وقصّر طوله وصل الحبيبِ
نعيم الحب أورق فيه حتى — تناولنا جناه من قريب
بمجلس لذةٍ لم نقوَ فيهِ — على شكوى ولا عدّ الذنوبِ
بخلنا أن نقطّعه بلفظٍ — فترجمت العيون عن القلوب

فقلت له : زدني فما رأيت أظرف منك شعرا . فقال أما هذا الباب فحسبك . ولكن أنشدك من غيره :

وكنت إذا علقتُ حبال قومٍ — صحبتهمُ وشيمتيَ الوفاء
فأحسن حين يُحسن محسنوهم — وأجتنب الإساءة ان أساءوا
أشاء سوى مشيئتهم فآتى — مشيئتهم وأترك ما أشاء

اصلاح الرواة لشعر القدماء

قال الأصمعى : قرأت على أبى محذر خلف بن حيان الأحمر شعر جرير فلما بلغت إلى قوله

ويوم كابهام القطاة محببٍ — إلىّ صباه غالبٌ لىَ باطِلُهْ
رُزِقنا به الصيد العزيز ولم نكن — كمن نبْلُه محرومةٌ وحبائلُه
فيالكَ يومًا خيره قبل شرِّهِ — تغيّبَ واشيهِ وأقصر عاذِلُهْ

فقال خلف : ويحه فما ينفعه خير يؤول إلى شرّ ؟ فقلت له كذا قرأته على أبى عمرو ابن العلاء . فقال لى : وكذا قال جرير وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع . قلت : فكيف كان يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يقول (خيره دون شرّه) فاروه كذلك فقد كانت الرواة قديمًا تصلح أشعار الأوائل . فقلت والله لا أرويه بعدها إلا كذا

قصر الليل

ومن أجود ما قيل فى قِصَرِ الليل قول ابراهيم بن العباس

وليلةٍ من ليالى الغُرِّ — قابلت فيها بدرها ببدرى

لم تك غير شفقٍ وفجرٍ   حتى تقضّت وهى بكر الدهر

وقال محمد بن أحمد الاصبهانى فيما يتعلق بهذا المعنى وان كان فى ذكر النهار

كيف يُرجَى لمقلتى هُدُوُّ   ورُقادى لطرف عينى عَدوُّ

بأبى من نعمت منه بيومٍ   لم يزل للسرور فيه نموُّ

يوم لهوٍ قد التقى طرفاه   فكأنّ العشىّ فيه غُدُوُّ

إذ لشخص الرقيب فيه تناهٍ   ولبدر السماء منى دُنُوُّ

وقال ابن المعتز :

يا رب ليـل سَحَرٌ كله   مفتضَح البدر عليل النسيمْ

تلتقط الأنفاس بَرد الندى   فيه فتُهديه لِحَرِّ الهموم

لا أعرف الإصباح لما بدا   فى ضوئه إلا بِسُكْر النديم

لبستُ فيه بالتذاذ الهوى   ولذة الراح ثياب النعيم

وصف منبج[1]

أخذ قوله (سَحَر كله) من قول عبد الملك بن صالح بن على وقد قال له الرشيد لما دخل مَنبج : أهذا منزلك[2] ؟ قال : هو لك : ولى بك يا أمير المؤمنين ! قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلى ، وفوق منازل الناس . قال : وكيف ذلك وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أمير المؤمنين أتأسّى به ، وأقفو أثره ، وأحذو حذوه قال : فكيف طيب منبج ؟ قال : عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الأدواء . قال : فكيف ليلها ؟ قال : سحر كله[3]

(١) بلد قديم ينسب اليه كثير من الشعراء أشهرهم البحترى وأبو فراس

(٢) رواية ياقوت : « أهذا البلد منزلك ؟ »

(٣) زاد ياقوت فى معجم البلدان « قال صدقت ، إنها لطيبة . قال : بل طابت بأمير المؤمنين . وأين يذهب بها عن الطيب وهى برة حمراء ، وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء ، فى فياف فيح ، بين قيصوم وشيح ؟ » فقال الرشيد : هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم .

وأخذ هذا الطائى فقال :

أيامنا مصقولةٌ أطرافها   بك والليالى كلها أسحارُ

ليالى السرور

ولأهل العصر : قال أبو على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى :

يارُب ليل سرور خلته قِصراً   كعارض البرق فى أفق الدجا بَرَقا

قد كاد يعثر أولاه بآخرهِ   وكاد يسبق منه فجره الشفقا

كأنما طرفاه طرفٌ اتفق الـ   ـجفنان منه على الإطباق وافترقا

ألفاظ فى هذا المعنى لأهل العصر

— ليلة من حسنات الدهر ، هواؤها صحيح ، ونسيمها عليل .

— ليلة كبُرد الشبابِ ، و بَرد الشراب

— ليلة من ليالى الشباب ، فضية الأديم ، مسكية النسيم

— ليلة هى لمعة العمر ، وغرة الدهر

— ليلة مسكية الأديم ، كافورية النجوم

— ليلة رقد الدهر عنها ، وطلعت سعودها ، وغابت عذالها

— ليلة كالمسك منظرها ومخبرها

— ليلة هى باكورة العمر ، وبكر الدهر

— ليلة ظلماتها أنوار ، وطِوال أوقاتها قصار

سعيد بن هريم

كان سبب اتصال سعيد بن هُرَيم بذى الرياستين الفضل[1] — وسمى ذا الرياستين لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون — أنه دخل عليه يوما فقال :

(١) هو الفضل بن سهل ولد سنة ١٥٤ فى سرخس وتوفى بها سنة ٢٠٢ . اتصل بالمأمون فى صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠ وصحبه قبل أن يلى الخلافة فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً . وقد مات قتيلا فى الحمام وهو فى سرخس. وقيل إن المأمون أعان على قتله ليتخلص من سلطانه

« الأجل آفة الأمل ، والمعروف ذخر الأبد ، والبر غنيمة الحازم ، والتفريط مصيبة أخي القدرة ، وإنا لم نصن وجوهنا عن سؤالك ، فصن وجهك عن ردنا ، وضعنا من إحسانك بحيث وضعنا أنفسنا من تأميلك »

فأمر أن يكتب كلامه ، وسماه سعيد الناطق ، ووصله بالمأمون فخص به ، فلحقته في بعض الأوقات جفوة من الفضل فكتب اليه :

« يا حافظ من يضيع نفسه عنده ، ويا ذاكر من نسي نصيبه منه ، ليس كتابي إذا كتبت استبطاء ، وما إمساكي اذا أمسكت استغناء ، فكتبت مذكرا لا مستقصراً فعالك »

فوصله وأحسن إليه

وقد روى بعض هذا الكلام المنسوب الى سعيد بن هريم لأبي حفص الكرماني مع ذي الرياستين

الفضل بن سهل

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

لعمرك ما الأشراف في كل بلدةٍ ... وان عظُموا للفضل الا صنائعُ
ترى عظماء الناس للفضل خُشعاً ... اذا ما بدا والفضلُ لله خاشعُ
تواضع لما زاده الله رفعةً ... وكل جليل عنده متواضع

وقال ابراهيم بن العباس :

لفضل بن سهلٍ يدٌ ... تقاصرَ عنها المثلْ
فباطنها للندى ... وظاهرها للقبَل
وبسطتُها للغنى ... وسطوتها للأجل

أخذه ابن الرومي فقال لابراهيم بن المدبر :

أصبحتُ بين ضراعة وتجمل ... والمرء بينهما يموت هزيلا
فامدد إليّ يداً تعوّد بطنها ... بذْل النوال وظهرها التقبيلا

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وزاد فى هذا المعنى تشبيها ظريفاً

مُقبّلُ ظهرِ الكف وهّاب بطنها   له راحةٌ فيها الحطيم وزمزمُ
فظاهرها للناس ركن مقبّلٌ   وباطنها عين من العُرف عَيْلَمُ(١)

وكان ذو الرياستين يقبل صواب القائلين بما فى قوته من صفاء الغريزة ، وجودة النَّحيزة(٢) فهو كما قال أبو الطيب

ملكٌ مُنْشَد القريض لديه   يضع الثوب فى يدىْ بزّازِ

وكانت مخايل فضله ، ودلائل عقله ، ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دين المجوسية ، فقال له : أسلم أجد السبيل الى اصطناعك . فأسلم على يد المأمون ولم يزل فى جنبته ، الى أن رقى الى رتبته

وذكره يحيى عند الرشيد فأجمل الثناء فأمر باحضاره فلما رآه أُفحم ، فنظر الرشيد الى يحيى كالمستفهم ، فقال : يا أمير المؤمنين إن من أدل دليل على فراهة المملوك أن تملك هيبة مولاه لسانه وقلبه ، فقال الرشيد : لئن كنتَ سكتَّ لكى تقول هذا فقد أحسنت ، ولئن كان هـذا شيئاً اعتراك عند الحصَر فقد أجدت ! وزاد فى إكرامه وتقريبه ، وجعل لا يسأله بعـد ذلك عن شىء إلا أجابه بأفصح لسان ، وأجود بيان

قال سهل بن هارون : ومما حفظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تخليده فى الكتب ليؤتمَّ به ، وينتفع بمقول حكمته ، قوله :

من ترك حقاً فقد غبن حظاً ، ومن قضى حقاً فقد أحرز غنما ، ومن أتى فضلا فقد أوجب شكراً ، ومن أحسن توكلا لم يعدم من الله صنعاً ، ومن ترك لله شيئاً لم يجد لما ترك فقداً ، ومن التمس بمعصية الله حمداً عاد ذلك على ملتمسه ذماً ، ومن طلب بخلاف الحق له دركاً عاد ما أدرك من ذلك له موبقاً ، ولذلك أوجب الفلاح للمحسنين . وجعل سوء العاقبة للمسيئين المقصرين .

(١) عيلم : كثيرة الماء . والعيلم أيضاً البحر
(٢) النحيزة : الطبيعة

قبح السعاية

ووقّع فى رقعة ساعٍ :

نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السّعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دلّ على شىء وأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى فانه لو كان فى سعايته صادقا لكان فى صدقة آثما ، إذ لم يحفظ الحرمة ، ويستر العورة ، والشيء يقرن مع جنسه

كتب محمد بن على الى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان واليا على أرمينية للرشيد : إنّ قوما صاروا الى سبيل النصح فذكروا ضياعا بأرمينية قد عفت ودرست يرجع منها الى السلطان مال عظيم ، و إنى وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك

فكتب اليه : قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة فى أيامنا كليلة خاسئة ، فاذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإنّا لم نولك الناحية ، لتتبع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الدائرة ، وجنبنى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق

وكنتَ إذا حللت بدار قومٍ رحلت بخزيةٍ وتركت عارا

وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم انها مدّة تنتهى ، وأيام تنقضى ، فإما ذكر جميل ، و إما خزى طويل

وقال رجل للمهدى : عندى نصيحة يا أمير المؤمنين ، فقال : لمن نصيحتك هذه؟ لنا ، أم لعامّة المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال: لك ، يا أمير المؤمنين[1] ، قال : ليس الساعى بأعظم عورةً ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة ،

---

(١) لم نر فى الاصل ذكراً للصيحة . والظاهر من كلام المهدى أن ذلك « الناصح » ذكر أصحاب المهدى بسوء . فقال المهدى : ليس الساعى الخ . فليلاحظ القارىء تلك الجملة التى ضاعت ليظهر له ربط الكلام

فلا نشفي غيظك ، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك ! ثم أقبل على الناس فقال : لاينصح لنا ناصح إلا بما فيه لله رضى ، وللمسلمين صلاح ، فانما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته . فاني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة ، والقلوب لاتبقى لوالٍ لاينعطف إذا استُعطِفَ ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر اذا ظفر ، ولا يرحم اذا استُرحم

آثار الفضل بن سهل

ووقَّع ذو الرياستين الى تميم بن خزيمة : الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتمها ، والصنائع باستدامتها ، والى الغاية يجرى الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناع الشك فحمد السابق ، وذم الساقط

وذو الرياستين هو القائل

أنضيتِ أحرف لا مما لفظت بها   فحوّلى رحلها عنا الى نَعَمِ
أو صيريها الينا منك منعمةً   إن كنت حاولت فيها خِفة الكلم
قِسْتِ علينا فعارضنا قياسكُمُ   يا أحسن الناس من قرن الى قدَمِ

ولما قُتل ذو الرياستين دخل المأمون على أمه فقال : لاتجزعى فانى ابنك بعد ابنك . فقالت : أفلا أبكى على ابن أكسبنى ابناً مثلك ؟

وصف فرس

ووصف ابن القِرِّية(١) فرساً أهداه الحجاج الى عبد الملك بن مروان فقال : حسن القد ، أسيل الخد ، يسبق الطَّرف ، و يستغرق الوصف

وأهدى عبد الله بن طاهر الى المأمون فرساً وكتب اليه : قد بعثت الى أمير

(١) هو أيوب بن زيد المتوفى سنة ٨٤ هـ

المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى الصّعْداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدور جرى الماء ، فهو كما قال تأبط شرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تَنْتَحى بمنخرق من شَدّه المتدارِكِ

وقال رجل لبعض النخاسين : اشترلى فرسا جيد القميص ، حسن الفصوص وثيق القصب ، نقىّ العصب ، يشير بأذنيه ، ويندس برجليه [1] ، كأنه موج فى لجة ، أو سيل فى حدور .

جمع محمد بن الحسين بين هذين الكلامين وزاد فقال يصف فرسا : هو حسن القميص ، جيد الفصوص ، وثيق القصب ، نقى العصب ، يبصر بأذنيه ، ويتبوّع بيديه [2] ، ويداخل برجليه ، كأنه موج فى لجة أو سيل فى حدُور ، يناهب المشى قبل أن يُبعث ، ويلحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز جوازى الظباء فى الاستواء ويسبق فى الحدور جرى الماء ، إن عطف جار ، وإن أُرسل طار ، وان كُلف السير أمعن وسار ، وإن حُبِسَ صَفِن [3] ، وان استُوقف فطن ، وان رعى أبن [4] فهو كما قال تأبط شرًّا : (وذكر البيت)

شمس بن مالك

وأول هذه الأبيات

وانى لمهدٍ من ثنائى فقاصد به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهزّ به فى ندوة الحى عِطفهُ كما هز عطفى بالهجان الأوارك [5]
قليل التشكى للملمّ يصيبه كثير الهوى شتّى النوى والمسالكِ

(١) يندس : يضرب
(٢) التبوع : ابعاد خطو الفرس فى جريه
(٣) صفن الفرس قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة
(٤) أبن : قوى
(٥) الندوة : المجتمع — والهجان : الابل الكريمة ، والاوارك : راعية الأراك

يظل بموماةٍ ويمسى بغيرها جحيشاً ويعروري ظهور المهالك (١)
ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى بمنخرق من شده المتدارك
اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىءٌ من قلب شيحانَ فاتكِ (٢)
اذا طلعت أولى العدو فنفرةٌ الى سلةٍ من صارم العزم فاتكِ
ويجعل عينيه ربيئة قلبهِ الى ضربة من حد أخلق صائكِ (٣)
اذا هزه فى عظم قرن تهللتْ نواجذ أفواه المنايا الضواحكِ
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٤)

خيل مصر

وأهدى عمرو بن العاص الى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر فعُرضت عليه وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثى فقال له معاوية : كيف ترى هدايانا يا أباسعيد ، فان أخاك عمْراً قد أطنب فى وصفها ؟ فقال أراها يا أمير المؤمنين على ما وصف ، وانها لمخيلة (٥) بكل خير ، انها لسامية العيون ، لاحقة البطون ، مصغية الآذان ، قبّاء الأسنان (٦) ضخام الركبات ، مشرفات الحجبات (٧) ، رحاب المناخر ، صلاب الحوافر ، وقعها تحليل ، ورفعها تعليل (٨) فهذه ان طُلبت سبقت ، وان

(١) الموماة : المفازة ينعدم فيها الماء — جحيش : منفرد — يعرورى : يركب على العرى . يريد أنه يركب ظهور المهالك بلا سرج وهو تعبير بدوى

(٢) الكالىء : الحافظ — والشيحان : الحازم ، يريد ان قلبه يقظ وإن نامت عينه وفى الاصل « سبحان »

(٣) الربيئة : الرقيب — والصائك : القاطع وفى الاصل « صابك »

(٤) أم النجوم الشوابك : هى الشمس

(٥) مخيلة : مبشرة

(٦) قباء : لها صرير

(٧) جمع حجبة بالتحريك وهى من الفرس ما أشرف على صفاق البطن من وركيه

(٨) التحليل والتعليل من حركات الخيل

طَلَبِتْ لحقت . قال له معاوية اصرفها إلى رحلك فان بنا عنها غنى ، و بفتيانك اليها حاجة .

صفات الخيل

وقال النابغة الجعدى :

و إنّا أناسٌ لا نعوّد خيلنا اذا ما التقينا أن تَحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا[(١)]
فليس بمعروف لنا أن نردها صِحاحاً ولا مستنكرٌ أن تعقرا

وقال بعض العرب :

ولقد شهدت الخيل يوم طِرادها بسليم أوظفة القوائم هيكلِ [(٢)]
فدعَوا : نَزالِ ! فكنت أول نازلٍ وعلام أركبه إذا لم أنزلِ

ووصف أعرابى فرسا فقال : لما أرسلت الخيل جاؤا بشيطان فى أشطان [(٣)] ، فأرسلوه ، فلمع لمع البرق ، واستهل استهلال الودق [(٤)] ، فكان أقربهم اليه ، الذى يقع عينه من بعد عليه

وذكر أعرابى رجلا فقال : عنده فرس طويل العذار ، أمين العِثار ، فكنت إذا رأيته عليه ظننته بازيا على مربأ ، عليه رمح طويل يقصر به الآجال .

وقال بعض المحدَثين فى هذا التطابق :

لقيناهم بأرماحٍ طوالٍ تبشرهم بأعمارٍ قِصارِ

ووصف أعرابى خيلا لبنى يربوع فقال : خرجت علينا خيل من مستطير نَقْعٍ[(٥)]

(١) الجون الاسود
(٢) الأوظفة جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق من الخيل والابل وغيرها والهيكل : الفرس الطويل
(٣) الاشطان جمع شطن بالتحريك وهو الحبل
(٤) الودق : المطر
(٥) النقع : غبار الحرب

كأن هواديها أعلام ، وآذانها أقلام ، وفرسانها أسود آجام

ولما أنشد العانى الرشيد يصف فرسا :

كأن أذنيه إذا تشوفا قادمةً أو قلماً محرفا

ولحن ، فهم ذلك أكثر من حضر ، فقال الرشيد اجعل مكان (كأن) تخال فعجبوا لسرعة بديهته[1]

وللطائيين فى هذا النوع أشعار كثيرة منعني من اختيارها ، كثرة اشتهارها ، وسأنشد بعض ذلك : قال أبو تمام

مامقرَب[2] يختال فى أشطانهِ ملآن من صلف به وتَلَهْوُقِ[3]
بحوافرٍ حُفرٍ وصَلْتٍ أصلتٍ[4] وأشاعرٍ شُعْرٍ[5] وخلق أخلق
ذو أولقٍ تحت العجاج وإنما من صحةٍ إفراط ذاك الأولق[6]
صافى الأديم كأنما ألبستهُ من سندسٍ بُرْداً ومن استبرقِ
إمْليسةٌ إمليدةٌ لو علقت فى صهوتيه العين لم تتعلق[7]
مسود شطر مثل ما اسود الدجى مبيض شطر كابيضاض المهرَقِ[8]

(١) فى الأصل « تهديه »

(٢) المقرب والمقربة ، على صيغة المفعول ، الفرس التى تدنى وتقرب لئلا يطرقها فحل لئيم

(٣) التلهوق : بريق البياض فى الفرس

(٤) الصلت : الجبين الواضح

(٥) الأشاعر جمع أشعر وهو مااستدار بالحافر من منتهى الجلد

(٦) الأولق : الجنون

(٧) الصهوة : موضع السرج من الفرس . والشاعر يصف الفرس بأنه امليسة امليدة أى ناعم الملمس براق

(٨) المهرق : الصحيفة

وقال أبو عبادة :

وأغـر في الزمن البهيم محجل ... قد رحت منه على أغر محجل [1]

واف الضلوع يشد عقد حزامه ... يوم اللقاء على معم مخـول

يهوي كما هوت العقاب إذا رأت ... صيداً وينتصب انتصاب الأجدل [2]

متوحش بدقيقتـين كأنما ... تريان من ورق عليه موصل [3]

كالرائح النشوان أكثر مشيـه ... عرض على السنن البعيد الأطول

ويظن ريعان الشباب يروعه ... من نشوة أو جنة أو أفـكل [4]

هزج الصهيل كأن في نبراته ... نغمات معبد في الثقيل الأول

تتوهم الجوزاء في أرساغه ... والبدر غرة وجهه المتهلل

صافي الأديم كأنما عنيت له ... بصفاء نقبته مداوس صيقل [5]

وكأنما كسي الخدود نواعما ... مهما تلاحظها بلحظ يخجل

وكأنما نفضت عليـه صبغها ... صهباء للبردان [6] أو قطربل [7]

---

(١) البهيم : المظلم . والغرة والتحجيل بياض في الجبهة والقوائم ، والاغر المحجل هو الفرس وهو مجازاً الرجل الكريم

(٢) الأجدل : الصقر

(٣) الدقيقتان : صفة للساقين

(٤) الافكل : الرعدة

(٥) المداوس جمع مدوس وهو المصقلة بكسر الميم فيهما ، يقال: داس الصيقل السيف وسنه بالمدوس . وأخذنا في الدوس وهو تسوية الحلية وتزيينها

(٦) البردان ، بالتحريك ، اسم لعدة أماكن ، والمراد به هنا الموضع الذي كان بهذا الاسم قرب بغداد ، وكان مشهورا بالخمر ، وفيه يقول جحظة

ادفع ورود الهم عنك بقهوة ... مخزونة في حانة الخمار

جازت مدى الأعمار فهي كأنها ... عند المذاق تزيد في الأعمار

يسعى بها خنث الجفون منعم ... في خده ماء النضارة جار

في رقة البردان بين مزارع ... محفوفة ببنفسج وبهار

بلد يشبه صيفه بخريفه ... رطب الأصائل بارد الأسحار

(٧) قطربل بضم فسكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشدد مضمومة ولام ، اسم قرية

ملك العيون فان بدا أعطينهُ نظر المحب الى الحبيب المقبلِ

وقال اسحاق بن خلف النهروانى لأبى دُلَف وكان له فرس أدهم يسميه غرابا

كم كم تجرّعه المنون ويسلمُ لو يستطيع شكا اليك له الفمُ
من كل منبت شعرة من جلده خط ينمقه الحسام المِخْذَمُ (١)
ما تدرك الأرواح أدنى جريه حتى يفوتَ الريح وهو مقدَّمُ
رجعته أطراف الأسنة أشقراً واللون أدهم حين ضرَّجه الدمُ
وكأنما عقد النجوم بطرفهِ وكأنه بعُرَى المجرّة مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب :

جفتنى كأنى لست أنطقَ قَوْمها وأطعَنَهُمْ والشُّهْبُ فى صُوَرِ الدُّهْمِ

وقال أبو الفتح كشاجم :

قد راح تحت الصبح ليل مظلمٌ اذ لاح فى السرج المحلّى الأدهمُ
ديباج ألوان الجياد ولم يكن ليُخص بالديباج الا الأكرمُ
ضحك الأُجين على سواد أديمه وكذا الظلام تنير فيه الأنجمُ
فكأنه ببنات نعشَ ملببٌ وكأنما هو بالثريّا مُلجَمُ

قلت هذا من قول ابن المعتز :

ألا فاسقيانى والظلام مقوّضٌ ونجم الدجا تحت المغارب يركضُ
كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتُّحُ نَوْرٍ أو لجامٌ مفضَّضُ

وقال أبو الفتح :

من شكَّ فى فضل الكميت فبينهُ فيه وبين يقينه المضمارُ
فى منظر مستحسَنٍ محمودةٍ أخباره إذ تُبتلى الأخبارُ

بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر . وكانت لها أخبار كثيرة تسع لكتاب فى عدة مجلدات كما قال ياقوت ، اذ كانت ملعبا للاهين من شعراء الخمر والمجون

(١) المخذم : القاطع

ماءٍ تدفَّقَ طاعة وسلاسة ... فاذا استدرَّ الحضْرُ فيه فنارُ
واذا عطفت به على ناورده ... لتديره فكأنه بركار
وصف الخَلوق أديمه فكأنما ... أهدى الخَلوقَ لجلده عطَّارُ (١)
قصرت قلادة نحرهِ وعذارهِ ... والرسغ وهى من العِتاق قِصارُ
وكأنما هاديه جِذعٌ مُشرِفٌ ... وكأنما للضبع فيه وِجار (٢)
يرد الضَّحاضحَ غير ثاني سُنبكٍ ... ويرود طرفك خلفه فتحارُ (٣)
لو لم تكن للخيل نسبة خلقهِ ... خالته من أشكالها الأطيارُ

وقال ابن المعتز :

وخيل طواها القَوْدُ حتى كأنها ... أنابيبُ سُمْرٌ من قنا الخط ذُبَّلُ
صببنا عليها — ظالمين — سياطنا ... فطارت بها أيدٍ سراع وأرجُلُ

قوله (ظالمين) من أبدع حشو جرى فى بيت ، وكأن ابن المعتز أشار إلى قول اعرابى مولد

وعَوْدٍ قليل الذنب عاودت ضربهُ ... إذا هاج شوقى من معاهدها ذِكْرُ (٤)
فقلت لهُ زلفاه ويحك سبَّبت ... لك الضرب فاصبر إنّ عادتك الصبرُ

وقال ابن المعتز :

أراجعتى فداك بأعوجىّ ... كقدح النَّبع فى الريش اللُّؤام (٥)
بأدهمَ كالظلام أغر يجلو ... بغرته دياجير الظلام
ترى أحجاله يصعدن فيه ... صعود البرق فى جو الغمام

---

(١) الخلوق : نوع من الطيب
(٢) هاديه : صدره
(٣) الضحاضح : بقايا الماء
(٤) العود : البعير
(٥) الاعوجى : الفرس الكريم — واللؤام : المحكم

وقال أيضا :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ في أفق مثل مَداك الطيبِ
بقارح مُسَوم يعبوبِ ذى أذن كخصوة العسيب(١)
أو آسةٍ أوفت على قضيبِ يسق شأو النظر الرحيب
أسرع من ماء الى تصويبِ(٢) ومن رجوع لحظةِ المريب

وقال :

ربَّ ركب عرّسوا ثم هبُّوا نحو أسراج وشدّ رحال
وعدونا بأعنة خيل تأ كل الأرض بأيدٍ عِجال
زينتها غرر ضاحكات كبدور فى وجوه ليال

وقال على بن محمد الإيادى :

مسح الظلام بعرفه يدَهُ ومشى فقبَّلَ وجهَهُ البدرُ

وقال الناشىء أبو العباس عبد الله بن محمد :

أحوى عليه مسائحٌ من ليطةٍ(٣) شُهُبٌ تسيل على نواشر ساقهِ
فكأنهُ متلفع قبطيةً أثناؤها مشدودة بنطاقهِ
فسوده كالليل فى إظلامهِ و بياضه كالصبح فى إشراقهِ
صافى الأديم كريمةٌ أنسابهُ أخلاقه عينٌ على أعراقهِ

كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي الى الأمير أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال وقد زاره الأمير فى داره

لازال مجدك للسماك رسيلا(٤) وعلو جدك بالخلود كفيلا

(١) القارح : الفرس القوى ومسوم وضعت عليه السومة وهى العلامة — واليعبوب الفرس السريع الطويل — والعسيب جريدة من النخل مستقيمة دقيقة والذى لم ينبت عليه الخوص من السعف.

(٢) تصويب : انحدار

(٣) الليطة بكسر اللام قشر القصبة والقوس والقناة

(٤) رسيل : قرين.

يا غرة الزمن البهيم إذا غدا أهل العلا لزمانهم تحجيلا
يا زائراً مدت سحائب طوله ظلاً عليَّ من الجمال ظليلا
وأنت بصوب جواهرٍ من لفظه حتى انتظمن لمفرقى إكليلا
بأبى وغير أبى هلالٌ نوره يستعجل التسبيح والتهليلا
نقشت حوافر طرفه فى عرصتى نقشاً محوتُ رسومه تقبيلا
ولو استطعت فرشت مسقط خطوه بعيون عينٍ لا ترى التكحيلا
ونثرت روحى بعدما ملكت يدى وخررتُ بين يدىْ هواه قتيلا

وقال أبو القاسم بن هانى يصف خيل المعز :

له المقربات الجُرْدُ ينعلها دمًا اذا قرعت هام الكماة السنابك
يريق عليها اللؤلؤ الرطب ماءه ويسبك فيها ذائب التبر سابكُ
صقيلات أجسام البروق كأنما أُمِرَّتْ عليها بالشموس المداوك

وقال يصف فرسا لجعفر بن على بن حمدون :

تهلَّل مصقول النواحي كأنهُ اذا جال ماء الحسن فيه غريقُ
من البُهم وَرْد اللون شِيبَ بكُمْتةٍ كما شِيب بالمسك الفتيق خلوقُ (١)
فلو ميز منه كل لون بذاته جرى سَبَجٌ منه وذاب عقيق (٢)

وقال فى قصيدة يمدح فيها أبا الفرج الشيبانى :

فتقت لكم ريح الجِلاد بعنبرٍ وأمدكم فلَق الصباح المسفر
وجنيتمُ ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر
أبنى العوالى السَّمهرية والسيو ف المشرفية والعديد الأكثر
مَنْ منكمِ الملك المطاع كأنهُ تحت السوابغ تُبَّع فى حِمْيَرَ

(١) البهم : جمع بهيم وهو الأسود
(٢) السبج : السواد

القائد الخيـل العِتاق شوازباً خزراً إلى لحظ السنان الأخزر (١)
شُعْث النواصي حرة آذانها قُبّ الأياطل داميات الأنسر (٢)
تنبو سنابكهن عن عَفَر الثرى فيطأن فى خد العزيز الأصعر (٣)
فى فتية صدأُ الحديد عبيرُهم وخَلوقهم عَلَق النجيع الأحمر (٤)
لا يأكل السِّرحان شِلو عقيرهم مما عليـه من القنا المتكسر (٥)

وقال فى قصيدة يمدح بها ابراهيم بن جعفر بن على :

فخراً لِطِرف أعوجى أنت فى صَهَواته والحسنُ والتطهيم (٦)
يبدى لعزك نخوة فكأنهُ ملِكٌ تدين له الملوكُ عظيم
هادٍ على الخيل العِتاق كأنهُ بين الدُّجُنَّة والصباح صريم (٧)
سامى القذال بمسمعيه عيافةٌ تحت الدجى ولطرفه تنجيم (٨)

(١) شوازب جمع شازب وهو الفرس الضامر ، والخزر جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه

(٢) الاياطل جمع أيطل وهو الخصر ، وقب جمع أقب وقباء من القبب بالتحريك وهو دقة الخصر وضمور البطن — والانسر جمع نسر وهو ما ارتفع فى باطن حافر الفرس من أعلاه

(٣) الاصعر الذى يصعر خده ويميله عن النظر الى الناس تهاونا وكبرا

(٤) النجيع دم الجوف . والعلق الدم الغليظ ، والخلوق الطيب

(٥) السرحان الذئب ، والشلو العضو والجسد

(٦) التطهيم : الحسن ، يقال : جواد مطهم ، ورجل مطهم ، وامرأة فى خلقها تطهيم

(٧) العتاق : الخيل الجياد . والدجنة : الظلمة — والصريم : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر ، والمراد أن لونه وسط بين السواد والبياض فهو كميت

(٨) القذال : معقد العذار من الفرس خلف الناصية — والعيافة زجر الطير وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وانوائها فتسعد أو تتشأم ، والعائف المتكهن بالطير أو غيرها . والتنجيم النظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، والمراد ان أذنى هذا الجواد تدلانه على مواقع الخير والشر فى الظلام

مؤللة وقلب أصمع وحشا أقب وكلكل ململوم(١)
مطرود من صهواته متزلزل والجيش من أنفاسه مهزوم
خرق العيون فضل عنها لونه وصفا فقلنا ما عليه أديم
فكأنما جمدت عليه مزنة والجاب عنه عارض مركوم(٢)
وكأنما نحرت عليه بوارق وكأنما كسفت عليه نجوم
وكأنك ابن المنذر النعمان فو ق سراته وكأنه اليحموم

وقال على بن محمد الايادى يصف فرس أبي عبد الله جعفر بن أبي القاسم القائم:

وأقب من لحق الجياد كأنه قصر تباعد ركنه من ركنه
لبست قوائمه عصائب فضة وغدت بسمر صفا المسيل ودكنه
وكأنما انفجر الصباح بوجهه حسنا أو احتبس الظلام بمتنه
قيد العيون إذا بصرن بشخصه ورضا القلوب إذا اصطلين بضغنه
متسيطر بالرا كبين كأنه باز تروح به الجنوب لوكنه(٣)
يستوقف اللحظات فى خطراته بكمال خلقته ودقة حسنه
حلو الصهيل تجال فى لهواته(٤) حاد يصوغ بدائعا من لحنه
متجبر ينبى بعتق نجاره(٥) إشراف كاهله ودقة أذنه
ذو نخوة شمخت به عن نده وشهامة طمحت به عن قرنه(٦)

(١) مؤللة: من قولهم ألل الفرس اذا نصب أذنيه وحددهما، والقلب الاصمع هو الذكى المتيقظ، والأقب: الضامر، والكلكل: الصدر ومن الفرس مابين محزمه الى مامس الأرض منه اذا ربض

(٢) العارض: السحاب المعترض فى الأفق، والمركوم: المتراكم الذى جمع بعضه فوق بعض

(٣) الوكن: العش ومثله الوكنة.

(٤) اللهوات: مجارى الحلق

(٥) عتق النجار: كرم العنصر

(٦) القرن: النظير

وكأنه فلك اذا حركته ... جار على سهل البلاد وحزنه
قد راح يحمل جعفرَ بن محمدٍ ... حمل النسيم لوابلٍ من مزنه

وما أحسن ما قال أبو الطيب المتنبي :

ويوم كاون العاشقين كمنته (١) ... أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغرّ (٢) كأنه ... من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في إهابه ... تجيء على صدر رحيب وتذهب (٣)
شققت به الظلماء أدني عنانه (٤) ... فيطغى وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرع أيّ الوحش قفّيته به ... وأنزل عنه مثله حين أركب (٥)
وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها (٦) ... وأعضائها فالحسن عنك مغيّب

المقامة الحمدانية (٧)

وينخرط في سلك هذا المعنى مقامة من مقامات الاسكندري في الكدية (٨) مما أنشأه بديع الزمان وأملاه في شهور سنة خمس وثمانين وثلثمائة — قال البديع :

---

(١) كمنته : أي كمنت فيه واستترت

(٢) أغر من الغرة وهي البياض في جبهة الفرس

(٣) الاهاب : الجلد ، وهو يصف الفرس بعرض الصدر وسعة الجلد لتسهل عليه سرعة العدو

(٤) العنان : اللجام

(٥) قفيته : أتبعته ، ومثله منصوب على الحالية من الضمير في (عنه) يريد وصف الحصان بدوام النشاط فهو عند النزول مثله عند الركوب

(٦) الشيات : الألوان

(٧) هذه المقامة شرحها مؤلف زهر الآداب فليعد القارئ الى شرحه في الصحيفة التي تلي المقامة ، وليكتف منا بما نراه من الشرح القليل

(٨) الكدية : قسوة الدهر ، والمراد هنا الاستجداء

حدثنا عيسى بن هشام قال: حضرنا مجلس سيف الدولة يوماً وقد عرض عليه فرس متى ماترق العين فيه تسهل (١) فلحظته الجماعة ، فقال سيف الدولة : أيكم أحسن صفته جعلته صلته . فكل جهد جهده ، و بذل ماعنده ، فقال أحد خدمه : أصلح الله الامير ، رأيت بالأمس رجلا يطأ الفصاحة بنعليه (٢) ، وتقف الأبصار عليه ، يسلي الناس ، ويشفي الباس ، ولو أمر الأمير باحضاره ، لفضلهم بحضاره (٣) ، فقال سيف الدولة عليّ به في هيئته . فطار الخدم في طلبه ، فجاءوا للوقت به ، ولم يعلموه لأي حال دعي به ، ثم قرب واستدنى ، وهو في طمرين قد أكل الدهر عليهما وشرب (٤) ، وحين حضر السماط ، لثم البساط ، ووقف . فقال سيف الدولة بلغتنا عنك عارضة (٥) ماعرضها في هذا الفرس وصفه فقال : أصلح الله الأمير : كيف به قبل ركوبه ووثوبه ، وكشف عيوبه وغيوبه ؟ فقال : اركبه ، فركبه وأجراه ثم قال : أصلح الله الأمير هو طويل الاذنين ، قليل الاثنين ، واسع المراث (٦) ، لين الثلاث ، غليظ الأكرع (٧) ، غامض الأربع ، شديد النفس ، لطيف الخمس ، ضيق القلت (٨) رقيق الست ، حديد السمع ، غليظ السبع ، رقيق اللسان ، عريض الثمان ، شديد الضلع ، قصير التسع ، واسع النحر ، بعيد العشر ، يأخذ بالسائح ، ويطلق بالرامح ، ويطلع بلائح ، ويضحك

(١) يريد أن أعلاه وأدناه مستويان في الحسن ، وهذا التعبير مأخوذ من معلقة امرئ القيس

(٢) كناية عن انقيادها له

(٣) الحضار بالضم ارتفاع الفرس في عدوه

(٤) الطمران : ثوبان باليان

(٥) العارضة : سرعة البديهة

(٦) المراث : خوران الفرس وهو المبعر

(٧) الأكرع : جمع كراع وهو مادون الكعب

(٨) القلت : النقرة في رأس الورك

عن قارح يحز وجه الكديد(١) ، يداق الحديد ، يحضر كالبحر اذا ماج ، والسيل اذا هاج .

— فقال سيف الدولة : لك الفرس مباركاً فيه .

— فقال : لازلت تأخذ الأنفاس ، وتمنح الأفراس !

— ثم انصرف وتبعته ، وقلت : لك على مايليق بهذا الفرس من خلعة ان فسرت ما وصفت ، فقال : سل عما أحببت ، فقلت : ما معنى قولك بعيد العشر ؟ فقال : بعيد النظر ، والخطو ، وأعالى الجنبين (٢) وما بين الوقبين ، والجاعرتين ، وما بين الغرابين والمنخرين ، وما بين الرجلين ، وما بين النقبة والصفاق ، و بعيد القامة فى السباق . فقلت : لافض فوك ! فا معنى قولك قصير التسع ؟ قال هاك : قصير الشعرة ، قصير الأطرة ، قصير العسيب ، قصير القضيب ، قصير العضدين ، قصير الرسغين ، قصير النسا ، قصير الظهر ، قصير الوظيف ، فقلت : لله أنت ! فامعنى قولك عريض الثمان؟ قال عريض الجبهة ، عريض الصهوة ، عريض الكتف ، عريض الجنب ، عريض الورك ، عريض العصب ، عريض البلدة ، عريض صفحة العنق ، فقلت أحسنت فامعنى قولك غليظ السبع ؟ قال: غليظ الذراع ، غليظ المحزم ، غليظ العكوة ، غليظ الشوى ، غليظ الرسغ ، غليظ الفخذين ، غليظ الحبال ، فقلت : لله درك! فا معنى قولك رقيق الست؟ فقال : رقيق الجفن ، رقيق السالفة ، رقيق الجحفلة ، رقيق الأديم ، رقيق أعلى الأذنين ، رقيق العرضين . فقلت : أجدت! فا معنى قولك لطيف الخمس؟ قال: لطيف الزور ، لطيف النسر ، لطيف الجبة ، لطيف المجاية ، لطيف الركبة ، فقلت : حياك الله ! فا معنى قولك غامض الأربع ؟ قال غامض أعالى الكتفين ، غامض المرفقين ، غامض الحجاجين ، غامض الشطا . قلت فما معنى قولك لين الثلاث؟ قال لين المردغتين

(١) الكديد : الأرض الغليظة

(٢) بعد أعالى الجنبين كناية عن متانة الخلق

لين العُرف ، لين العِناق ، قلت فما معنى قولك قليل الاثنين ؟ قال قليل لحم الوجه ، قليل لحم المتنين . قلت فمن أين نبات هذا العلم ؟ قال من الثغور الأموية ، وبلاد الاسكندرية . فقلت له : أنت مع هذا الفضل تعرض وجهك لهذا البذل ! فأنشأ يقول :

ساخف زمانك جداً فالدهر جِدُّ سخيفِ
دع الحمِيَّة نسْياً وعش بخير وريفِ
وقل لعبدك هذا يجيء لنا برغيف

تفسيرات لغوية

سقط عنا تفسيره في لين الثلاث [1] وأكثر هذا التفسير يحتاج الى تفسير ، ولم يرد بما أورد إفهام العوام ، والبلاغة لمحة دالة ، وبلاغة النثر ، أخت بلاغة الشعر وقد قال البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طُوِّلت خُطَبُه

وسأقول فى شرحه بكلام وجيز زيادة فى الافادة : الوقبان نقرتان فوق العينين ، والجاعرتان من الفرس موضع الرقمتين من الحمار ، وهما منتهى ضرب به بذنبه اذا حركه والغرابان الناتئان من أعلى الوركين ، وذكر النقبة هنا وهو الذى يعرف بالمنقب وهو من السرة حيث ينقب البيطار ، والصفاق الخاصرة وقد قيل : جلد البطن كله صفاق والذى أراده الخاصرة ، وأراد بيعد القامة فى السباق امتداده اذا جرى مع الأرض ، والأطرة هنا طرف الأبهر ، وهى طفطفة غايظة ، والأبهر عرق يستبطن الظهر ، فيتصل بالقلب ، وقيل هو الأكحل ، والعسيب عظم الذنب ، والرسغ من الفرس

(١) قول المؤلف : « سقط عنا تفسيره فى لين الثلاث » يدل على أن المقامة التى اثبتها لم يكن فيها تفسير « لين الثلاث » ولكن النص الموجود فيه تفسير ذلك ، فمن المرجح إذن أن يكون بعض النساخ أضاف هذا التفسير إلى المقامة نقلا عن إحدى نسخ المقامات . وقد فات ذلك الناسخ أن يشير إلى ان المؤلف نقل عن نسخة لم يكن فيها تفسير « لين الثلاث »

موضع القيد ، والنسا عرق مستبطن الفخذين وقصره محمود فى جرى الفرس ولـكنه لايسمح بالمشى ، والوظيف لـكل ذى أربع ما فوق الرسغ الى الساق ، والصهوة الظهر ، والبلدة ما بين عينيه ، والعكوة مغرز الذنب ، والشوى الأطراف ، والحبال حبلا العاتق والظهر ، والجحفلة من ذوات الحافر هى الشفة من الانسان ، والفرضان من الفرس ما انحدر من قصبة الأنف من جانبيها ، والزور الصدر ، والنسر فى الحافر لحمة يابسة فى أسفله يشبهها الشعراء بالنوى ، والجبة التى فيها الحوشب والحوشب حشو الحافر ، والعجاية عظم فى قوائم الفرس والبعير مركب فيه فصوص من عظام كأمثال الكعاب تكون عند الرسغ ، والحجاجان العظمان المطيفان بالعين ، والشظا عظم لاحق بالذراع ، والمتنان جانبا الظهر ، وسقط عنا تفسير الثلاث من نفس المقامة [1]

أنجز حر ما وعد

قال الجاحظ قال أبو القاسم بن معن المسعودى لعيسى بن موسى : أيها الأمير ما انتفعت بك منذ عرفتك ، ولا إلى خير وصلت منك منذ صحبتك ، فقال : ولم ؟ ألم أكلم لك أمير المؤمنين فى كذا وكذا ؟ قال بلى ! فهل استنجزت ما وعدت وعاودت ما ابتدأت ، فقال حالت دون ذلك أمور قاطعة ، وأحوال عاذرة ، قال أيها الأمير فما زدتنى على أن نبهت الهم من رقدته ، وأثرت الحزن من ربضته ، إن الوعد إذا لم يصحبه انجاز يحققه ، كان كلفظ لامعنى له ، وجسم لاروح فيه .

قيمة الوعد

وكلم منصور بن زياد يحيى بن خالد فى حاجة لرجل فقال : عده قضاءها . قال فقلت : أصلحك الله ، وما يدعوك الى العدة مع وجود القدرة ؟ فقال هذا قول من

(١) تلك الثلاث هى « لين المردغتين » والمردغة : ما بين العنق إلى الترقوة ، ثم لين العرف وهو الشعر الغزير النابت على عنق الفرس ، ثم لين العنان : وهو سير اللجام ولين العنان كناية عن طاعة الجواد

لايعرف موضع الصنائع من القلوب . أن الحاجة اذا لم يتقدمها موعد ينتظر به نجحها لم تتجاذب الأنفس سرورها . إن الوعد تطعُّم والانجاز إطعام ، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته ، وتعلَّق به ، وتطعمه ثم طعِمه ، فدع الحاجة تختم بالوعد ، ليكون بها عند المصطنع حسن موقع ، ولطف محل

ووعد المهدى عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له فأنشده عبد الله بن مصعب الزبيرى معرضاً بقول مضرّس الأسدى

فلا تيأسَنْ من صالح أن تناله ‏ ‏ ‏ وإن كان قدماً بين أيد تبادرُهُ

فضحك المهدى وقال : ادفعوا إلى عبدالله فلانة ، لجارية أخرى ، فقال عبد الله ابن مُصعب

أنجز خير الناس قبل وعدِه ‏ ‏ ‏ أراح من مَطْلٍ وطولِ كدِّه

فقال ابن دأب: ماقلت شيئاً ، هلاَّ قلت :

حلاوة الفضل بوعدٍ يُنجَزُ ‏ ‏ ‏ لاخير فى العُرف كنهبٍ يُنهَزُ

فقال المهدى :

الوعد أحسن ما يكو ‏ ‏ ‏ نُ إذا تقدّمه ضَمانُ

وقد قال أبو قابوس النصرانى يمدح يحيى بن خالد :

رأيت يحيى أتم الله نعمتهُ ‏ ‏ ‏ عليه يأتى الذى لم يأته أحدُ

ينسى الذى كان من معروفه أبداً ‏ ‏ ‏ إلى الرجال ولاينسى الذى يَعِدُ

وقال أبو الطيب المتنبى :

قومٌ بلوغُ الغلام عندهمُ ‏ ‏ ‏ طعن نحور الكماة لا الحلُمُ

كأنمــا يولد الندى معهمْ ‏ ‏ ‏ لاصِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ

إذا تولَّوا عـداوةً كشفوا ‏ ‏ ‏ وإن تولوا صنيعة كتموا

تظن من فقدك اعتدادَهُم[1] ‏ ‏ ‏ أنهمُ أنعموا وما علموا

(١) الاعتداد : الاهتمام وفى طبعة بولاق « اعدادهم »

ودخل أبو عليّ البصير على الفضل بن يحيى فأنشده :

وُصِفَ الصدّ لمن أهوى فصدّ ... وبدا يمزح بالهجر فجدّ

ما لهُ يعدل عني وجهَهُ ... وهو لا يعدِلُهُ عندي أحَدْ

لا تريدوا غرّة الفضل ومن ... يطلب الغرة في خيس الأسد (١)

ملكٌ ندفع ما نخشى بهِ ... وبه نُصلح منا ما فسد

ينجز الناس إذا ما وعدوا ... وإذا ما أنجز الفضل وعد

وقال ابن الرومي في هذا المعنى :

لهُ مواعدُ بالخيرات بادرةٌ ... لكنها تسبق الميعاد بالصَّفدِ (٢)

يعطيك في اليوم حق اليوم مبتدئاً ... ولا يضيّع بعد اليوم حق غدِ

المعرفة بقدر النعمة

خطب سليمان بن عبد الملك فقال :

أيها الناس من لم يعلم أبواب مدخله في الكرامة وجهل طريقته التي وقعت به على النعمة ، كان بعرض رجوع إلى دار هوان ، وانقلاب بفادح خسران

فقام إليه أبو واثلة السدوسي وهو حاجبه فقال :

يا أمير المؤمنين ، كنا كما قال الله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ثم صرنا كما قال زهير

يَدُ الملك الجليل تناولتْهُمْ ... بإحسانٍ فليس لها مُزيلُ

لأن الخير أجمعَ في يديه ... وربي بالجزاء له كفيلُ

فقال سليمان . هذه والله المعرفة بقدر النعمة ، والعلم بما يجب للمنعم

ورؤي يونس بن المختار في دار المأمون ومرتبته في أعلى مراتب بني العباس قاعداً

(١) خيس الأسد : عرينه

(٢) الصفد : العطاء

على الأرض ، فقال الحاجب : ارتفع يا أبا المعلّى إلى مرتبتك ، قال : قد رفعنى الله إليها بأمير المؤمنين وليس لى عمل يفى بها ، فلم لا أكرمها عن القعود عنها[1] إلى أن يتهيأ لى الشكر عليها ؟ فبلغ الكلام المأمون فقال : هـذا والله غاية الشكر ، وبمثله تدرّ النعم

وقال رجل للمعلّى بن أيوب وقد رفعه المعتصم إلى مرتبة أهل بيته ، ما يزيدك التقريب إلا تباعداً ، فقال يا هذا إنى أصون تقريبه إياى بتباعدى منه ، لئلا تفسد حرمتى عنده بقلة الشكر على نعمته

ولما استعان المنصور بالحارث بن حسان قال له يا حارث إنى قد مكنتك من حسن رأيى فيك ، فاحفظه بترك إغفال ما يجب عليك ، قال : يا أمير المؤمنين من أغفل سبب حلول النعمة ، ولها عن الحال التى أصارته إليها ، استصحب اليأس من نيل مثلها وانقطع رجاؤه من الزيادة فيها ، فقال أبو جعفر من كانت عنده هـذه المعرفة دامت النعمة له ، وبقى الاحسان إليه

وقال[2] المأمون لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر : ما سرنى الله منذ وليت الخلافة بشىء عظيم موقعه عندى ، بعـد جميل عافية الله ، هو أكثر من سرورى بقدومك ، فقال عبد الله : ائذن لى يا أمير المؤمنين فى تفريق أموالى من طارف وتالد ، قال : ولم ؟ قال شكراً على هذه الكلمة ، وإلا قصر بى الحياء عن النظر إلى أمير المؤمنين ، فقال المأمون لمن حضر من أهل بيته وقواده : ما شىء من الخلافة يفى لعبد الله ببعض شكره

وقال أبو نواس :

قد قلت للعباس معتذراً — عن ضعف شكريه ومعترفا
أنت امرؤ جللتنى نعماً — أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
فاليك منى اليوم تقدمة — تلقاك بالتصريح منكشفا

---

(١) فى نسخة بولاق « عليها » .

(٢) فى الاصل « ولما قال » .

لا تسدينّ إليّ عارفةً حتى أقوم بشكرِ ما سلفا

عارضه الناشيء واعترض معناه فقال

إن أنت لم تُحدث إليّ يداً حتى أقوم بشكر ما سلفا
لم أحظ منك بنائل أبداً ورجعتُ بالحرمان منصرفا

وقال ابن الرومي .

عاقنا أن نعود أنك أوليـ ـتَ أموراً يضيق عنها الجزاء
غمرتنا منك الأيادي اللواتي ما لمشارها لدينا كفاء
فنهانا عنك الحياء طويلا ثم قد ردّنا إليك الحياء
ولما حقّ إن قربت التنائي ولما حقّ أن برزت الجفاء
غير أنّا أنضاء شكر أريحت وقديماً أريحت الأنضاء[1]

العجز عن الشكر

ألفاظ وأهل العصر في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

— عندي من بره ماملك الاعتذار بأزمته ، وقبض ألسنة أمراء الكلام وأئمة
— عندي له مبارّ[2] أعجزني شكرها ، كما أعوزني حصرها
— شكره شأوٌ بعيد لا تبلغه أشواطي ، ولا أتلافى التفريط في حقه بإفراطي
— إحسانه يعيد العرب عجماً ، والفصحاء بكما
— قد زحمني من مكارمه ما يحصر عنه المبين ، ويصحبه العيّ وبئس القرين[3]
— وقال اعرابي :

رهنتُ يدي بالعجز عن شكر برهِ وما فوق شكري للشكور مزيدُ
ولو كان شيئاً يستطاع استطعتهُ ولكنّ ما لا يُستطاع شديد

(١) الأنضاء : المهازيل
(٢) جمع مبرة
(٣) نسخة «ولاق » « وبئز القرين » وهو تحريف

وقال يحيى بن أكثم : كنت عند المأمون فأتى برجل تُرعَد فرائصه (١) ، فلما مَثَل بين يديه قال المأمون : كفرت نعمتى ، ولم تشكر معروفى . فقال يا أمير المؤمنين ! وأين يقع شكرى فى جنب ما أنعم الله بك علىّ ؟ فنظر الىّ المأمون وقال متمثلا :

ولو كان يستغنى عن الشكر ماجدٌ لرفعة قدر أو علوّ مكانِ
لما أمر الله العباد بشكره فقال اشكروا لى أيها الثقلان

ثم التفت الى الرجل فقال : هلا قلت كما قال أصرم بن حميد :

مُلّكت حمدىَ حتى اننى رجلٌ كلى بكل ثناء فيك مشتغلُ
خُولت شكرى لما خَوّلت من نعمٍ فحرُ شكرى لما خولتنى خَول (٢)

وقال أبو الفتح البستى :

لئن عجزتْ عن شكر برك قوتى وأقوى الورى عن شكر برك عاجزُ
فان ثنائى واعتقادى وطاقتى لأفلاك ما أوليتنيها مراكزُ

وقال أبو القاسم الزعفرانى :

لى لسان كأنهُ لى معادى ليس ينبى عن كنه ما فى فؤادى
حكم الله لى عليه فلو أنـ ـصف قلبى عرفت قدر ودادى

وقال اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية يمدح عمر بن العلاء :

إنى أمنت من الزمان وريبهِ لما علقتُ من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلالهِ لحذَوْا له حُرَّ الوجوه نِعالا
ما كان هذا الجود حتى كنت يا عمرٌ ولو يوماً تزول لزالا
إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن مُخِفةً واذا صدرن بنا صدرن ثِقالا

وهى قصيدة سهلة الطبع ، سلسلة النظام ، قريبة المتناول . وروى ان عمر بن العلاء

---

(١) الفرائص : أوداج العنق

(٢) الخول : الحاشية من العبيد والاماء للواحد والجمع والمذكر والمؤنث

وصله عليها بسبعين ألف درهم فحسده الشعراء ، وقالوا لنا بباب الأمير أعوام نخدم الآمال ، ما وصلنا الى بعض هذا ! فاتصل ذلك به فأمر باحضارهم فقال: بلغنى الذى قلتم وان أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبب فيها فلا يصل الى المدح حتى تذهب لذة حلاوته ، ورائق طلاوته ، وان أبا العتاهية أتى فشبب بأبيات يسيرة ثم قال : ان المطايا تشتكيك لأنها . وأنشد الأبيات

وكان أبو العتاهية لما مدحه بهذا الشعر تأخر عنه بره قليلا فكتب اليه يستبطئه :

أصابت علينا جودك العين يا عُمَرْ ... فنحن لها نبغى التمائم والنُّشَرْ (١)
أصابتك عين فى سخائك صُلبةٌ ... ويارب عين صُلبةٍ تفلق الحجر
سنرقيك بالأشعار حتى تملها ... فان لم تُفق منها رقيناك بالسور

وقال:

يا ابن العلاء ويا ابن القَرْم (٢) مرداس ... إنى مدحتك فى صحْبى وجُلاّسى
أُثنى عليك ولى حالٌ تكذّبنى ... فيما أقول فأستحيى من الناس
حتى إذا قيل ما أولاك من صَفَدٍ (٣) ... طأطأتُ من سوء حالى عندها راسى

فأمر حاجبه أن يدفع اليه المال وقال : لا تدخله علىّ فانى أستحيى منه

غرام أبى العتاهية

وذكر بعض الرواة أن المهدى خرج متصيداً فسمع رجلا يتغنى من القصيدة التى مرت منها الأبيات فى عمر بن العلاء آنفاً

يا من تفرّد بالجمال فما ترى ... عينى على أحدٍ سواه جمالا
أكثرتُ فى قولى عليك من الرُّقَى ... وضربت فى شعرى لك الامثالا

---

(١) النشر جمع نشرة بالضمة وهى الرقية يداوى بها المريض والمجنون
(٢) القرم بالفتح : الفحل
(٣) الصفد بالتحريك : العطاء

فأبيتَ إلا جفوةً وقطيعةً   وأبيت إلا نخوةً ودلالا
بالله قولى إن سألتكِ واصدقى   أوجدتِ قتلى فى الكتاب حلالا
أمْ لا فقيم جفوتنى وظلمتنى   وجعلتنى للعالمين نكالا
كمْ لائم لو كنت أسمع قولَهُ   قد لامنى ونهى وعدّ وقالا

فقال المهدى : علىّ به . فجاءه فقال لمن هذا الشعر ؟ قال لاسماعيل بن القاسم أبى العتاهية ، قال : لمن يقوله ؟ قال: لعتبة جارية المهدى ، قال كذبت لو كانت جاريتى لوهبتها له

وكانت عتبة لريطة بنت أبى العباس السفاح ، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ ، وكل ذلك فيما زعم الرواة تصنعٌ ، وتخلّق ، ليذكر بذلك

وقال يزيد حوراء المغنى كلمنى أبو العتاهية أن أكلم له المهدى فى عتبة فقلت : إن الكلام لا يمكننى ، ولكن قل شعرا أغنيه إياه . فقال

نفسى بشيء من الدنيا مُعلقةٌ   الله والقائم المهدىُّ يكفيها
انى لأيأس منها ثم يطمعنى   فيها احتقارك الدنيا وما فيها

فعملت فيه لحناً وغنيته المهدى . فقال لمن هذا ؟ فأخبرته خبر أبى العتاهية فقال : ننظر فى أمره ، فأخبرت بذلك أبا العتاهية ، فمكث أشهرا ثم أتانى فقال : هل حدث خبر ؟ فقلت لا ، فقال غنه بهذا الشعر :

ليت شعرى ما عندكم ليت شعرى   انما أُخِّرَ الجوابُ لأمرِ
ما جوابٌ أولى بكل جميلٍ   من جواب يُردّ من بعد شهرِ

قال يزيد فغنيت به المهدى فقال علىّ بعتبة فأحضرتْ ، فقال : إن أبا العتاهية كلمنى فيك وعندى لك وله ما تحبان ، فقالت له : قد علم مولاى أمير المؤمنين ما أوجبه من حق مولاتى ، فأريد أن أذكر لها ذلك ، قال : فافعلى ، فأعلمت أبا العتاهية بما جرى ومضت الأيام ، فسألنى معاودة المهدى ، فقلت له قد عرفتَ الطريق فقل ماشئت حتى أغنيه ، فقال:

أشربت قلبى من رجائك ماله ... عنق اليك يخب بى ورسيم (١)
وأملت نحو سماء صوبك ناظرى ... أرعى مخايل برقها وأشيم (٢)
ولقد تنسمت الرياح لحاجتى ... واذا لها من راحتيك نسيم
ولربما استيأست ثم أقول لا ... إن الذى ضمن النجاح كريم

فغنيته بالشعر فقال علىّ بعتبة فأتت ، فقال ماصنعت ؟ قالت ذكرت ذلك لمولاتى فأبته وكرهته ، فليفعل أمير المؤمنين ما يريد ؛ فقال ما كنت لأفعل شيئاً تكرهه ، فأعلمت أبا العتاهية بذلك فقال :

قطعت منك حبائل الآمال ... وأرحت من حل ومن ترحال
ما كان أشأم إذ رجاؤك قادنى ... و بذات وعدك يعتلجن ببالى
ولئن طمعت لرب برق خلب ... مالت بذى طمع ولمعة آل (٣)

وقد نقلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه والله أعلم بالحق فى ذلك

نفى أبى العتاهية

وضرب المهدى أبا العتاهية مائة سوط لقوله :

ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ... ومالى على ظبي الخليفة من عدوى

وقال : أبى يتمرس (٤) ، وبحرمى يتعرض ، وبنسائى يعبث ؟ ونفاه الى الكوفة وفى ضربه يقول أبو دهمان :

لو لا الذى أحدث الخليفة للعشا ... ق من ضربهم إذا عشقوا
لبحت باسم الذى أحب ولـــكنى امرؤ قد ثنانى الفرق (٥) .

(١) العنق والرسيم من أنواع السير
(٢) أشيم : أنظر
(٣) البرق الخلب ما لا مطر فيه ، والآل : السراب
(٤) يقال تمرس بالشىء وامترس إذا احتك به
(٥) الفرق بالتحريك : الخوف

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نفي يذكر عتبة ، ويكنى باسمها ، فمن ذلك قوله :

قل لمن لست أسمي بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أصبحـ ـتِ من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي إذ أذاب الحب لحمي
وأرادوا لي طبيباً فاكتفوا مني بعلمي
من يكن يجهل ما ألقـ ـى فإن الحب سقمي
إن روحي لببغدا د وفي الكوفة جسمي

وقوله :

أمسى ببغداد ظبيٌ لست أذكره إلا بكيت اذا ما ذكره خطرا
إن المحب إذا شطَّت منازلُه عن الحبيب بكى أو حنّ أو ذكرا
يا ربّ ليل طويل بتُّ أرقبهُ حتى أضاء عمود الصبح فانفجرا
ما كنت أحسب إلا مذ عرفتكُمُ أن المضاجع مما يُنبت الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب على عين الشجيّ اذا ما نومه نفرا

ولما قدمت عتبة بغداد قدم معها أبو العتاهية وتلطف حتى اتصل بالرشيد وبخلافة أبيه المهدى ، وتمكن منه ، و بلغ المهدى خبره فأحضره ، فقال: يا بائس أنت مستقتل!" وسأله عن حاله فأنشده قصيدته التي يقول فيها

أنت القائل والمدا بر في المناسب والعديد
بين العمومة والخؤو لة والأبوة والجدود
فاذا انتميت الى أبيـ ـك فأنت في المجد المشيد
واذا انتمى خالٌ فما خالٌ بأكرم من يزيد

يريد يزيد بن منصور ، وكانت أم المهدى أم موسى بنت منصور الحميرى وأنشده ..

علم العالم أن المنايا سامعات لك فيمن عصاكا

فاذا وجهتها نحو طاغ رجعت ترعف منه قنا كا[1]
ولو أن الرياح بارتك يوماً في سماح قصرت عن نداكا

وأنشده :

أتته الخلافة منقادةً اليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يكُ يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيرُه لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فقال له المهدى : إن شئت أدبناك بضرب وجيع ، لاقدامك على ما نهيت عنه وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزة على مدحك لنا ، وان شئت عفونا عنك فقط . فقال : بل يُضيف أميرالمؤمنين الى كريم عفوه جميل معروفه ، ومكرُمتان أكثرمن واحدة ، وأمير المؤمنين أولى مَنْ شفع نعمته ، وأتم كرمه . فأمر له بثلاثين ألف درهم وعفا عنه .

ولما قدم الرشيد الرقة أظهر أبوالمتاهية الزهد والتصوف وترك الغزل فأمره الرشيد أن يتغزل فأبى فحبسه فغنى بقوله :

خليليّ مالى لا تزال مضرتى تكون على الأقدار حتما من الحتم
كفاك بحق الله ما قد ظلمتنى فهذا مقام المستجير من الظلم
ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى ألا مُسعدٌ حتى أنوح على جسمى

فأمر باحضاره وقال : بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدى عن الغزل فتأبى إلا لجاجا ومحكا ، واليوم آمرك بالقول فتأبى جرأة علىّ وإقداما ! فقال : يا أمير المؤمنين ان الحسنات يذهبن السيئات ، كنت أقول الغزل ولى شباب وجدة ، وبى حراك وقوة ، وأنا اليوم شيخ ضعيف لايحسن بمثلى تصابٍ . فرده إلى حبسه فكتب اليه :

أما الدهر والحمد لله أشهرٌ يروح علىّ الغم منك ويبكرُ

(١) ترعف : تسيل دما

تذكر أمين الله حق وحرمتي ... وما كنت توليني لعلك تذكر
ليالي تُدني منك بالقرب مجلسي ... ووجهك من ماء البشاشة يقطرُ
فمن لي بالعين التي كنت مرة ... إليّ بها من سالف الدهر تنظرُ

فبعث إليه: لا بأس عليك! فقال

كأن الخلق رُكّب فيه روح ... له جسدٌ وأنت عليه راسُ
أمين الله إن الحبس بأسٌ ... وقد وقعت ليس عليك باسُ

فأخرجه.

أخذ البيت الأول من هذين علي بن جَبَلة وزاد فيه فقال لأبي غانم الطوسي.

دَجلةُ تسقي وأبو غانمٍ ... يطعم من تسقي من الناسِ
والخلق جسم وامام الهدى ... رأس وأنت العين في الراسِ

عمر بن العلاء

وكان عمر بن العلاء ممدّحاً، وفيه يقول بشار بن برد

اذا أيقظتك حروب العِدى ... فنبّه لها عمرا ثم نَمْ
دعاني الى عمرٍ جُودُهُ ... وقول العشيرة بحر خِضَمّ
ولولا الذي ذكروا لم أكن ... لأمدح ريحانةً قبل شمّ
فتىً لا يبيت على دِمنةٍ(١) ... ولا يشرب الماء الا بدم

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومي(٢) فقال:

(١) الدمنة هنا معناها الحقد الثابت

(٢) كان أستاذنا المرحوم الشيخ سيد المرصفي أملانا أنه «أبو سعد» بدليل قول من هجاه:

إن أبا سعد فتى ماجد ... يعرف بالكنية لا الوالد
ينشد في حي معد أبا ... ضل عن المنشود والناشد
فرحمة الله على مسلم ... يرد مفقوداً على فاقد

وما يريدون لولا الجبن من زجل ... بالليل مشتمل بالجر مكتحل
لا يشرب الماء الا من قليب دم[1] ... ولا يبيت له جار على وجل

وقال أبو الطيب .

تعوّد أن لا تقضم الحب خيله ... إذا الهام لم ترفع جنوب العلائق[2]
ولا ترد الغُدران إلا وماؤها ... من الدم كالريحان تحت الشقائق[3]

وقال أبو القاسم بن هانى :

من لم ير الميدان لم يَرَ معركا ... أشِبًا ويومًا بالأسنة أكهبا[4]
وكتائبا تردى غوارِبها العدى ... وفوارسا تعدو صوالجها الظُّبا
لايوردون الماء سُنبك سابح ... أو يكتسى بدم الفوارس طُحلبا[5]

و بلغ عمر بن العلاء أن أبا العتاهية عليه عاتب فى هناة نالها منه فى مجلس وكان كثير الانقطاع إليه ، فتخلف عنه ، فساء ذلك عمر فكتب إليه :

قد بلغنى الذى كان من تجنبك فيما استخفك به سوء الأدب عن علم حقيقته منى فصرت متردداً من العمى فى يلاميع الشبهة[6] ، ولو كان معك من علمك داع إلى

---

(١) القليب . البئر

(٢) القضم : أكل اليابس ، والهام : الرءوس ، والعلائق جمع علاقة وهى ما يتعلق به الشىء ، والمر د المخالى . قال ابن جنى سألت أبا الطيب عن معنى هذا البيت فقال : الفرس إذا علقت عليه المخلاة طلب لها موضعا مرتفعا يجعلها عليه ثم يأكل ، فخيله أبدا إذا أعطيت عليقها رفعته على هام الرجال الذين قتلهم لكثرة ما هناك منها

(٣) الغدران جمع غدير وهو القطعة من الماء يغادرها السيل . وفى الأصل «الغربان» والشقائق جمع شقيق وهو زهر أحمر

(٤) أشب : مختلط — أكهب : مظلم

(٥) الطحلب : خضرة تعلو الماء المزمن

(٦) اليلاميع جمع يلمع وهو البرق الخلب والسراب ويشبه به الكذاب

تقانى لكشفت لك مورد الأمر ومصدره لترجع إلى الصلة ، فتقال أو تأبى إلا الصريمة فتصرم وقد قال الأول

ومستعتب أبدى على الظن عتبه ... وأخرج منه المحفظات غليل

كشفت له عذراً فأبصر وجهه ... فعاد إلى الانصاف وهو ذليل

فأجابه أبو العتاهية: لم أجز بعتبي الحقيقة الى الشبهة ، ولم أجد سعة مع عظيم قدرتك الى حمل اللائمة ، فقصر بى الخوف من سخطك ، على ترك معاتبتك ، لأن المعاتبة لاتجتنى إلا من المساوى ، ولو رغبت عن الصلة الى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصحبة وسالف المدة ، وأنا أقول

رضيت ببعض الذل خوف جميعه ... وليس لمثلى بالملوك يدان

وكنت امرءاً أخشى العقاب وأتقى ... مغبة ما تجنى يدى ولسانى

فهل من شفيع منك يضمن توبتى ... فانى امرؤ أوفى بكل ضمان

فتراجعا الى أحسن ما كانا عليه

وانما ألم أبو العتاهية فى قوله (ان المطايا تشتكيك) وما يليه بقول أبى الحجناء نصيب الأ بر

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولوسكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال أبو الطيب فى أبى العشائر الحمداني .

تنشد أثوابنا مدائحه ... بألسن ما لهن أفواه

إذا مررنا على الأصم بها ... أغنته من مسمعيه عيناه

وهذا المعنى من القضية الدالة بذاتها التى ذكرتها عن الجاحظ فى أقسام البيان

شواهد الايمان

وقال بعض الخطباء :

أشهد أن فى السموات والارض آيات ودلالات ، وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويشهد لك بالربوبية

ونظير هذا قول أبي العتاهية وروى أنه جلس فى دكان ورّاق وأخذ كتاباً فكتب على ظهره

فواعجبا كيف يُعصى المليكُ   أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله فى كل تحريكة   وتسكينة فى الورى شاهدُ
وفى كل شىء له آيةٌ   تدلُّ على أنه واحد

وانصرف فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبيات فقال : لمن هذه فاوددتها لى بجميع شعرى ! فقيل : لاسماعيل بن القاسم فوقع تحتها

سبحان من خلق الخلا   ق من ضعيف مهينِ
فصاغهُ من قرارٍ   الى قرار مكينِ
يحول شيئاً فشيئاً   فى الحجب دون العيون
حتى بدَت حركاتٌ   مخلوقة من سكون

وقال الفضل بن عيسى الرقاشى :

سل الأرض من غرس أشجارك ، وشق أنهارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حِوارا ، أجابتك اعتبارا .

وهذا شبيه بقول عدي بن زيد وقد نزل النعمان بن المنذر تحت سرحة[1] فقال : أتدرى ماتقول هذه السرحة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال تقول :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلالْ
ثم أضحوا لعب الدهر بهم   وكذاك الدهر حالاً بعد حال

ويروى (عكف الدهر بهم) فتكدّر حال النعمان وما كان فيه من لذة .

---

(١) السرحة : الشجرة ، وقد تطلق مجازا على المرأة

كلمات فى الثناء

ألفاظ لأهل العصر فى الشكر بدلالة الحال

— لوسكت الشاكر ، لنطقت المآثر

— لوصمت المخاطب، لأثنت الحقائب ، ولشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله .

— ان جحدت ما أولانيه ، وكفرت ما أعطانيه ، نطقت آثار أياديه على ، ولمعت أعلام عوارفه لدى

ولأبى الفضل الميكالى من رسالة

« ورد فلان فتعاطى من شكره على نعمه التى ألبسه جمالها ، وأسحبه أذيالها ، ما لو لم يتحدث به ناشرا ومثنيا ، ومعيداً ومبديًا ، لأثنت به حاله ، وشهدت به رحاله ، حتى لقد امتلأت بذكره المحافل ، وسارت بخبره الركبان والقوافل ، وصارت الألسنة على الشكر والثناء لسانا ، والجماعة على النشر والدعاء أنصاراً وأعوانا ، على انه وان بالغ فى هذا الباب ، وجاوز حد الإكثار والاسهاب ، نهايته القصور دون واجبه والسقوط على أدنى درجاته ومراتبه »

ومما يقترن لهم بهذا المعنى من ذكر الشكر ، قال أبو الفتح البستى :

— الحر نحل الشكر ، ان أجناه المرء من خيره شكرا أجناه من بره شهدا

غيره :

— الشكر ترجمان النية ، ولسان الطوية، وشاهد الاخلاص، وعنوان الاختصاص

— الشكر نسيم النعم ، وهو السبب الى الزيادة ، والطريق الى السعادة

— الشكر قيد النعمة ، ومفتاح المزيد ، وثمن الجنة

— من شكر قليلا ، استحق جزيلا

— شكر المولى هو الأولى

— الشكر قيد النعم وشِكالها وعقالها، وهو شبيه بالوحش الذى لايقيم مع الايحاش ولا يريم مع الايناس

— موقع الشكر من النعمة موقع القرى من الضيف ، ان وجده لم يرم ، وان فقده لم يقم

— الشكر غرس إذا أودِع سَمْع الكريم أثمر الزيادة ، وحفظ العادة

— الشكر تعرض للمزيد السائغ ، والنعم السوابغ

— شكره شكر الأسير لمن أطلقه ، والمملوك لمن أعتقه

— أثنى عليه ثناء الروض المحل ، على الغيث المسبل

— أثنى عليه ثناء لسان الزهر على راحة المطر

— أثنى عليه ثناء العطشان الوارد ، على الزلال البارد

— شكره شكر الارض للدِّيم ، وزُهير لهرِم

— بسط لسان الثناء والدعاء ، و بلغ عنان الشكر عنان السماء

— شكره شكراً ترتاح له المكارم ، وتهتز له المواسم

— لأشكرنه شكراً تشيع أنواعه ، وتنبسط أبواعه ، ويلذ ذكره وسماعه

— شكر ملأ القلب واللسان كشكر حسان لآل غسان

— أطال عنان الشكر وفسح مجاله ، ورفع أعمدته ، ومد أروقته

— شكر كأنفاس الأحباب ، أو أنفاس الأسحار ، أو أنفاس الرياض غِبَّ القطار

شعر نصيب

رجع ما انقطع : كان سبب قول نصيب * فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله * أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال سليمان بن عبد الملك : يافرزدق من أشعر الناس ؟ قال أنا يا أمير المؤمنين ، قال لماذا ؟ قال بقولى

وركبٍ كأن الريح تطلب عندهم لها تِرةً من جذبها بالعصائبِ

سروا وسرت نكباء وهي تلفّهم [illegible] ذات الحقائب[1]
اذا آنسوا ناراً يقولون ليتّها … وقد خصرت أيديهم نار غالبِ

يريد أباه وهو غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع ، فأعرض عنه سليمان كالمغضَب لأنه انما أراد أن ينشد مدحاً فيه ففهم نصيب مراده فقال : يا أمير المؤمنين قد قلت أبياتاً على هذا الروى ليست بدونها فقال هاتها فأنشأ نصيب يقول :

أقول لركبٍ قافلين لقيتهم … قفا ذات أوشال ومولاك قاربُ[2]
قفوا أخبرونى عن سليمان اننى … لمعروفه من آل ودّانَ طالبُ
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهلهُ … ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ
فقالوا تركناه وفى كل ليلةٍ … يُطيف به من طالبى العرف راكب
ولو كان فوق الناس حيٌّ فعالهُ … كفعلك أو للفعل منك يقارب
لقلنا له شِبهٌ ولكن تعذّرت … سواك عن المستشفعين المطالب
هو البدر والناس الكواكب حولهُ … وهل تشبه البدر المنير الكواكبُ

فقال سليمان : أحسنت ! والتفت الى الفرزدق فقال : كيف تسمع يا أبا فِراس ؟ قال : هو أشعر أهل جِلدته . قال وأهل جلدتك ! فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخير الشعر أكرمه رجالا … وشرّ الشعر ما قال العبيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد وهذا باب فى المدح حسن متجاوز مبتدع لم يسبق أليه

قول نصيب «من أهل ودان» قال اسحاق بن ابراهيم الموصلى ذكر محمد بن كناسة والزبيدى أن نصيبا من أهل ودّان وكان عبداً لرجل من بنى كنانة هو وأهل بيته ،

---

(١) النكباء هى الريح التى تميل عن مهاب الرياح ، والأكوار جمع كور بالضم وهو الرحل ، والحقائب جمع حقيبة وهى الرفادة فى مؤخر القتب وكل ما شد فى مؤخر رحل أو قتب

(٢) الاوشال جمع وشل وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة

وزعم أبو هفان أنه عبد لعبد العزيز بن مروان وكان نصيب شديد السواد وهو القائل

كسيت ولم أملك سواداً وتحته   قميص من القوهى بيض بنائقه (١)
فما ضر أثوابى سوادى واننى   لكالمسك لا يسلو عن المسك ذائقه

وقال سحيم عبد بنى الحسحاس

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له   عند الفخار مقام الأصل والورقِ
إن كنت عبداً فنفسى حرة كرما   أو أسود اللون انى أبيض الخلقِ

وقال أبو الطيب المتنبى لكافور الأخشيدى

انما الجلد ملبس وابيضاض الخلـ   ـق خير من ابيضاض القباء

وقال نصيب لبعض ملوك بنى أمية إن لى بنات نفضت عليهن من سوادى ، فقال ما أحسن ما تلطفت لهن ! وأمر له بصلة

بين أبى تمام وابن الزيات

وكان أبو تمام حبيب بن أوس لما مدح أبا جعفر محمد ابن عبد الملك الزيات بقصيدته التى أولها

لهان علينا أن نقول وتفعلا   ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا

وهى من أحسن شعره وقع له على ظهرها

رأيتك سمح البيع سهلا وانما   يغالى إذا ما ضن بالشىء بائعه
فأما اذا هانت بضائع بيعه   فيوشك أن تبقى عليه بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب ورده   ويفسد منه أن تباح مشارعه

فأجابه بقصيدة طويلة واحتج عليه واعتذر اليه فى مدحه لغيره فقال فى بعض ذلك :

أما القوافى فقد حصنت غرتها   فما يصاب دم منها ولا سلب
منعت إلا من الأكفاء أيمها   وكان منك عليها العطف والحدب

(١) القوهى : ثياب بيض تنسب الى قوهستان . والبنائق : الجيوب ، مفردها بنيقة

ولو عضلت عن الا كفاء أيمها[1] ولم يكن لك فى اظهارها أرَبُ
كانت بناتِ نُصَيب حين ضن بها على الموالى ولم تحفل بها العرب

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله :

أبا جعفر إن كنت قدأصبحت شاعراً أسامح فى بيعي له من أبايعهْ
فقد كنت قبلي شاعرا تاجرا به تُساهل من عادتْ عليك منافعه
فصرت وزيرا والوزارة مكرعٌ[2] يَغَصّ به بعد اللذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مُسلَّطا فعاد وقد سُدّت عليه مطالعه
ولله قوسٌ لا تطيش سهامها ولله سيف لا تُفَلُّ مقاطعه

قال أبو بكر محمد بن يحي الصولى و يقال ان هذه الابيات منحولة لحبيب وليس مثل أبي جعفر فى جلالة قدره واصطناعه لحبيب يقابل بمثل هذا الجواب ولا ينتهى جهل حبيب أن يقابل مأموله ومن يرتجى جليل الفائدة منه بهذه الابيات وقد قيل بل قالها ولم ينشدها أحدا ، وانما ظهرت بعد موته

وكان ابن الزيات ـ كما قال ـ شاعرا ومدح الحسن بن سهل فى وزارته للمأمون وأعطاه عشرة آلاف درهم فقال :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتلبسَنى التحجيل والغررا
ما كان ذلك إلا انى رجلٌ لا أقرب الورد حتى أعرف الصدَرا

قال الصولى وكان السبب الذى اوجد[3] أبا جعفر على أبى تمام حتى قال

(١) عضل المرأة منعها عن الزواج ظلما ، والأيم : من لازوج لها ، بكرا أو ثيبا ، ومن لاامرأة له . وتأيم : مكث زمانا لم يتزوج

(٢) المكرع : المكان الذى تشرب منه الدواب ، وكان كذلك لأن الحيوان لايكاد يشرب الا بادخال أكارعه فيه ، والكراع بالضم هو مادون الكعب فى الدابة ومادون الركبة من الانسان ، وكرع فى الماء أدخل فيه أكارعه بالخوض فيه ليشرب

(٣) أوجده : أثار موجدته وهى الغضب

(رأيتك سهل البيع) الابيات قول أبي تمام قصيدته المشهورة في ابن أبي دُواد التي أولها

سقى عهد الحمى سيلُ العِهادِ [1] ورَوَّى حاضر منه وباد
نزحت به رُكِيَّ الدمع لما رأيت الدمع من خير العَتَادِ [2]

يقول فيها في مدحه

هُمُ عظم الاثافي من نزار وأهل الهضب منها والنجادِ [3]
معرَّس كل معضلةٍ وخطبٍ ومنبت كل مكرمة وآدِ [4]
إذا حَدَثٌ القبائل ساجلوهم فأنهمُ بنو المجد التلادِ [5]
تفرج عنهم الغمرات بيضٌ جلاد تحت قسطلةِ الجِلاد [6]
وحشو حوادث الايام منهم معاقل مطرد وبنو طِراد [7]
لهم جهل السباع اذا المنايا تمشت في الوغى وحلوم عاد
لقد أنست مساوى كل دهرٍ محاسن أحمد بن أبي دُوادِ

---

(١) العهاد : أمطار الربيع ، والواحدة عهدة

(٢) الركى والركايا : الآبار ، والمفرد ركية ، وارتكى على صديقه : عول عليه — والعتاد : العدة ، والعتيد : المعد الحاضر

(٣) الاثافي جمع أثفية وهي الحجر أو الجبل

(٤) المعرس موضع التعريس وهو النزول ليلا ، والآد والأيد : القوة ، وآد يئيد أيدا اشتد وقوى

(٥) التلاد جمع تليد وهو المجد القديم

(٦) الغمرات جمع غمرة وهي الشدة ، والبيض الجلاد : هي السيوف القوية وقسطلة الجلاد شدة الحرب

(٧) الطراد : القتال . قال الزمخشري في الأساس : « وطارد قرنه وتطاردا وبينهما طراد ومطاردة وهي حمل أحدهما على صاحبه ومقاتلته وان لم يكن ثم طرد كما قيل للمحارب جلاد ومجالدة وان لم يكن ثم مسايفته »

متى تحلل به تحلل جنابا رضيعا للسوارى والغوادى [1]
وما اشتبهت سبيل المجد إلا هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت فى الآفاق الا ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والامانى وان قلقت ركابى فى البلاد

وهذه النكت[2] التى أحقدت أبا جعفر واعتبته على أبى تمام ، وفى هذه القصيدة يقول معتذرا اليه فى الذى قرب به عنده من هجاء مضر

أتانى عاير الانباء تسرى عقاربه بداهية نآد[3]
نثا خبراً كأن القلب منه يُجرّ به على شوك القتاد
بأنى نلت من مضروخَبّتْ اليك شكيّتى خَبَبَ الجواد
وما ربع القطيعة لى بربع ولا نادى الأذى منى بناد
وأين يجوز عن قصد لسانى وقلبى رائح برضاك غاد
ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خَدَم الفؤاد
وقدما كنت معسول القوافى ومأدوم المعانى بالسداد

ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُوَاد غالياً فى التعصب لإياد ، و إلحاقها بنزار ، على مذهب نُساب العدنانيين . قال وكل من بالعراق من إياد دخلوا فى النخع و إليهم ينسبون ومن كان بالشام فهم على نسبهم فى نزار ، وابن أبى دوَاد يرمى بالدعوة . والتكثير من أخباره يخرج إلى ما أخافه من تطويل التصرف ، فى مملول التكلف

(١) السوارى جمع سارية وهى السحابة تمطر ليلا ، والغوادى جمع غادية وهى السحابة تمطر نهارا

(٢) المراد بالنكت الاشارات

(٣) نآد . شديدة الأذى

وكان ابن أبي دُوَاد عالما بضروب العلم والأدب ، متصرفاً في صناعة الجدال ، على مذهب أهل الاعتزال ، وكانت العداوة بينه و بين ابن الزيات بيِّنة ، والنفاسة في الرياسة بينهمامتمكنة ، وقال له بعض الشعراء

أ كلُّ أبي دُوَاد من إيادٍ فكل أبي ذؤيب من هذيلِ

قال مسلم : ما تاه إلا وضيع ، ولا فاخر إلا سقيط ، ولا تعصب إلا دخيل

وقال مدني لرجل ممن أنت ؟ قال من قريش والحمد لله ، قال بأبي أنت ، التحميد ها هنا ريبة ! واسم أبي دواد دعمي ، قال أبو اليقظان : وهم من قبيلة يقال لها بنو زهرة إخوة بني حدان ، وقد ذكره الطائي في قوله

والغيث من زهر سحابة رأفةٍ والركن من شيبان طود حديدِ

ذكر شيبان لأن خالد بن يزيد الشيباني شفع له عند ابن أبي دُوَاد فيما ينساق الحديث إليه من موجدته عليه

قال محمود الوراق : كنت جالسا بطرف الجسر مع أصحاب لي فمر بنا أبو تمام فجلس إلينا فقال له رجل منا يا أبا تمام أي رجل أنت لولم تكن من اليمن ! قال ما أحب أني بغير الموضع الذي اختاره الله لي ، فمن تحب أن أكون ؟ قال من مضر . قال إنما شرفت مضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما قيسوا بملوكنا وأذوائنا ، وفينا كذا ومنا كذا ، يفخر ، وذكر أشياء عاب بها مضر ، ونمى الخبر الى ابن أبي دواد وزِيد فيه ، فقال ما أحب أن يدخل عليّ ، فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها

سَعِدت غَرْبة النوى بسعاد فهى طوع الإتهام والإنجاد

يقول فيها :

بعد أن أصْلَت الوشاةُ سيوفاً قطعت فيَّ وهي غير حِداد
فنفى عنك زخرفَ القول سمعٌ لم يكن فرصةً لغير السداد
ضرب الحلم والوقار عليهِ دون عُور الكلام بالأسدادِ

ملأتك الأحساب أى حياةٍ وحيا أزمة وحيّة واد
عاتق معتق من الرق إلا من مقاساة مَغْرم أو نجاد
للحمالات والحمائل فيه كلحوب الموارد الأعداد[1]

فما رضى عنه حتى تشفع إليه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فقال فى قصيدة

أسرى طريداً للحياء من التى زعموا وليس لقوله بطريد
كنت الربيع أمامه ووراءه قمر القبائل خالد بن يزيد
وغداً تبين ما براءة ساحتى لو قد نفضت تهائمى ونجودى
لله درك أى أى باب ملمةٍ لم يرم فيه إليك بالإقليد[2]
لما أظلتنى غمامك أصبحت تلك الشهود على وهى شهودى
من بعد ما ظنوا بأن سيكون لى يوم بزعمهم كيوم عبيد

يريد عبيد بن الأبرص الأسدى وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بؤسه فقتله

وكان ابن أبي دواد كريماً فصيحاً جزلا . قال أبو العيناء . كنا عند ابن أبى دواد ومعنا محمود الوراق وجماعة من أهل الأدب والعلم ، فجاءه رسول ايتاخ فقال ان الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضى السلام و يقول: القاضى يتعنى[3] و يجىء فى الأوقات وقد تفاقم الأمر بينه و بين كاتب أمير المؤمنين — يريد ابن الزيات — فصار يضرنا عنده قصد القاضى ، وما أحب أن يتعنى إلىّ لهذا السبب ، إذ كنت لا أصل إلى مكافأته ، فقال أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ، ونظر بعضنا إلى بعض ، فقال أما عندكم جواب ! قلنا القاضى أعزه الله أعلم بجوابه منا ، فقال للرسول

اقرأ عليه السلام ، وقل له ما أتيتك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالبا منك رتبة ، ولاتاركا إليك كربة ، ولكنك رجل ساعدك زمان

(١) الاعداد جمع عد بالكسر وهو الماء الجارى الذى لا ينقطع ، واللحوب الظهور والوضوح . والمعنى ان عاتق الممدوح تظهر فيه آثار الحمالات والحمائل ظهور قنوات الماء الذى لا ينقطع

(٢) الاقليد : المفتاح ، وكذلك المقلاد والمقلد

(٣) يتعنى : يتعب

وحركاك سلطان ، ولا علم يؤلف، ولا أصل يعرف ، فإن جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك

فعجبنا من جوابه

خالد القسرى

صعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر يوم جمعة فخطب وهو إذ ذاك أمير على مكة فذكر الحجاج فأحمد طاعته وأثنى عليه خيراً، فلما كان فى الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه وإظهار البراءة منه فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إن إبليس كان ملكا من الملائكة ، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له بذلك فضلا ، وكان الله تعالى قد علم من غشه ما خفى عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحته ابتلاه[1] بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه ، وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له بذلك فضلا وكان الله عز وجل أطلع أمير المؤمنين من غله وغشه على ما خفي عنا ، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدى امير المؤمنين . فالعنوه لعنه الله !

ثم نزل

الافشين التركى

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركى واسمه حيدر بن كاوس وكان من أجل قواد المعتصم وأبلى فى أمر بابك الخرمى بلاء حمده له ، فلما سخط المعتصم عليه لما نسب اليه من سوء السيرة ، وقبح السريرة ، وانه يخطب درجة بابك ، ويريد التحصن بموضع يخلع فيه يده عن الطاعة ، وأظهر القاضى أحمد بن أبى دواد عليه أنه على غير الاسلام ، قال

(١) ابتلاه : اختبره

أبو تمام معتذراً للمعتصم من تقديمه واجتبائه ، ولنفسه من مدحه واطرائه

ما كان لولا فحش غدرة حيدر ليكون فى الاسلام عام فجار
هذا الرسول وكان صفوة ربه من خير باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابةً وهمُ أشدّ أذًى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى رفعت له ستراً من الأستار

ثم ذكر فى هذه القصيدة أن قتل الافشين لبابك لم يكن بصدق بصيرة ولا لصحة سريرة فقال

والهاشميون استقلت ظُعنهم عن كربلاء بأثقل الأوزار
فشفاهم المختار منه ولم يكن فى دينه المختار بالمختار

المنافقون

أما من ذكر من أهل النفاق فقد كانوا يظهرون غير ما يسرون ، حتى أطلع الله نبيه عليه السلام على أخبارهم ، ونشر له مطوىّ أسرارهم . وأما ابن أبى سرح فهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة ابن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى . أسلم قبل الفتح واستكتبه النبى عليه السلام فكان يكتب موضع الغفور الرحيم العزيز الحكيم وأشباه ذلك ، فأطلع الله عليه النبى عليه السلام فهرب الى مكة مرتداً ، وأنزل فيه (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) . فأهدر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دمه فهرب من مكة فاستأمن له عثمن رضى الله عنه فأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أخو عثمان من الرضاعة ؛ وأسلم فحسن اسلامه ، وولى مصر سنة أربع وعشرين فأقام عليها الى أن حصر عثمان ومات بقيسارية الشام ولم يدخل فى شىء من الفتن الحجازية فى ذلك الوقت

وأما المختار الذى ذكره فهو المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف .

﴾ابن هفدة بن مروة بن عوف بن قسى وهو ثقيف وكانت لأبيه فى الاسلام آثار جميلة وأخت المختار صفية بنت أبى عبيد زوج ابن عمر ، والمختار هو كذاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث وكان يزعم أنه يوحى اليه فى قتلة الحسين فقتلهم بكل موضع ، وقتل عبيد الله ابن زياد ، وله أسجاع يصنعها ، وألفاظ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى اليه ، وقيل للأحنف بن قيس إن المختار يزعم أنه يوحى اليه ! فقال صدق وتلا (وإن الشياطين ليوحى بعضهم إلى بعض)

وأخباره كثيرة ليس هذا موضعها

كلمات مختارة

لما هزم أمية بن خالد بن أسيد لم يدر الناس كيف يقولون له فدخل عبد الله بن الاهتم عليه فقال

الحمد لله الذى نظر لنا أيها الأمير عليك ، ولم ينظر لك علينا ، فقد تعرضت للشهادة بجهدك ، إلا أن الله علم حاجة أهل الاسلام اليك فأبقاك لهم بخذلان من معك

فصدر الناس عن كلامه

ويتعلق بهذه المقامة فصل فى غرائب التكاتب كتب حمدون بن تهراق الى عامل عزل عن عمله :

بلغنى أعزك الله انصرافك عن عملك ، ورجوعك الى منزلك ، فسررت بذلك ولم أستفظعه وأجزع له ، لعلمي بأن قدرك أجل وأعلى من أن يرفعك عمل تتولاه ، أو يضعك عزل عنه . ووالله لو لم تختر الانصراف وترد الاعتزال لكان فى لطف تدبيرك وثقوب رويتك وحسن تأتيك ما تزيل به السبب الداعى الى عزلك ، والباعث على صرفك ونحن الى أن نهنيك بهذه الحال أولى بنا من أن نعزيك اذ أدرت الانصراف فأوتيته وأحببت الاعتزال فأعطيته . فبارك الله لك فى منقلبك ، وهنأك النعم بدوامها ، ورزقك الشكر الموجب لها الزائد فيها !

وكتب ابن مكرم الى نصرانى أسلم :

أما بعد فالحمد لله الذى وفقك لشكره . وعرفك هـدايته . وطهر من الارتياب قلبك . ومازالت مخايلك ممثلة لناحقيقة ماوهب الله فيك . حتى كأنك لم تزل بالاسلام موسوماً . وإن كنت على غيره مقيما . وكنا مؤملين لمـا صرت اليـه . مشفقين مما كنت عليه . حتى اذا كاد اشفاقنا أن يستعلى رجاءنا . أتت السعادة بما لم تزل الانفس تعد منك . فنسأل الله الذى أضاء لك سبيل رشدك أن يوفقك لصالح العمل وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار

الألم من تزوج الامهات

قال بعض الـكتاب :

من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهجن عمله . وقد يقع من ذلك فيما يحله الشرع ويكرهه الأدباء . وكثير ممن يغلب على طبعه هذا المعنى يراه سمو نفس وعلو همة . حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه . ورأينا من يجاوز ذلك إلى أن لا ينكح مستنكحا . وزاد به العلو إلى ترك ماذكره أولى . وكنا عرفنا حال انسان تزوجت أمه فعظم لذلك همه ، وانفرد عن أودائه ، وتوارى عن أصفيائه ، حياء من لقائهم ، وكرها لتهنيتهم له أو عزائهم . واضطرته الوحشة إلى قصد من ظن به منهم المسكة فى تحامى خطابه فيما اجتنب لأجله خلانه ، وفارق لسببه اخوانه . وتخيل ذلك المقصود أنه انما لجأ اليه ليسليه فأفاض معه فيما قدر أنه قصد له من المعنى الذى جعله وحيدا خوف المفاوضة ، ثم مضت الايام واختلف الحال ووجع الى العشرة وأبناء المودة فكان عنده من لم يخاطبه أحظى ، وفى نفسه اوفى ، وعلى قلبه أخف ، وفى نفسه أشف ، ونقم على ذلك الصديق وعتب : إذ لـكل من الناس إلا من طاب محتده ، وطال سؤدده ، حال من الالف والرغبة تحسن المساوى ثم حال من الملل والزهادة تقبح المحاسن ، واعتذر

المتكلف من التسليه بمالم يلزمه ، ولم يرده صفيه ، فانه فصل ما أوجبته الاخوة ، وحقوق الخلطة ، وأسباب العشرة ، وانبساط المفاوضة ، ودبت عقارب الظنون والوشاية ، الى أن خرجا بالملاحاة الى المعاداة ، فلما وقع بعض الناس بينهما من معاودة الحسنى ، ومراجعة الأولى ، جاهر هذا الماقت بقرع سن الأسف ، على تخيل النهى والوقار من الممقوت وظاهر الممقوت بتقريع الماقت بتزويج أمه الذى تجشم من كلامه فيه فضلا ، وتكلف من خطابه عليه ما من حسرة خلا ، فأفضى الأمر بينهما إلى الأوتار ، وطلب الثار ، فان اضطر الى القول فى هذ المعنى أحد بأمر قاهر من السلطان ، أو حوادث الازمان ، أو تطارح الاخوان ، فليقل وليكتب ما مثلنا ان لم يجد منه بدا :

أنت بفضل الله عليك ، واحسان تبصيره اياك ، من أهل الدين وخلوص اليقين . فكما لا تُتّبع الشهوة فى محظور تبيحه فكذا لا تُتّبع الانفة فى مباح تحظره ، وقد اتصل بنا ما اختاره الله والقضاء لذات الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك ، مما كرهه إباؤك الدنيوى لك ولها ؛ ورضيه الحال الدينى له ولها ، فنحن نعزيك عن فائت محبوبك ، ونهنيك فى الخيرة فى اختيار القدر لك ، ونسأل الله أن يجعلها أبدا معك فيما رضيت وكرهت ؛ وأبيت وأتيت

فهذا ونحوه أصوب وأسلم ، ان اضطررت اليه ، وتركه أحسن وأحزم : ان ملكت رأيك فيه . والتلطف للكتابة عما يستهجن ولا يستحسن التواجه به من أحسن الأشياء وأسدها

وكتب أبو الفضل بن العميد فى بابه

الحمد لله الذى كشف عنا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل الامهات : كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الابية ، عن حمية الجاهلية . ثم عرض للجزيل من الاجر من استسلم لمواقع قضائه ، وعوض جزيل الثواب من صبر على نازل بلائه ، وهنأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضى بقضيته

بمؤونتك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل الله تعالى جَدَّه (١) ما تجرعته من أنَف (٢) ، وكظمته من أسف ، معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويجزل به ذخرك . وقرن بالحاضر من امتعاضك لفقدها ، المنتظر من ارتماضك لدفنها (٣) وعوضك من أسرَّة فرشها ، أعواد نعشها ؛ وجعل ما ينعم به عليك من بعدها من نعمة ، معرًّى من نقمة ، وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة

التهانى بالبنات

ألفاظ لأهل العصر فى التهانى بالبنات :

— هنأ الله سيدى ورد الكريمة عليه ، وعمر بها أعداد النسل الطيب لديه ، وجعلها مؤذنة بأخوة بررة ، يعمرون أندية الفضل ، ويغبرون بقية الدهر

— اتصل بى خبر المولودة كرَّم الله غرتها وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيرك بعد اتضاح الخبر ، وانكارك ما اختاره الله لك فى سابق القدر ، وقد علمت أنهن أقرب من القلوب وأن الله تعالى بدأ بهن فى الترتيب فقال جل من قائل (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) وما سماه هبة فهو بالشكر أولى وبحسن التقبل أحرى

— أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الاصهار ، وأولاد الاطهار . والمبشرة بأخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون

فلو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلالِ

والله يعرفك البركة فى مطلعها ، والسعادة فى موقعها ؛ فادَّرع اغتباطا واستأنف نشاطا

(١) الجد : البأس ، ومثله الجد
(٢) الأنف والأنفة : الحمية
(٣) الارتماض : الحزن

الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب . والنفس مؤنثة وهي قوام الابدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف الاجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون ، فهنأك الله ما أوليت ، وأوزعك شكر ما أعطيت ، وأطال الله بقاك ، ما عرف النسل والولد ، وما بقى العصر والأبد ، إنه فعال لما يشاء

أوصاف النساء

والتصرف فى النساء ضيق النطاق ، شديد الخناق ، وأكثر ما يمدح به الرجال ذم لهن ، ووصم عليهن ، قال ابن الرومى

ما للحسان مسيئاتٍ بنا ولنا … الى المسيئات طول الدهر تحنانُ
فان يبحن بعهدٍ قلن معذرةً … إنا نسينا وفى النسوان نسيان
لا نُلزَم الذُّكر إنّا لم نسمَّ به … ولا مُنِحناه بل للذُّكر ذُكران
فضلُ الرجال علينا أن شيمتهم … جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان
وأنَّ منهم وفاءً لا تقومُ له … وهل يكون مع النقصان رجحان

وقال أبو الطيب المتنبي :

بنفسى الخيال الزائرى بعد هجعةٍ … وقولته لى بعدنا الغمضَ تطعمُ
سلامٌ فلولا البخل والخوف عندهُ … لقلنا أبو حفص علينا المسلِّمُ

ألا ترى أن الجود ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة والفطن ، وما جرى فى هذا السنَن من فضائل الرجال ، لو مدح النساء به لكان نقصا عليهن ، وذماً لهنّ ؟

ولمديح النساء أبواب تفرقت فى الكتاب . أنشد رجل زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فوثب اليه الخدم يضربونه فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيراً وأخطأ، وهو أحب الينا ممن أراد شراً فأصاب، سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه اذا قال هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمّل، وعرّفوه ما جهل.

وقال كثير:

ولما قضينا من منًى كل حاجةٍ ومسّح بالاركان من هو ماسحُ
وشُدّت على حُدْب المطايا رحالنا ولا يعلم الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطحُ
نقعنا قلوباً بالأحاديث واشتفت بذاك صدورٌ مُنْضجات قرائح (١)
ولم نخش ريب الدهر فى كل حالة ولا راعنا منه سنيحٌ و بارحُ

وقال

تفرق ألاّف الحجيج على منى وشتتهم شحط النوى مشى أربعِ
فريقان منهم سالك بطن نخلة وآخر منهم جازع ظهر تصرع
فلم أر داراً مثلها دار غبطةٍ وملهى اذا التفّ الحجيج بمجمع
أقلّ مقيما راضياً بمكانه وأكثر جاراً ظاعناً لم يودع
فأصبح لا تلقى خباءً عهدتهُ بعضر به أوتادهُ لم تنزّع
فشاقوك لما وجهوا كل وجهةٍ فبانوا وخلوا عن منازل بلقع

ودخل كثيّر على عزة يوما فقالت: ما ينبغى أن نأذن لك فى الجلوس، فقال: ولم ذلك؟ قالت لأنى رأيت الأحوص ألين جانباً عند الغوانى منك فى شعره، وأضرع خداً للنساء، وأنه الذى يقول:

يا أيها اللائمى فيها لأصرمها أكثرت لو كان يغنى عنك إكثار

(١) نقع: روى. منضجات قرائح: أنضجها الحزن وقرحها

أكثيرُ فلست مطاعاً إذ وشيت بها لا القلبُ سالٍ ولا في حبها عارُ

ويعجبني قوله

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدورُ
وما كنت زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يزر لابد أن سيزورُ
لقد منعت معروفها أم جعفر وانى إلى معروفها لفقيرُ

ويعجبني قوله

كم من دنيّ لها قد كنت أتبعهُ ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا
لا أستطيع نزوعاً عن محبتها أو يصنعَ الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو الى هجرها قلبي فيتبعني حتى اذا قلت هذا صادقٌ نزعا
وزادنى رغبة فى الحب أن منعتْ أشهى الى المرء من دنياه ما مُنعا

وقوله

اذا أنت لم تعشق ولم تدر الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلْمدا
وما العيش الا ما تلذ وتشتهى وان لام فيه ذو الشنان وفنّدا
وانى لأهواها وأهوى لقاءها كما يشتهي الصادي الشراب المبرّدا
علاقة حب لجّ فى سنن الصبا فأبلى وما يزداد إلا تجددا

— هذان البيتان ألحقهما العتبي وغيره بشعر الأحوص وأنشدها أبو بكر بن دريد الأعرابي — فقال كثير : قد والله أجاد ، فما استقبحت من قولى ؟ قالت قولك :

وكنت اذا ما جئت أجللن مجلسى وأظهرن منى هيبةً لا تجهُّما
يحاذرن منى غيرةً قد عرفنها قديماً فلا يضحكن إلا تبسما
تراهن إلا أن يخالسن نظرة بمؤخر عين أو يقلبن معصما
كواظم لا ينطقن الا محورة رجيعة قول بعد أن تُتفهما
وكنّ اذا ما قلن شيئاً يسرهُ أسر الرضى فى نفسه وتجرّما

وقولك

ودت وبيت الله انك بكرةٌ   هجانٌ وأنى مُصعب ثم نهرب[١]

كلانا به عرّ فمن يرنا يقلْ   على حسنها جرباء تعدى وأجرب[٢]

نكون لذى مال كثير مغفلٍ   فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلب

اذا ما وردنا منهلا صاح أهله   علينا فما ننفك نؤذى ونضرب[٣]

ـ ويحك لقد أردت بي الشقاء، أفاوجدت أمنية أوطأ من هذه ؟

فخرج خجلا

وقد تمنى بمثل هذه الأمنية الفرزدق . وأغرب من هذا قول أبي صخر الهذلى

تمنيت من حبي علّيّة اننا   على رَمَثٍ في البحر ليس لنا وفرُ[٤]

على دائم لا يعبر الفلك موجهُ   ومن دوننا الأهوال واللجج الخضرُ

فنقضى هم النفس فى غير رقبةٍ   ويغرق من نخشى نميمته البحرُ

الأماني والآمال

ــ وقيل : الأمل رفيق مؤنس ، إن لم يبلغك فقد ألهاك

ــ وقال مسلم بن الوليد

وأكثر أفعال الليالى إساءةٌ   وأكثر ما تلقى الأمانى كواذبا

ــ وقال آخر :

مُنًى إن تكن حقا تكن أحسن المنى   والاّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

---

(١) هجان : بيضاء ، والمصعب : الفحل ورواية صاحب الموشح :

ألا ليتنا ياعز كنا لذى غنى   بعيرين نرعى فى الخلاء ونعزب

(٢) العر بالفتح ويضم الجرب

(٣) رواية صاحب الموشح

اذا ما وردنا منهلا هاج أهله   الينا فلا ننفك نرمى ونضرب

(٤) الرمث بالتحريك خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى البحر

أمانيّ من ليلى حسان كأنما　　سقتني بها ليلى على ظمأٍ بَردا

— وقال آخر:

رفعت عن الدنيا المنى غير حبها　　فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدها

— وقيل لأعرابي: ما أمتع لذات الدنيا؟ فقال: ممازحة المحب، ومحادثة الصديق، وأمانيّ تقطع بها أيامك، وأنشد

علليني بموعد　　وامطلي ما حييت به

ودعيني أفوز منـ　　ـك بنجوى تطلّبه

فعسى يعثر الزما　　ن بحظي فينتبهْ

أخبار كثير عزة

وكان كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الخزاعي — ويعرف بعزة — على حِدّة خاطره، وجودة شعره، أحمق الناس: دخل عليه نفر من قريش وهو عليل يهزءون به، قال بعضهم فقلت له كيف تجدك؟ قال بخير، هل سمعت الناس يقولون شيئا؟ فقلت نعم سمعتهم يقولون انك الدجال، فقال: والله لئن قلت ذلك إني لأجد في عيني اليمنى ضعفا منذ أيام

وكان رافضيا يدين بالرجعة، ويقول بامامة محمد بن الحنفية، والروافض يزعمون أنه دخل في شعب باليمن في أربعين من أصحابه، ولا بد من ظهوره، وفي ذلك يقول

ألا إن الأئمة من قريش　　ولاة الحق أربعة سواءُ

عليٌّ والثلاثة من بنيه　　هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبرّ　　وسبطٌ غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى　　يقود الخيل يقدمها اللواءُ

تغيّب لا يرى عنهم زمانا　　برضوى عنده عسلٌ وماءُ

وكان خلفاء بني أمية يعلمون ذلك منه، ويلبسونه عليه. دخل يوما على عبد الملك

ابن مروان فقال : نشدتك بحق على بن أبى طالب هل رأيت أعشق منك ؟ فقال يا أمير المؤمنين لو سألتنى بحقك لأخبرتك ، نعم بينا أنا أسير فى بعض الفلوات إذا أنا برجل قد نصب حبائله فقلت له ما أجلسك ها هنا ؟ قال أهلكنى وأهلى الجوع ، فنصبت حبائلى لأصيب لهم ولنفسى ما يكفينا سحابة يومنا ، قلت أرأيت أن أقمت معك فأصبنا صيدا ، أتجعل لى منه جزأ ؟ قال نعم ، فبينا نحن كذلك إذ وقعت ظبية ، فخرجنا مبتدرين فأسرع اليها فحلها وأطلقها فقلت ما حملك على هذا ؟ قال دخلتنى لها رقة لشبهها بليلى ، وأنشأ يقول

أيا شِبه ليلى لا تُراعى فاننى ... لك اليوم من وحشيةٍ لصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ... لأنتِ لليلى ما حييتِ طليقُ

وروى الكلبى وابن دأب أنه لما حلها قال :

إذهبى فى كلاءة الرحمن ... أنت منى فى ذمة وأمانِ
لا تخافى بأن تُهاجى بسوء ... ما تغنّى الحمام فى الأغصانِ
ترهبينى والجيد منك لليلى ... والحشا والبُغام والعينانِ

وقال قيس بن الملوح :

راحوا يصيدون الظباء وانى ... لأرى تصيُّدها علىّ حراما
أشبهن منك محاجراً وسوالفاً ... فأرى علىّ لها بذاك ذماما
أعززْ على بأن أروع شبيهها ... أو أن يذقن على يدىّ حِماما

ومن جيد شعر كثيّر :

وكانت لقطع الحبل بينى وبينها ... كناذرةٍ نذراً فأوفت وحلّتِ
فقلت لها ياعزّ كل مصيبةٍ ... إذا وُطِّنت يوماً لها النفس ذلت
ولم يلق انسان من الحب مَيعةً ... تغمُّ ولا عماء إلاّ تجلّت
أباحت حمىً لم يرعه الناس قبلها ... وحلّت تلاعاً لم تكن قبل حُلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
ووالله ما قاربت إلا تباعدت بهجر ولا استكثرت إلا أقلت
وما مر من يوم على كيومها وان عظمت أيام أخرى وجلت
فياعجبا للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وطنت كيف ذلت
وانى وتهيامى بعزة بعد ما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وكان كثير قصيرا دميا ولذلك قال :

فان أك ممروق العظام فاننى إذا ماوزنت القوم بالقوم وازن(١)

ودخل كثير على عبد الملك بن مروان فى أول خلافته فقال : أنت كثير ؟ فقال نعم ، فاقتحمه وقال : تسمع بالمعيدى لا أن تراه(٢) فقال يا أمير المؤمنين كل إنسان عند محله رحب الفناء ، شامخ البناء ، عالى السناء ، وأنشد يقول

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد هصورُ
ويعجبك الطرير إذا تراه فيخلف ظنك الرجل الطرير(٣)
بغاث الطير أطولها رقابا ولم تطل البزاة ولا الصقور(٤)
خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الباز مقلات نزور(٥)
ضعاف الأسد أكثرها زئيرا وأصرمها اللواتى لا تزير

---

(١) قبل هذا البيت
رأت رجلا أودى السقام بجسمه فلم يبق الا منطق وجناجن
وبعده :
وإنى لما استودعتنى من أمانة اذا ضيع الأسرار ياعز دافن

(٢) رواية القالى : « أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »

(٣) رجل طرير له هيئة حسنة

(٤) البغاث : شرار الطير

(٥) خشاش الطير هى العصافير ونحوها ، والمقلات : التى لا يحيا لها ولد ، والنزور قليلة الأولاد

وقد عظم البعير بغير لُب ... فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ
يُنَوَّخُ ثم يُضرب بالهراوَى ... فلا عُرْفٌ لديه ولا نكيرُ
يقوّده الصبى بكل أرضٍ ... ويصرعه على الجنب الصغير(١)
فما عظَم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم حسب وخِير(٢)

فقال قاتله الله ! ما أطول لسانه ، وأمد عنانه ، وأوسع جنانه ، إنى لأحسبه كما وصف نفسه(٣)

أوصاف الرجال

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم

وعاذلةٍ هبّت بليلٍ تلومنى ... ولم يغتمرنى قبل ذاك عذول(٤)
تقول اتئد لا يدعك الناس مملقاً ... وتُزرى بمن يا ابن الكرام تعولُ
فقلت أبت نفسٌ علىّ كريمةٌ ... وطارق ليل عند ذاك يقولُ
ألم تعلمى يا عَمرك الله أننى ... كريمٌ على حين الكرام قليلُ
وأنىَ لا أخزى إذا قيل مُملقٌ ... سخىٌ وأخزى أن يقال بخيلُ
فلا تتبعى النفس الغوية وانظرى ... إلى عنصر الاحساب كيف يئول
ولا تذهبنْ عيناك فى كل شرمخٍ ... له قصبٌ جُوف العظام أسيل(٥)
عسى أن تمنّى عِرسه أننى لها ... به حين يشتد الزمان بديلُ

(١) رواية القالى : « وينحره على الترب الصغير »
(٢) رواية القالى « كرم وخير »
(٣) رواية القالى « فقال عبد الملك : لله دره ! ما أفصح لسانه ، وأضبط جنانه واطول عنانه ! والله انى لأظنه كما وصف نفسه
(٤) اغتمره عده غمرا بالضم ويفتح وهو من لم يجرب الأمور
(٥) الشرمخ : الرجل الطويل

إذا كنت فى القوم الطوال فطلتهم[1] بعارفة حتى يقال طويل[2]
ولا خير فى حسن الجسوم وطولها إذا لم تزن حسن الجسوم عقولُ
فكائن رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم تحيهن أصول
فإلاّ يكن جسمى طويلاً فاننى له بالفعال الصالحات وَصول
ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فحلوٌ وأما وجهُهُ فجميلُ

وقال ابن الرومى :

وقصيف من الرجال نحيف راجح الوزن عند وزن الرجالِ
فى أناس أوتوا حُلوم العصافيـ ـر فلم تغنهم جسوم البغال

أخذه من قول حسان بن ثابت وقال له بنو الديان الحارثيون قد كنا ونحن نطول بأجسامنا على العرب حتى قلت

دع التجأجؤ وامشوا مشية سجحاً إن الرجال ذوو قدرٍ وتذكير[3]
لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ جسم البغال وأحلام العصافير

فتركتنا لا نرى أجسامنا شيئاً

والعرب تمدح الطول ، وتثنى عليه . وقال عنترة بن شداد

بطل كأن ثيابه فى سرحةٍ يحذى نعال السبت ليس بتوأم

قوله (ليس بتوأم) يريد ليس ممن زوحم فى الرحم فضعف ، كما قال الشعبى وقد دخل على عبد الملك بن مروان فجعل ينظر إليه ، وكان الشعبى قد وُلد توأماً مع أخيه فكان نحيفاً ، فقال يا أمير المؤمنين إنى زوحمت فى الرحم ، وقال أعرابى

ولما التقى الصفان واختلف القنا نِهالاً وأسباب المنايا نِهالها
تبيّنَ لى أن القماءة ذلةٌ وأن أعزاء الرجال طِوالها

(١) رواية القالى « فضلتهم »
(٢) العارفة : المكرمة وفسرها ابو بكر ابن الأنبارى بالنفس الصابرة
(٣) التجأجؤ : فتح الصدر عند المشى تيها وكبرياء

وقال أبو نواس :

وكنا إذا ما الخائن الجدّ غرّه　　سنا برق غادٍ أو ضجيج رعادِ
تردّى له الفضل بن يحيى بن خالدٍ　　بماضي الظُبى يزهاه طول نجاد
أمام خميس أرجوانٍ كأنه　　قميص محوكٌ من قنا وجيادِ[1]

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله

وملمومة زَرَدٌ ثوبها　　ولكنه بالقنا مخملُ

شعر كثير

ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان وهو عليل ، وأهله يتمنون أن يتبسم ، قال : لولا أن سرورك لا يتم بأن تسلم وأسقم لدعوت الله أن يصرف ما بك إليّ ، ولكني أسأل الله أيها الأمير العافية ولك ولي في كنفك ، فضحك وأمر له بمال ، فخرج وهو يقول:

ونعود سيدنا وسيد غيرنا　　ليت التشكّي كان بالعوّادِ
لو كان تقبل فدية لفديته　　بالمصطفى من طارفي وتلادي

قال محمد بن سلام الجمحي قال أبي ذاكرت مروان بن أبي حفصة شعر جرير والفرزدق وكثير فذهب الى تقديم كثير ، وجعل يطريه ويقول : هو أمدحهم للخلفاء ، فقلت : أمن جود مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان

ترى ابن أبي العاصي وقد صفّ دونه　　ثمانون ألفاً قد توافت كمُولها
يقلّبُ عينيْ حيةٍ بمفازةٍ　　اذا أمكنته شدة لا يُقيلها

قال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً وجعله يقلب عيني حية ، وقوله

وإن أمير المؤمنين هو الذي　　غزا كامنات الود مني فنالها

---

(١) الخميس الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة

زعم أن أمير المؤمنين استعطفه حتى غزا كامنات صدره ، وقوله لعبد العزيز ابن مروان

وما زالت رُقاكَ تَسلُّ ضغني وتخرج من مكامنها ضِبابي
ويرقيني لك الحاوون حتى أجابك حيّة تحت الحجاب

زعم أن عبد العزيز ترّكاه واحتال له ورقاه ، حتى أجابه ، أكذا تمدح الملوك ؟ فأسكته (١)

كلمات مأثورة

فصول قصار :

— من كان له من نفسه واعظ ، كان من الله عليه حافظ
— العبد حر اذا قنع ، والحر عبد اذا طمع
— الأماني تخدعك ، وعند الحقائق تدعك
— اذا كان الطمع هلا كا ، كان اليأس إدرا كا
— ليس يعد حكيما من لم يكن لنفسه خصيما
— تعز عن الشيء إذا مُنعتَه ، لقلة ما يصحبك اذا مُنحْته
— تجرّع مَضَضَ الصبر ، تُطفيء نار الضر
— الحكمة حفظ ما كُلِّفت ، وترك ما كُفيت
— الصبر عن محارم الله ، أيسر من الصبر على عذاب الله

شذور لأهل العصر في معان شتى :

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وشمكير شمس المعالي في أثناء رسائله

— بزند الشفيع توري نار النجاح ، ومن كف المفيض ينتظر فوز القِداح

(١) راجع ما أخذه الرواة على كثير في الصفحات ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ من كتاب الموشح فان ماهنا قد اقتبس من هناك

— الوسائل أقدام ذوى الحاجات ، والشفاعات مفاتيح الطلبات

— العفو عن المجرم من موجبات الكرم ، وقبول المعذرة من محاسن الشيم

— بالقوادم والخوافى قوة الجناح ، وبالأسنة والعوالى عمل الرماح

— الدنيا دار تغرير وخداع ، وملتقى ساعة لوداع ، والناس منصرفون بين كل ورد وصدر ، وصائرون خبراً بعد أثر

— غاية كل متحرك إلى سكون ، ونهاية كل متكون أن لا يكون ، وآخر الأحياء فناء ، والجزع على الأموات عناء ، وإذا كان ذلك كذلك ، فلم التهالك على الهالك

— حشو الدهر أحزان وهموم ، وصفوه من غير كدر معدوم

— إذا سمح الدهر بالحباء ، فأبشر بوشك الاقتضاء ، وإذا أعار ، فاحسبه قد أغار

— الدهر طعمان حلو ومر ، والأيام ضربان عسر ويسر

— لكل شىء غاية ومنتهى ، وانقطاع وان بلغ المدى

— ترك الجواب داعية الارتياب ، والحاجة الى الاقتضاء ، كسوف فى وجه الرجاء

— هم المنتظر للجواب ثقيل ، والمدى فيه وإن كان قصيراً طويل

— النجيب إذا جرى لم يشق غباره ، وإذا سرى لم تلحق آثاره ، ومن أين للصباب صوب السحاب، وللغراب هُوِىُّ العقاب ، وهيهات أن تكسب الأرض لطافة الهواء ، ويصير البدر كالشمس فى الضياء

شمس المعالى

وقد ترجم عن شمس المعالى أبو منصور الثعالبى فى كتاب ألفه له . قال فى أوله :

« أما على أثر حمد الله الذى هو أول كتابه ، وآخر دعوى ساكنى دار ثوابه ، والصلاة على خيرته ، من بريته ، وعلى الصفوة من ذريته ، فان خير الكلام ماشُغل بخدمة من جمع الله له عزة الملك الى بسطة العلم ، ونور الحكمة إلى نفوذ الحكم . وجعله مميزاً على ملوك العصر ، ومدبرى الأرض وولاة الأمر ، بخصائص من العدل ، وجلائل

من الفضل ، ودقائق من الكرم المحض ، لا يدخل أيسرها تحت العادات ، ولا يدرك أقلها بالعبارات ، ومحاسن سير الأيام ، تحرسها أسنة الأقلام ، وتدرسها ألسنة الليالى والأيام ، وهذه صفة تغنى عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها ، واستئثاره على جميع الملوك بها ، ولعلم سامعها ببديهة السماع أنها للأمير شمس المعالى خالصة ، وعليه مقصورة ، وبه لائقة ، وعن غيره نافرة ، اذ هو بعاينة الآثار ، وشهادة الأخبار ، واجماع الأولياء ، واتفاق الأعداء ، كافل المجد ، وكافى الخلق ، وواحد الدهر ، وغرة الدنيا ، ومفزَع الورى ، وحسنة العالم ، ونكتة الفلك الدائر ، فبلغه الله أقصى نهاية العمر ، كما بلغه غاية الفخر ، وملكه أزمّة الأمر ، كما ملكه أعِنّة الفضل ، وأدام حسن النظر للعباد والبلاد ، بادامة أيامه التى هى أعياد الدهر ، ومواسم اليُمن والأمن ، ومطالع الخير والسعد ، وزاد دولته شبابا ونموا ، كما زاده فى الشرف علوًّا ، حتى تكون السعادات وفد بابه ، والبشائر قِرى سمعه ، والمسار غذاء نفسه ، ويترامى به الاقبال إلى حيث لا يبلغه أمل ، ولا يقطعه أجل »

نحا فى قوله (وهذه صفة تغنى عن الموصوف) الى قول أبى الطيب يرثى أخت سيف الدولة :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب　　كناية بهما عن أشرف النسبِ
أجل قدرك أن تسمى مؤبَّنةً　　ومن دعاك فقد سماك للعرب

وفى شمس المعالى يقول الأمير أبو الفضل الميكالى :

لا تعصينْ شمس العلى قابوسا　　فمن عصى قابوس لاقى بُوسا

وله يقول بديع الزمان فى قصيدة نظمها فى تضاعيف رسالة موشحة

إنَّ من كنتَ من مُناه بمرأى　　وتعدَّاك سيء الاقتراحِ
بين بشرٍ يردُّ غائض جاهى　　وقبول يعيد ريش جناحى
وبساط وردت مشرعة الأنس　　بهِ وادَّرعت برد النجاح
فاقض أوطاراً التقت والمعالى　　فى نظام من النهى ونصاح

ملك دونه تقطّع أبصا ر الليالي يوما ندّى وكفاحْ
ملك لو يشاء مد على النجـ ـم رواقا وردّ وفد الرياح
تارة فى خشونة الدهر تلقا هُ وطوراً فى حسن ذات الوشاح
ملك كلما بدا تقف الافلا كُ عجباً به وفرط ارتياح
هكذا هكذا تكون المعالى طرق الجد غير طرق المزاح

وهى طويلة كتبتها على طريق الاختيار

رسائل البديع

— ١ —

رقعة لبديع الزمان الى شمس المعالى وقد ورد حضرته :

لم تزل الامال — أطال الله بقاء الامير السيد شمس المعالى وأدام سلطانه ! — تعدنى هذا اليوم ، والأيام تمطلني بألسنة صروفها ، على اختلاف صنوفها ، بين حلو استرقنى ، ومر استحقنى ، وشر صار الى ، وخير ماصرت اليه ، وأنا فى خلال هذه الاحوال أذرع الآفاق فأكون طوراً مشرقاً للمشرق ، وطوراً مغرباً للمغرب ، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة ، وسُدته المريعة ، ولا وسيلة إلا المنزع الشاسع ، والأمل الواسع ، وقد صرت أطال الله بقاء الأمير بين أنياب النوائب ، وتجشمت هول الموارد ، وركبت أكتاف المكاره ، ورضعت أخلاف العوائق ، ومسحت أطراف المراحل ، حتى حضرت الحضرة البهية ، أو كدت ، و بلغت الأمنية ، أو زدت ، وللأمير السيد فى الاصغاء إلى المجد ، والبسط من عنان الفضل ، بتمكين خادمه من المجلس يلقاه بقدمه ، والبساط يلثمه بفمه ، تفضله ، فله الرأى العالى إن شاء الله

— ٢ —

وله الى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أن يزف اليه ما أنشأه فبعث به وكتب اليه

مرحباً بسلام الشيخ سيدى ومولاى أطال الله بقاه ، ولا كالمرحب بطلعته . وقد وصلت تحيته فشكرتها ، وعدته الجميلة بالحضور غداً فانتظرتها . ودعوت الله أن يطوى ساعات النهار ، ويزج الشمس فى المغار ، ويقرب مسافة الفلك الدوار ، ويرفع البركة من سيره ، ويجهز الحركة إلى دوره ، ويسرنى بوفد الظلام وقد نزل ، ثم لم يلبث الاريثما رحل ، وقد بعثت بما طلب سمعا لأمره وطاعة والنسخة أسقم من أجفان الغضبان ، والشيخ سيدى أدام الله عزه يركض قلمه فى اصلاحها وحبذا هو فى غد ، وقد طلع كالصبح اذا سطع ، والبرق اذا لمع

يامرحبا بغد ويا أهلا به ان كان إلمام الأحبة فى غدِ

— ٣ —

وله الى أبى الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبى ابراهيم اسماعيل ابن أحمد

لوكان للكرم عن جناب الشيخ منصرَف لانصرفت ، أو للأمل منحرَف الى سواه لانحرفت ، أو للنجح باب سواه لولجت ، أو للفضل خاطب غيره لزوّجت ، ولكن أبى الله أن يعقد الاعليه الخنصر ، أو يتحلى الا بفواضله الدهر ، ولا يزال كذا يتسم المجد بسمته ، ويجذب العلاء بهمته ، ويسعد الدين بنظره ، والدنيا بجماله . وغلامه أنا لو استعار الدهر لسانا ، واتخذ الريح ترجمانا ، ليشيع أنعامه حق الأشاعة ، لقصرت عنه يد الاستطاعة ، فليس إلا أن يلبس مكارمه ضافية سابغة ، ويرد مشارعه صافية سائغة ، ويحيل الجزاء على يد قصور ، والشكر على لسان قصير ، ثم ان حاجاتى إذا لم يعر من قلائد المجد نحرها ، ولم يعطل من حلى الجود صدرها ، كبر مهرها ، وعز

كفؤها ، ولم أجد لها إلا واحداً أخضر الجلدة فى بيت العرب ، أو ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب[1] ، وهذه حاجة أنا أزفها إلى الشيخ الامام حرس الله مهجته ، وأسوقها منظومة من الصدر إلى العجز ، كما يساق الماء إلى الأرض الجرز[2] ، وأنا من مفتتح اليوم إلى مختتمه ، ومن قرن النهار إلى قدمه ، قاعد كالكركى ، والديك الهندى ، فى هذا الأدحى[3] ، يمر بى أولو الحلى والحلل ، ويجتاز ذوو الخيل والخول ، وما أنا والنظر إلى مالا يلينى ، والسؤال عما لا يعنينى ، واليوم لما افتضضنا عذرة الصباح ملأت جفونى من منظر ما أحوجه إلى عيب يصرف عين كماله ، عن جماله ، فقلت لمن حضر من هذا ؟ فأخذوا يحركون الرؤوس استظرافاً لحالى ، و يتغامزون تعجباً من سؤالى وقالوا هذا الشيخ الفاضل أبو ابراهيم اسماعيل بن أحمد ، فقلت حرس الله مهجته ، وأدام غبطته ، فكيف الوصول الى خدمته ، وأنى مأتى معرفته ؟ قالوا ان الشيخ الامام أدام الله تأبيده يضرب فى مودته بالقدح المعلّى ، و يأخذ فى معرفته بالحظ الأعلى ، فان رأى الشيخ أطال الله بقاءه أن يجعل عنايته حرف الصلة ، وتفضله لام المعرفة ، فعل ، ان شاء الله

جعفر بن يحيى

قال الرشيد ليحيى بن خالد : ياأبت انى أردت أن أجعل الخاتم الذى فى يد الفضل الى جعفر وقد احتشمت منه فاكفنيه

فكتب اليه يحيى : قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن يحول الخاتم من يمينك الى شمالك

فأجاب الفضل : قد سمعت ماقاله أمير المؤمنين فى أخى ، وقد اطلعت على أمره وما انقلبت عنى نعمة صارت اليه ، ولا عزبت عنى رتبة طلعت عليه

فقال جعفر : لله أخى ما أنفس نفسه ، وأبين دلائل الفضل عليه ، وأقوى منة

(١) الكرب ، بفتحتين ، الحبل بلى الماء
(٢) الجرز ، بضمتين الأرض لاتنبت شيئا
(٣) الأدحى : مبيض النعام فى الرمل

العقل فيه ، وأوسع فى البلاغة ذرعه ، وأرحب بها جنابه ، يوجب على نفسه ما يجب لله ، ويحمل بكرمه فوق طاقته

وذكر جعفر بن يحيى فى مجلس ثمامة بن أشرس فقال : مارأيت أحداً من خلق الله كان أبسط لسانا ، ولا ألحن بحجته ، ولا أقدر على كلام بنظم حسن ، وألفاظ عذبة ، ومنطق فصيح ، من جعفر بن يحيى ، كان لايتوقف ، ولا يتحبس ، ولا يصل كلامه بحشو من الكلام ، ولا يعيد لفظا ولا معنى ، ولا يخرج من فن إلى غيره حتى يبلغ آخر مافيه ، وكان لا يرى شيئا إلا حكاه ، ولا يحكى شيئا إلا كان أكثر منه ، ولا يمر بذهنه شيء إلا حفظه ، وكان إذا شاء أضحك الثكلى ، وأذهل الزاهد ، وخشن قلب العابد

قلت فكيف كانت معرفته ؟ قال كان من أعلم الناس بالخبر الباهر ، والشعر النادر ، والمثل السائر ، والفصاحة التامة ، واللسان البسيط

قال سهل بن هارون وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرا فقال : لو كان الكلام متصوراً دراً ، ويلقيه المنطق جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من ألفاظهما . ولقد غبرت معهما وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهما ، وهم يرون البلاغة لم تستكمل إلا فيهما ولم تكن مقصورة إلا عليهما ، ولا انقادت إلا لهما ، وإنهما للُباب الكرم ، عِتق منظر وجودة مخبر ، وسهولة لفظ ، وجزالة منطق ، ونزاهة نفس ، وكمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما ، والمأثور من خصائصهما جميع أيام من سواهما من لدن آدم الى أن ينفخ فى الصور و يبعث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله الكرام ، وسلف عباده الصالحين ، لما باهت إلا بهما ، ولا عولت فى الفخر الا عليهما ، ولقد كانا مع تهذيب أخلاقهما ، ومعسول مذاقهما ، وسنا اشراقهما ، وكمال خصال الخير فيهما فى محاسن المأمون كالنقطة فى البحر ، والخردلة فى القفر

ووقع جعفر بن يحيى لرجل اعتذر عنده من ذنب

— قد قدُمت طاعتك ، وظهرت نصيحتك ، ولا تغلب سيئة حسنتين

ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه

— الخط خيط الحكمة ، ينظم فيه منثورها ، ويفصّل فيه شذورها

— واختصم رجلان بحضرته فقال لأحدهما أنت خليّ ، وهذا شجيّ ، فكلامك يجرى على برد العافية ، وجوابه يجرى على حر المصيبة .

ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيي فأنشده

أبى فما ترجو الجياد لحاقهُ   أبو الفضل سبّاق الأضاميم جعفرُ
وزيرٌ إذا ناب الخلافة حادثٌ   أشار بما عنه الخلافة تصدرُ

فقال جعفر أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة فأنشده

أقمنا باليمامة أو نسينا   مقاماً ما نريد به زوالا
وقلنا أين نذهب بعد معنٍ   وقد ذهب النوال فلا نوالا
وكان الناس كلهم لمعنٍ   إلى أن زار حُفْرَتَهُ عيالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعفر يرسل دموعه على خديه ، فقال : هل أثابك على هذه المرثية أحد من أهل بيته وولده ؟ قال : لا ! قال فلو كان معن حيا ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟ قال أربعمائة دينار ، قال فإنا كنا نظن أنه لا يرضى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن معن رحمه الله بالضعف مما ظننته ، وزدناك مثل ذلك ، فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار ، قبل أن تخرج ، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمح به عن معن

نفحت مكافئاً عن جود معنٍ   لنا فيما يجود به سِجالا
فعجلت العطية يا ابن يحيى   لنادبهِ ولم ترد المطالا
فكافأ عن صدى معنٍ جوادٌ   بأجود راحةٍ بذلت نوالا
بنى لك خالدٌ وأبوك يحيى   بناءً فى المكارم لن يُنالا

كأن البرمكيّ لـكل مالٍ تجود به يداه يفيد مالا (١)

خذ هذا من قول زهير :

تراه اذا ما جئتهُ متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائِلُهْ

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها :

وذى نعمةٍ تممتها وشكرتهـا وخصم يكاد يغلب الحق باطِلُهْ
دفعت بمعروفٍ من الحق صائبٍ إذا ما أضلّ القائلين معاضله
وذى خَطَلٍ فى القول يحسب أنهُ مصيب فما يلمِمْ به فهو قائِلُهْ
عبأت له حلما وأكرمت غيرهُ وأعرضت عنهُ وهو بادٍ مقاتِلُهْ
وأبيضَ فياضٍ يداه غمامةٌ على معتفيه ما تغبّ نوافله
غدوت عليه غدوةً فرأيتهُ قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدّينه طوراً وطوراً يلمنهُ وأعيا فما يدرين أين مخاتله
فأعرضن عنه عن كريم مدرّأٍ جموح عن الأمر الذى هو فاعله
خى ثقةٍ لا يذهب الخمر مالهُ ولـكنه قد يذهب المـال نائله

شيء من النقد

قال أبو الفرج قدامة بن جعفر فى معنى أبيات زهير الأولى : لمـا كانت فضائل الناس من حيث هم ناس ، لا من طريق ماهم مشتركون فيـه مع سائر الحيوان ، على ماعليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والعفة والعدل والشجاعة كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا وبما سواها مخطئاً . وقد قال زهير :

أخى ثقةٍ لا يتلف الخمر ماله ولـكنه قد يهلك المـال نائله

فوصفه بالعفة لقلة امعانه فى اللذات ، وأنه لا ينفذ فيها ماله ، وبالسخاء لاهلاك ماله فى النوال ، وانحرافه عن غير ذلك من اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال

(١) يفيد : يستفيد

تراه اذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فزاد فى وصف السخاء بأنه يهش ولا يلحقه مضض ولا تكرّه لفعله ، ثم قال :

فمن مثل حصنٍ فى الحروب ومثلهُ ... لانكار ضيم أو لأمر يحاوله

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ، فاستوفى ضروب المدح الأربعة التى هى فضائل الانسان على الحقيقة ، وزاد الوفاء وان كان داخلا فى الأربعة فبكثير من الناس لايعلم وجه دخوله فيها حيث قال (أخى ثقة) فوصفه بالوفاء ، والوفاء داخل فى هذه الفضائل التى قدمناها . وقديتفنن الشعراء فيعدون أنواع الفضائل الأربع وأقسامها ، وكل ذلك داخل فى جملتها مثل أن يذكروا ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل ، وكذكرهم القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك أيضاً من أقسام العفة ، وكذكرهم الحماية ، والأخذ بالثار ، والدفاع ، والنكاية ، والمهابة وقتل الأقران ، والسير فى المهامه والقفار ، وما يشا كل ذلك وهو من أقسام الشجاعة ، وكذكرهم السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقرى الأضياف ، وما جانس هذه الاشياء ، وهو من أقسام العدل ، فأما تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعود ، وعن تركيب العقل مع السخاء انجاز الوعد وما أشبه ذلك ، وعن تركيب العقل مع العفة التنزه والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك ، وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الاخلاف ، والاتلاف ، وما أشبه ذلك ، وعن تركيب الشجاعة مع العفة إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ، ومن السخاء مع العفة الاسعاف بالقوت ، والايثار على النفس ، وما شا كل ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل الاربع وسط بين طرفين مذمومين [1]

(١) راجع الباب السابع من كتاب « الأخلاق عند الغزالى » لتفهم هذا الحديث

مدح آل برمك

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر لما حج الرشيد مع البرامكة

أتانا بنو الاملاك من آل برمكٍ ... فياطيب أخبارٍ ويا حُسْن منظرِ
لهم رحلة فى كل عام الى العِدى ... وأخرى إلى البيت العتيق المطهّرِ
فتُظلم بغدادٌ ويجلو لنا الدجا ... بمكة ماحجّوا ثلاثةُ أقمر
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خُلقت إلا لجودٍ أكفهم ... وأقدامهم إلا لأعواد مِنبرِ
اذا راض يحيى الأمر ذلت صعابهُ ... وحسبك من راعٍ له ومدبّرِ
ترى الناس إجلالاً له وكأنهم ... غرانيق ماء تحت بازٍ مصرصر(١)

شعر الميكالى

قطعة من شعر الأمير أبى الفضل الميكالى فى طرف آخذ بطرف من التجنيس مستطرف فى ضروب من الغزل . قال :

لقد راعنى بدر الدجا بصدوده ... ووكل أجفانى برعى كواكبهْ
فياجزعى مهلا عساه يعود لى ... ويا كبدى صبراً على ما كواكِ بهْ

وقال

مواعيده فى الفضل أحلام نائم ... أشبهها بالقفر أو بسرابهِ
فمن لى بوجه لو تحير فى الدجا ... أخو سفر فى ليل غيم سرى بهِ

وقال

صِل محباً أعياه وصف هواه ... فضناه ينوب عن ترجمانِه
كلما راقه سواك تصدّت ... مقلتاه بدمعه ترجمانِه

(١) الغرانيق : جمع غرنوق وهو طير مائى اسود : والبازى : الصقر

وقال

يا ذا الذى أرسل من طرفه على سيفاً قدنى لو فرا
شفاء نفسى منك تخميشة تغرس من خدك نيلوفرا

وقال

يا مبتلى بضناه يرجو رحمة من مالك يشفيه من أوصابه
أوصاك سحر جفونه بتسهد وتبلد فقبلت ما أوصى به
اصبر على مضض الهوى فلربما تحلو مرارة صبره أوصابه

وقال

كتبت اليه أستهدى وصالا فطلنى بوعد فى الجواب
ألا ليت الجواب يكون خيراً فيطفىء ما أحاط من الجوى بى

وقال

إن كنت تأنس بالحبيب وقربه فاصبر على حكم الرقيب وداره
إن الرقيب اذا صبرت لحكمه بوآك فى مثوى الحبيب وداره

وقال

شكوت اليه ما ألاقى فقال لى رويداً ففى حكم الهوى أنت مؤتلى
فلو كان حقاً ما ادعيت من الهوى لقل بما تلقى اذاً أن تموت لى

وقال

نوى لى بعد اكثار السؤال حبيب أن يسامح بالنوال
فلما رمت انجازاً لوعدى عليه أبى الوفاء بما نوى لى
وكان القرب منه شفاء نفسى فقد قضت النوائب بالنوى لى

وقال

سقياً لدهر مضى والوصل يجمعنا ونحن نحكى عناقاً شكل تنوين
فصرت إذ علقت كفى حبائلكم فسهم هجرك ترمى ثم تنوينى

وقال

صدَفَ الحبيب بوصله   فجفا رقادى إذ صدَفْ
ونثرت لؤلؤ أدمع   أضحى لها جفنى صدَف

وقال

يامن يقول الشعر غير مهذبٍ   ويسومنى التعذيب فى تهذيبه
لوأن كل الناس فيك مساعدى   لعجزت عن تهذيب ماتهذى به

وقال

أراد أن يخفى هواه وقد   نمّ بما يخفى أساريره
وكيف يخفى داءه مدنفٌ   قدذاب من فرط الأسى ريره(١)

وقال

ومهفهف تهفو بلـ   ـب المرء منه شمائلُ
فالردف دِعص هائلٌ   والقدّ غصنٌ مائل
والخدّ نور شقائق   تنشقُّ عنه خمائل
والعَرف نشر حدائقٍ   نمت بهنّ شمائل
والطرف سيفٌ ماله   إلا العذار حمائل

ولأبى الفتح البستى فى هذا المذهب

إن لى فى الهوى لساناً كتوماً   وجناناً يخفى حريق جوَاه
غير أنى أخاف دمعى عليه   ستراه يفشى الذى ستراه

ولأبى الفتح البستى فى مذهب هذا البيت الأخير

ناظراه فيما جنى ناظراهُ   أو دعانى أمتْ بما أودعانى

وله

خذ العفو وأمر بعرف كما   أمرت وأعرض عن الجاهلين

---

(١) الرير : الدم ، أوذائب المخ

ولن فى الكلام لكل الأنام ... فيستحسن من ذوى الجاه لين

وله

إلى حتفى سعى قدمى ... أرى قدمى أراق دمى
فما أنفك من ندمى ... وليس بنافعى ندمى

وله

إن هز أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كل كمى هز عامله
وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وقال لمن استدعاه إلى مودته

فديتك قل الصديق الصدوق ... وقل الخليل الحفى الوفى
ولى راغب فيك إما وفيت ... فهل راغب أنت فى أن تفى

وللأمير أبى الفضل

أهلا بظبى حواه قصر ... كجنة قد حوت نعيما
طرقته لا أهاب سوءا ... أباحنى حبه الحريما
فجاد من فيه لى براح ... تنفى حريقاً به قديما
أفدى حريقاً أباح ريقاً ... لا بل حريماً أباح ريما

وله

من لى بشمل المنى والأنس أجمعهُ ... بشادن حل فيه الحسن أجمعهُ
مازال يعرض عن وصلى وأخدعهُ ... فالآن قد لان بعد الصد أخدعه[1]

وقال

بأبى غزال نام عن وصبى به ... ومراق دمعى للنوى وصبيبه
ياليته يرثى على ولهى به ... لغرام قلبى فى الهوى وطبيبه

---

(١) الاخدع : عرق ، وهو شعبة من الوريد

وله فى هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخموراً خمش وجهه

هبه تغيّر حائلا عن عهده ورمى فؤادى بالصدود فأزعجا
ما بال نَرجسه تحوَّل وردةً والورد فى خديه عاد بنفسجا

وله فى هذا المعنى

وريم على السكر خمّشته بقرص بعارضه أثّرا
فأصبح نرجسه وردةً ووردة خديه نيلوفرا

وقال فى وصف العِذار

ظبي كسا رأس الشباب بعارض نمّ العِذارُ بحافتيه فلاحا
فكأنما أهدى لعارض خدّه شعرى ظلاماً واستعاض صباحا

وقال فى غلام افتصد

ومهفهفٍ غرس الجما ل بخده روضا مريعا
فصد الطبيب ذراعه فجرى له دمعى ذريعا
وأمسنى وقع الحديـ د بعرقه ألماً وجيعا
فأريته من عَبرتى ما سال من دمه نجيعا

اوصاف العلماء

فقر فى ذكر العلم والعلماء

— العلماء ورثة الأنبياء

— العلماء أعلام الاسلام

— العلماء فى الأرض كالنجوم فى السماء

— ابن المعتز : العلماء غرباء لكثرة الجهال

— وله : العلم جمال لايخفى ، ونسب لايجفى

— وله : زلة العالم كانكسار سفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير

— غيره : إذا زل العالم زل بزلته عالم

— غيره : الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك

— من لم يحتمل ذل التعلم ساعة ، بقي في ذل الجهل أبدا — ما صين العلم بمثل بذله لأهله .

— من كتم علما فكأنه جاهله

— العلم يمنع أهله أن يمنعوه أهله

— أبو الفتح كشاجم

لا تمنع العلم امرأً والعلمُ يمنع جانبَه
أما الغبي فليس يفـ ـهم لطفهُ وغرائبه
وتكون حاضرة الفوا ئد عنده كالغائبه
وأخو الحصافة مسـ ـتحق أن ينال مطالبه
فبحقه أعطيتهُ من فضل علمك واجبه

— من رق وجهه عند السؤال ، رق علمه عند الرجال

— علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر

— كما لا ينبت المطر الكثير الصخر ، كذلك لا ينفع البليد كثرة التعلم

— من ترفّع بعلمه ، وضعه الله بعمله

— الجاهل صغير وان كان كبيرا ، والعالم كبير وان كان صغيرا

— من أكثر مذاكرة العلماء ، لم ينس ما علم ، واستفاد ما لم يعلم

— ابن المعتز : المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علما ، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء

— إذا علمت فلا تذكر من دونك من الجهال ، واذكر من فوقك من العلماء

— النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن ينقصها ألاّ تجد حطبا ، كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس منه ، وفقد الحاملين له سبب عدمه

— مات خزنة الأموال وهم أحياء ، وعاش خزان العلم وهم أموات

— مثل علم لا ينفع كـكنز لا ينفق منه

— أزهد الناس فى عالم جيرانه

وقيل للصلت بن عطاء وكان مقدماً عند البرامكة : كيف غلبت عليهم وعندهم من هو آدب منك ؟ قال ليس للقرباء ظرافة الغرباء ، وكنت امرءا بعيد الدار ، نائى المزار ، غريب الاسم ، قليل الجرم ، كثير الالتواء ، شحيحا بالاملاء ؛ فرغبهم فىّ رغبتى عنهم ، وزهدنى فيهم رغبتهم فىّ

— علم لا يعبر معك الوادى ، لا يعمر بك النادى

— لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف

— إذا ازدحم الجواب خفى الصواب

— الغلط تحت اللغط

— خرق الاجماع خُرق

— المحجوج بكل شىء ينطق

استعارات فقهية

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس حكمه وأنشده أبياتا يستمطر نائله ، وينشر فضائله ، فقال سيأتيك ثوابها يا أبا تمام ، ثم اشتغل بتوقيعات فى يده ، فأحفظ ذلك أبا تمام ، فقال : احضر أيدك الله فانك غائب ، واجتمع فانك مفترق ، ثم أنشده

إن حراماً قبول مدحتنا   وترك ما نرتجي من الصفَدِ

كالدنانير والدراهم فى الصر   ف حرامٌ إلا يداً بيـدِ

فأمر بتوفير حبائه ، وتعجيل عطائه

ولما ولى طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنونه ، وفيهم تمام ابن أبى تمام فأنشده

هناك رب الناس هنّا كا ... ما من جزيل الملك أعطا كا
قرت بما أعطيتَ ياذا الحجى ... والبأس والانعام عينا كا
أشرقت الأرض بما نِلته ... وأورق العود بجدواكا

فاستضعف الجماعة شعره ، وقالوا : يا بعد ما بينه وبين أبيه ! فقال طاهر لبعض الشعراء أجبه فقال

حياك رب الناس حيا كا ... ان الذى أملت أخطا كا
فقلت قولا فيه ما زانهُ ... ولو رأى مدحا لواسا كا
فهاك ان شئت بها مدحة ... مثل الذى أعطيت أعطا كا

فقال تمام : أعز الله الأمير ، ان الشعر بالشعر ربا ، فاجعل بينهما صنجا من الدراهم ، حتى يحل لى ولك ! فضحك وقال : إلا يكن معه شعر أبيه ، فمعه ظرف أبيه ، أعطوه ثلاثة آلاف درهم . فقال عبد الله بن اسحاق : لو لم يعط إلا لقول أبيه فى الأمير أبى العباس رحمه الله يريد عبد الله بن طاهر

يقول فى قومَسٍ صحبى وقد أخذتْ ... منا السُّرى وخُطا المَهْرِية القُودِ
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجودِ

فقال : ويعطى بهذا ثلاثة آلاف

طاهر بن عبد الله

وكان سبب ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدث به أبو العيناء قال : كنا عند أحمد بن أبى دوَاد فجاء الخبر أن الكتب وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبد الله بن طاهر ، وأن الواثق يعزى عنه ، وأنه قد ولى مكانه خراسان إسحاق بن ابراهيم وكان عدوا له لانخراطه فى سلك ابن الزيات ، فلبس ثيابه ومضى ، وقال لاتبرحوا

حتى أعود إليكم ، فلبث قليلا ثم عاد إلينا فحدثنا أنه دخل على الواثق فعزاه عن عبد الله وجلس ، قال : فقال لى الواثق قد ولينا إسحاق خراسان ، فما عندك ؟ قلت وفق الله أمير المؤمنين ولا نذمه ، قال قل ما عندك فى هذا ، قلت أمر قد أمضى فما عسيت أن أقول فيه ؟ قال لتفعلن ، فقلت يا أمير المؤمنين خراسان منذ ثلاثين سنة فى يد طاهر وابنه ، وكل من بها صنائعهم ، وقد خلف عبدالله عشرة بنين أكثرهم رجال وجميع جيش خراسان لهم عبيد أو موالى أو صنائع ، وسيقولون أما كان فينا مصطنع وكان يجب أن يجربنا أمير المؤمنين ، فان وفينا بما كان يفى به أبونا وجدنا وإلا استبدل منا بعد عذر فينا ، ويقدم خراسان اسحاق وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء ، ويتعصب أهلها لهم ، فينتقض ما أبرم ، ويفسد ما أصلح ، قال صدقت يا أبا عبد الله والرأى ما قلت ، اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان ، فكتبت كتب طاهر ، وحرقت كتب إسحاق ، فخرجت الزنج تطير بها ثم لقينى اسحاق داخلا فقلت يا أبا الحسن لاعدمت عداوة رجل أزال عنك ولاية خراسان بكلمة !

أخيلة فقهية

ومدح ابن الرومى أبا العباس بن ثوابة فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها فقال ابن الرومى

أليس القوافى بنات الفتى ... إذا صورة الحق لم تمسخ
فلا تقبلنّ أماديحه ... حرامٌ نكاح بنات الأخ

ولما أنشد أبو تمام قصيدته فى المعتصم « السيف أصدق أنباء من الكتب »
قال له لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها ، قال يا أمير المؤمنين والله لو كانت من الحور العين لكان حسن اصغائك اليها من أوفى مهورها .

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى

أقول لشادنٍ فى الحسن أضحى ... يصيد بلحظه قلب الكمىّ

ملكت الحسن أجمع فى قوام ... فأدِّ زكاة منظرك البهىِّ
وذلك أن تجود لمستهام ... بريق من مقبلك الشهى
فقال أبو حنيفة لى إمامٌ ... فعندى لا زكاة على الصبىِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى

أقول لشادن فى الحسن فردٍ ... يصيد بلحظه قلب الجليد
ملكت الحسن أجمع فى قوام ... فلا تمنع وجوباً عن وجود
وذلك أن تجود لمستهام ... برشف رضابك العذب البَرود
فقال أبو حنيفة لى إمام ... فعندى لا زكاة على الوليد

وقال :

بنفسى غزالٌ صار للحسن قبلةً ... يُحج من البيت العتيق ويُقصَدُ
دعانى الهوى فيه فلبيت طائعا ... وأحرمت بالإخلاص والسعى يشهد
فطرفىَ بالتسهيد والدمع قارنٌ ... وقلبى عليه بالصبابة مفردُ

وقال أبو الفتح كشاجم

فديت زائرة فى العيد واصلة ... والهجر فى غفلة من ذلك الخبرِ
فلم يزل خدها ركنا أطوف به ... والخال فى خدها يغنى عن الحجرِ

رسالة لبديع الزمان

ويضاف الى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان :

كتابى أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم ، والحمد لله رب العالمين، كيف تقلّب الشيخ فى درع العافية ، وأحواله بتلك الناحية ، فأنى ببعده منغص شرعة العيش ، مقصوص أجنحة الأنس ، وورد كتابه المشتمل من خبر سلامته ، على ما أرغب إلى الله فى إدامته ، وسكنت إليه بعد انزعاجى لتأخره ، وقد كان رسم أن أعرفه سبب خروجى

من جرجان ، ووقوعي بخراسان ، وسبب غضب السلطان ، وقد كانت القصة أني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجاج ، ومستقر الكرم ، لا مَشْعَر الحرم ، وقبلة الصِّلات ، لا قبلة الصلاة ، ومُنى الضَّيف ، لا مِنى الخيف ، وجدت بها ندماء من نبات العام[1] ، اجتمعوا قِيضة كلب[2] على تلفيق خطْب ، أزعجني عن ذلك الفِناء ، وأشرف بي على الفناء ، لولا ما تداركَ الله بجميل صنعه ، وحسن دفعه ، ولا أعلم كيف احتالوا ، ولا ما الذي قالوا ، و بالجملة غيروا رأي السلطان ، فأشار عليَّ إخواني ، بمفارقة مكاني ، و بقيت لا أعلم أيَمنةً أضرب أم شآمة ، ونجداً أقصد أم تهامة

ولو كنت في سلمى أجا وشعابها　　لكان لحجاجٍ عليَّ دليل

وقد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء إذا تغيم لم يرج صحوه ، وماء إذا تغير لم يشرب صفوه ، وملك إذا سخط لم ينتظر عفوه ، وليس بين رضاه والسخط عُرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فُرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز ، فهو سيد يغضبه الجرم الخفي ، ولا يرضيه العذر الجلي ، وتكفيه الجناية وهي إرجاف ، ثم لاتشفيه العقوبة وهي إجحاف ، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح ، ويعمى عن العذر وهو أبين من عمود الصبح ، وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب عن هذه العذر وله برهان ، وذو يدين يبسط أحداها إلى السفك والسفح ، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح أحدهما الى الجرم ، ويغمض الأخرى عن الحلم ، فمزحه بين القدّ والقطع ، وجدّه بين السيف والنطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وأمره بين الكاف والنون . ثم لايعرف من العقاب ، غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدي من التأنيب إلا الى إزالة النعم ، ولا يعلم من التأديب غير إراقة الدم

(١) من نبات العام : يريد أنهم حديثو العهد

(٢) قيضة كلب : القيضة بالكسر هي العظم ، والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الكلب

ولا يحتمل المنة على حجم الذّرة ، ورقة الشعرة ، ولا يحلم عن الهفوة ، كوزن الهبوة ولا يغضى عن السقطة ، كجرم النقطة ، ثم إن النقم بين لفظه وقلمه ، والأرض تحت يده وقدمه ، لا يلقاه الولى إلا بنعمة ، ولا العدو إلا بذمّة ، والارواح بين حبسه وإطلاقه كما أن الأجسام بين حله ووثاقه ، فنظرت فاذا أنا بين جودين : إما أن أجود بياسى ، وإما أن أجود براسى ، وركوبين : إما المفازة ، وإما الجنازة ، وبين طريقين : إما الغربة وإما التربة ، وبين فراقين : إما أن أفارق أرضى ، أو أفارق عرضى ، وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، وإما أعناق الرجال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن . وأنشدت

اذا لم يكن إلا المنية مركبٌ   فلا رأى للمحمول إلا ركوبُها

ولما ذكر من كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ، من قول أبى تمام

بيتان حجهما الانام فهذه   حج الغنىّ وتلكُم للمعدمِ

الفضل بن جعفر البصير

وشتم بعض الطالبيين أبا على الفضل بن جعفر البصير فقال أبو على : والله ما نعيا عن جوابك ، ولا نعجز عن مسابك ، ولكنا نكون خيراً لنسبك منك ونحفظ منه ما أضعت ، فاشكر توفيرنا ما وفرنا منك ، ولا يغرنك بالجهل علينا حلمنا عنك

وسأل أبو على البصير بعض الرؤساء حاجة ولقيه فاعتذر اليه من تأخرها فقال أبو على : فى شكر ما تقدم من إحسانك ، شاغل عن استبطاء ما تأخر منه

وأبو على أحد من جمع له حظ البلاغة فى الموزون والمنثور وهو القائل

ألمّت بنا يوم الرحيل اختلاسةً   فأضرم نيران الهوى النظرُ الخلْسُ

تأبّت قليلا وهى تُرْعد خيفةً   كما تتأبى حين تعتدل الشمس

فخاطبها صمتى بما أنا مضمرٌ   وأبلست حتى ليس يسمع لى حِسُّ

وولّت كما ولى الشباب لطيّةٍ   طوت دونها كشحاً على يأسها النفس

وقال يصف بلاغة الفتح بن خاقان وشعره .

سمعنا بأشعار الملوك فكلها ... اذا عضّ متنيه الثقاف تأودا
سوى مارأينا لامرئ القيس اننا ... نراه متى لم يشعر الفتح أوحدا
أقام زمانا يسمع القول صامتا ... ونحسبه إن رام أكدى وأصلدا
فلما امتطاه راكبا ذل صعبه ... وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

والفتح بن خاقان يقول

وإنى وإياها لكالخمر والفتى ... متى يستطع منها الزيادة يزدد
اذا زدت منها زاد وجدى بقربها ... فكيف احتراسى من هوًى متجدد

رسائله الى عبيد الله بن يحيى

— ١ —

وكتب الى أبى الحسن عبيد الله بن يحيى

وان أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه، وائتمنك على رعيته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصدر عن رأيك ، وكان تفويضه اليك بعد امتحانه إياك ، وتسليطه الحق على الهوى فيك، وبعد أن مثل بينك وبين الذين سموا لمرتبتك، وجروا الى غايتك ، فأسقطهم مضاؤك ، وخفوا فى ميزانك ، ولم يزدك أكرمك الله رفعة وتشريفاً ، الا ازددت له هيبة وتعظيما ؛ ولا تسليطا وتمكينا ، الا زدت نفسك عن الدنيا عزوفاً وتنزيها ؛ ولا تقريبا واختصاصا ، الا ازددت بالعامة رأفة وعليها حدبا، لايخرجك فرط النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده ، ولا القيام بما هو له عن تضمين ما هو عليه ، ولا تشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها ، ولا الجدّ فى صلاح ما يصلح منها عن النظر فى عواقبها ، تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وترجئ ما كان الحزم فى إرجائه ، وتبذل ما كان الفضل فى بذله ، وتمنع ما كانت المصلحة فى منعه ، وتلين فى غير تكبر ، وتخص فى غير ميل ، وتعم

فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحق وان كان عدوا ، ولا يسعد بك المبطل وان كان وليا ، فالسلطان يعتدّ لك من الغناء والكفاية ، والنسب والحياطة ، والنصح والأمانة والعفة والنزاهة ، والنصب فيما أدى الى الراحة ، بما يراك معه حيث انتهى احسانه اليك مستوجبا للزيادة . وكافة الرعية الا من غمط منهم النعمة مثنون عليك بحسن السيرة ، ويُمن النقيبة ، ويعدون من ما ترك انك لم تدحض لأحد حجة ، ولم تدفع حقا لشبهة ، وهذا يسير من كثير لو قصدنا لتفصيله ، لأنفدنا الزمان قبل تحصيله ، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه

— ٢ —

وله الى عبيد الله بن يحيى

يقطعنى عن الأخذ بحظى من لقائك ، وتعريفك ما أنا عليه من شكر انعامك ، وافرادى إياك بالتأميل دون غيرك ، تخلفى عن منزلة الخاصة ، ورغبتى عن الحلول محل العامة ، وانى لست معتاداً للخدمة ولا الملازمة ، ولا قويا على المغاداة والمراوحة ، فلا يمنعك ارتفاع قدرك ، وعلو أمرك ، وما تعانيه من جلائل الأحوال الشاغلة ، من أن تتطول بتجديد ذكرى ، والاصغاء الى من يحضك على وصلى وبرى ، ويرغبك فى إسداء حسن الصنيعة عندى

— ٣ —

وله اليه آخر فصل من كتاب

وأنا أسأل الله الذى رحم العباد بك ، على حين افتقار منهم اليك ، أن يعيذهم من فقدك ، ولا يعيدهم الى المكاره التى استنقذهم منها بيدك

ماتصنع مصر بالرجال

ولقى رجل رجلا خارجا من مصر يريد المغرب ، فقال : يا أخى ! أتتبع القطر ، وتدع مجرى السيول ؟ فقال : أخرجنى من مصر حق مضاع ، وشح مطاع ، و إقتار الكريم ، وحركة اللئيم ، وتغير الصديق ، بين السعة والضيق ، والهرب الى النزر بالعز ، خير من طلب الوفر بذل العجز

آداب المسافر

وأوصى بعض الحكماء صديقاً له وقد أراد سفراً فقال : إنك تدخل بلداً لا تعرفه ولا يعرفك أهله ، فتمسك بوصيتى تنفق بها فيه

عليك بحسن الشمائل فانها تدل على الحرية ، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ونظافة البزة ، فإنها تنبئ عن النشء فى النعمة ، وطيب الرائحة فانها تظهر المروءة ، والأدب الجميل ، فانه يكسب المحبة . وليكن عقلك دون دينك ، وقولك دون فعلك ولباسك دون قدرك ، والزم الحياء والأنفة ، فانك إن استحييت من الغضاضة ، اجتنبت الخساسة ، و إن أنفت عن الغلبة لم يتقدمك نظير فى مرتبة

قال الأصمعى سمعت أعرابيا يوصى آخر أراد سفرا فقال :

آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك قيادك ، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك الى الهدى ، و يجنبك من الردى ؛ واحبس هواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم فانك تبر بذلك سلفك ، وتشيد به شرفك

وأوصت أعرابية ابنها فى سفر فقالت :

يا بنى انك تجاور الغرباء ، وترحل عن الاصدقاء ، ولعلك لا تلقى غير الاعداء ، فخالط الناس بجميل البشر ، واتق الله فى العلانية والسر

وقال بعض الملوك لحكيم وقد أراد سفراً : قفنى على أشياء من حكمتك أعمل بها فى سفرى ، فقال :

اجعل تأنيك أمام عجلتك ، وحلمك رسول شدتك ، وعفوك مالك قدرتك .
وأنا ضامن لك قلوب رعيتك . مالم تحرجهم بالشدة عليهم،أو تبطرهم بالاحسان اليهم

وقال أبان بن تغلب : شهدت اعرابية توصي ولدا لها أراد سفرا وهي تقول :

أي بني ! احلس أمنحك وصيتي . وبالله توفيقك

قال أبان فوقفت مستمعا لكلامها ، مستحسنا لوصيتها ، فاذا هي تقول :

أي بني ! إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلّما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته ، حتى يهي ما اشتد من قوّته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز لئيما فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثّل لنفسك مثال غيرك : فما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودته بشره ، وخالف منه ذلك فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها

ثم أمسكت ، فدنوت منها وقلت لها : بالله يا أعرابية إلاّ ما زدته في الوصية ، قالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا حضَري ؟ قلت نعم ! قالت:

الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلّة رَيطتها و سِربالها

مدح السفر

فقر في مدح السفر

— أبو القاسم بن عباد الصاحب : في الخبر المنقول أن المقبوض غريباً شهيد

— وفي الحديث : سافروا تغنموا

— السفرأحد أسباب العيش التي بها قِوامه ، وعليها نظامه ، إن الله لم يجمع منافع الدنيا في الأرض ، بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض

— المسافر يسمع العجائب ، ويكسب التجارب ، ويجلب المكاسب

— الأسفار مما تزيدك علماً بقدرة الله وحكمته ، وتدعوك إلى شكر نعمته

— ليس بينك و بين بلد نسب ، فخير البلاد ما حملك

— السفر يسفر عن أخلاق الرجال

— أوحش أهلك ، إذا كان في إيحاشهم أنسك ، واهجر وطنك إذا نبت عنه نفسك

— ربما أسفر السفر ، عن الظفر ، وتعذر في الوطن قضاء الوطر

وأنشد

ليس ارتحالك ترتاد الغنى سفراً ــ بل المُقام على خَسْفٍ هو السفر

وهذا كقول الطائي

وما القفر بالبيد القضاء بل التي ــ نبت بي وفيها ساكنوها هي القفرُ

أخذه المتنبي فقال

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ــ أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ذم السفر والغربة

نقيضه ذلك في ذم السفر والغربة

في الحديث : إن المسافر وماله لعلى ، قلت إلا ماوق الله ، أي على هلاك

— شيئان لايعرفهما إلا من ابتلى بهما السفر الشاسع ، والبناء الواسع

— السفر والسقم والقتال : ثلاث متقاربة ، فالسفر سفينة الأذى ، والسقم حريق الجسد ، والقتال منبت المنايا

— اذا كنت في غير بلدك فلا تنس نصيبك من الذل

— الغربة كربة

— النقلة مثلة

— الغريب كالغرس الذى زايل أرضه ، وفقد شربه ، فهو ذاو لايثمر ، وذابل لاينضر

— الغريب كالوحش النائي عن وطنه ، فهو لكل سبع فريسة ، ولكل رام رمية ،

وأنشد

لَقربُ الدار فى الإقتار خيرٌ   من العيش الموسّع فى اغتراب

وقال أبو الفتح البستى :

لايعدَم المرء شيئاً يستعين بهِ   ومُتعةً بين أهليه وأصحابهْ
ومن نأى عنهمُ قلّتْ مهابته   كالليث يحقر لماغاب عن غابه

أبو عبيد الله

كتب أبو عبيد الله الى المهدى بعد عزله إياه عن الدواوين :

لم ينكر أمير المؤمنين حالى فى قرب المؤانسة وخصوص الخلطة من حالى عنده قبل ذلك فى قيامى بواجب خدمته ، التى أدنتنى من نعمته ، ووطدت لقدمى من كرامته ، فلم لاأبدل أعز الله أمير المؤمنين حال التبعيد ، وأقرب فى محل الاقصاء ، وما يعلم الله منى فيما قلت الا ماعلمه أمير المؤمنين ، فان رأى أكرمه الله أن يعارض قولى بعلمه بدءا وعاقبة فعل ان شاء الله .

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبه فقال : ظلمنا أبا عبيد الله فليرد الى حاله ويعلم ماتجدد له من حسن رأيي فيه

الفضل بن الربيع

ولما أمر المأمون أن يحجب عنه الفضل بن الربيع لسبب تألم قلبه منه كتب اليه :

ياأمير المؤمنين ! لم ينسنى التقريب ، حالى أيام التبعيد ، ولاأغفلتنى المؤانسة عن

شكر الابتداء ، فعلى أى الحالين أبعد من أمير المؤمنين ، ويلحقنى ذم التقصير فى واجب خدمته ؟ وأمير المؤمنين أعدل شهودى على الصدق فيما وصفت، فان رأى أمير المؤمنين أن لايكتم شهادتى فعل إن شاء الله

أبو مسلم

وقال أبو جعفر المنصور لأبى مسلم حين أزمع على قتله هل كنت قبل قيامك بدولتنا جائز الامر على عبدين ؟ قال لا ياأمير المؤمنين ، قال فلم لم تعرض حالىَّ عُسرتك ومهانتك على أيامنا ، وتعرف لنا مايعرف غيرك من اجلالنا و إعظامنا حتى لاينازعك الحين عنان الطمأنينة ؟ قال قد كان ذلك ياأمير المؤمنين ، ولكن الزمان و إساءته قلبا ما كان من حسن صنيعتى ، قال : فلامرغوب فيك ، ولامأسوف عليك ، وفى الله خلفٌ منك! وأمر بقتله[1]

(١) انظر واجبات الملوك فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى »

شعر كشاجم

١

أجزاء القرآن

١ - جملة من شعر أبي الفتح كشاجم في الأوصاف : قال يصف أجزاء من القرآن

من يتب خشية العقاب فإني ... تُبْتُ أنساً بهذه الأجزاء
بعثتني على القراءة والنسـ ... ـك وما خلتني من القرّاء
حين جاءت تروقني باعتدالٍ ... من قدود وصيغةٍ واستواء
سبعة أشبهت لي السبعة الأنجـ ... ـم ذات الأنوار والأضواء (١)
كُسِيَتْ من أديمها الحالك اللو ... ن (٢) غشاء أحبب به من غشاء
مشبهات صبغ الشباب ولِمَّا ... ت العذارى ولبسة الخطباء
ورأت أنها تحسّن بالضد ... فتاهت بحليةٍ بيضاء
فهي مسودّةُ الظهور وفيها ... نورُ حق يجلو دجى الظلماء
مطبقات على صحائف كالريـ ... ـط تخيرن من مُسوك الظباء (٣)
وكأن الخطوط فيها رياضٌ ... شاكرات صنيعة الأنواء
وكأن البياض والنقط السو ... د عبير رششته في ملاء
وكأن العشور والذهب السا ... طع فيها كواكبٌ في سماء
وهي مشكولةٌ بعدة أشكا ... لٍ ومقروءةٌ على أنحاء
فإذا شئت كان حمزة فيها ... وإذا شئت كان فيها الكسائي

---

(١) رواية الديوان :

سبعة شبهت بها الأنجم السـ ... ـبعة ذات الأنوار والأضواء

(٢) رواية الديوان « الجون »

(٣) المسوك جمع مسك بالفتح وهو الجلد ، ورواية الديوان « متون »

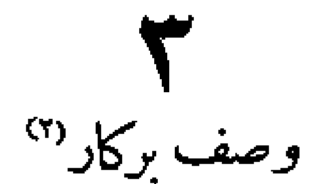
خضرةٌ فى خلالِ حُمرٍ وصُفرٍ ... بين تلك الأضعاف والأثناء
مثل ما أثّر الدبيب من الذر ... على جلد بَضّةٍ عَـذْراء(١)
ضمّنت محكم الكتاب كتاب الله ... ذى المكرُمات والآلاء
لحقيق علىّ أن أتلوَ القرآ ... ن فيهن مُصْبِحى ومسائى



وصف تخت

وقال يصف التخت الذى يضرب عليه حساب الهند

وقلمٍ مـدادُهُ ترابُ ... فى صُحُفٍ سطورُها حساب
يكثر فيها المحو والاضرابُ ... من غير أن يسوّد الكتابُ
حتى يبينَ الحق والصواب ... وليس إعجامٌ ولا إعرابُ
فيه ولا شكٌّ ولا ارتيابُ



وصف بركار(٢)

وقال يصف بركار استهداه

جد لى ببركارك الذى صنعت ... فيـه يدا قينه(٣) الأعاجيبا
ملتئم الشُّعبتين(٤) معتدلٌ ... ماشين من جانبٍ ولاعيبا
شخصان فى شكل واحد قُدِرا ... وركبا بالعقول تركيبا

(١) رواية الديوان « غضة غيداء »
(٢) هو البرجل
(٣) رواية الديوان « القين »
(٤) رواية الديوان « الشفرتين »

أشبه شيئين فى اشتكالها[١] بصاحب لايزال مصحوبا
أوثق مسماره وغيّب عن نواظر الناقدين تغييبا
فمن من يجتليه يحسبهُ فى قالب الإعتدال مصبوبا
قد ضم قُطريه[٢] محبكا لها ضم محبٍ إليه محبوبا
يزداد حرصا عليه مُبصِرُه ما زاده بالبنان تقليبا
ذو مقلة بصرة مذهّبة[٣] لم تأله رقةً وتهذيبا
ينظر فيها الى الصواب فما بها يزال الصواب مطلوبا
لولاه ماصح خط[٤] دائرةٍ ولا وجدنا الحساب محسوبا
العدل فيه فان عدلت إلى سواه كان الحسان تعريبا
لوعين إقليدسٍ به بصرت خرّ له بالسجود مكبوبا
فابعثه واجنبه لى بمسطرة تلف الهوى بالثناء مجنوبا

٤

وصف بيكات

وقال يصف بيكانا

روح من الماء فى جسم من الصفرِ مولّد بلطيف الحسن والنظرِ
مستعبرٌ لم يغب عن طرفه سكنٌ ولم يبت من ذوى ضغن على حذرِ
له على الطهر أجفان محجرةٌ ومقلة دمعها جارٍ على قدرِ
ينتمى له حركات من أسافلهِ كأنها حركات الماء فى الشجرِ

---

(١) رواية الديوان « ائتلافهما »

(٢) فى الديوان « شطريه »

(٣) فى الأصل (منسبة) والتصحيح عن الديوان

(٤) فى الديوان « شكل »

وفى أعاليه حسبانٌ يفصله ... الناظرين بلا ذهن ولا فِكَرِ
إذا بكى دارٌ لى أحشائه فلكٌ ... جافى المسير وإن لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنا ... بها فيوجَد فيها صادقَ الخبر
تقضى بها الخمس فى وقت الوجوب وان ... غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرت لأوقات تؤرقني ... عرفت مقدار ما ألقى من السهر
مجـدّد كل ميقات تخيّره ... ذوو التخيُّر للأسفار والحضرِ
ومخرج لك بالأجزاء ألطفها ... من النهار وقوس الليل والسحر
نتيجة العلم والتفكير صورته ... ياحبذا بِدَعِ الأفكار فى الصورِ

٥

وصف اسطرلاب

وقال يصف اسطرلابا

ومستدير كجرم البدر مسطوحٍ ... عن كل رافعة الأشكال مصفوحِ
صُلْب يدار على قطب يثبتهُ ... تمثال طرف بشكم الحذق مكبوحِ
ملء البنان وقد أوفت صفائحهُ ... على الأقاليم من أقطارها الفيح (١)
تلقى به السبعة الافلاك محدِقةً ... بالماء والنار والأرضين والريحِ
تنبيك عن طائع الأبراج هيئتهُ ... بالشمس طوراً وطوراً بالمصابيح
وان مضت ساعة أو بعض ثانيةٍ ... عرفت ذاك بعلم فيه مشروحِ
وان تعرّض فى وقتٍ يقدّرهُ ... لك التشكّك جلاّهُ بتصحيحِ
مميز فى قياسات الطلوع به ... بين المشائم منها والمناجيح
له على الظهر عينا حكمة بهما ... يحوى الضياء وتجنيه من اللوح
وفى الدواوين من أشكاله حِكَمٌ ... تنقح العقل فيها أىّ تنقيح

(١) الفيح : الواسعة . جمع أفيح أو فيحاء

لا يستقل لما فيه بمعرفة الا الحصيف اللطيف الحس والروح
حتى ترى الغيب فيه وهو منغلق الأ بواب عمن سواه جد مفتوح
نتيجة الذهن والتفكير صورة ذوو العقول الصحيحات المراجيح

أبو اسحاق الصابى

وكان أبو شجاع فنا خسرو عضد الدولة قد نكب أبا اسحاق الصابى ، على تقدمه فى الكتابة ، ومكانه فى البلاغة ، واستصفى أمواله من غير ايقاع به فى نفسه ، فأهدى اليه فى يوم مهرجان اسطرلابا فى دور الدرهم وكتب اليه

أهدى اليك بنو الحاجات واحتشدوا فى مهرجان عظيم أنت تعليه
لكن عبدك ابراهيم حين رأى سمو قدرك عن شئ يساميه
لم يرض بالأرض يهديها اليك فقد أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وصف الهن

وقول أبى الفتح (ملء البنان) البيت نظير قول على بن العباس الرومى يصف هن امرأة(١)

يسع السبعة الأقاليم طرا وهو فى أصبعين من إقليم
كضمير الفؤاد يلتهم الدنـ يا وتحويه دفتا حيزوم

وانما أخذه ابن الرومى من قول بعض الشعراء يذكر كاتبا

فى كفه أخرس ذو منطق بقافه واللام والميم
شبر إذا قيس ولكنه فى فعله مثل الأقاليم
محذف الرأس ومسوده كابرة الروق من الريم(٢)

(١) الهن : الفرج
(٢) روق الريم : قرن الظبى

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدي بن الرقاع العاملي وقد وصف قرن ريم وشبهه بقلم عليه مداد وذكر ظبية

تزجي أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وقلب المعنى إذا تمكن الشاعر من إخفائه لا يجرى مجرى السرقة

أوراك العذارى

وقد ترى تكثير الشعراء من تشبيه أوراك النسوان بالرمل والكثبان ، قال الشاعر

وبيض نضيرات الوجوه كأنما تأزرن دون الأزر رملات عالج
خدال الشوى لا تحتشي غير خلقها إذا الوشح لم يصبرن دون المنافج (١)
يذرن مروط الخز ملأى كأنها قصار وإن طالت بأيدي النواسج

وهذا المعنى متداول متناقل في الجاهلية والاسلام ، فأغرب ذو الرمة في قلبه وأحسن ، فقال يصف رملا

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس

وكذلك مدحهم ضمور الكشح ، وجولان الوشح ، وصموت القلب والخلخال وامتناع الخدام من المجال ، قال خالد بن يزيد بن معاوية وذكر رملة بنت الزبير ابن العوام

تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالاً يجول ولا قلبا (٢)
أحب بني العوام طراً لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وقال النابغة

على أن حجليها وان قلت أوسعا صموتان من ملء وقلة منطق

---

(١) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف . والوسح جمع رسحاء وهي قليلة لحم العجز والفخذين . والمنافج حشايا توضع فوق الأرداف

(٢) القلب بالضم السوار

[illegible]

مَهَا الوحش إلا أن هاتا أوانسٌ قنا الخط إلا أن تلك ذوابلُ
من الهِيف لو أن الخلاخيل صيرتْ لها وشحاً جالتْ عليها الخلاخل (١)

وقال ابن أبي زرعة الدمشقي

استكتمت خلخالها ومشت تحت الظلام به فما نطقا
حتّى اذا ريح الصبا نَسَمَتْ ملأ العبير بسيرها الطرقا

قلب المعانى

وقال المتنبي

وخصرٍ تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قلب هذا كله أبو عثمان الناجم فقال يهجو قينة

مسلولة الكل غير بطنٍ مثقَّلٍ فهى عنكبوتْ
حُجولها الدهر في اصطخابٍ ووُشحها كظَّمٌ صُمُوتُ

وقال أبو عثمان يمدح قينة

محسنة في كل ألحانها لا كالتى تحسن في النُّدره

ثم قلبه فى هجاء فقال

عجبت منها ويحها كيف لا تخطىء بالاحسان فى النُّدرة

وهذا مأخوذ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق ، وكان قد تقلد قضاء البصرة

يا عجبا من خالد كيف لا يخطىء فينا مرةً بالصوابْ
كان قضاة الناس فيما مضى من رحمة الله وهذا عذاب

(١) الوشح : بضمتين جمع وشاح

وهذا أيضاً من قلب الهجاء مديحا ، والمديح هجاء ، كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوما

قبُحت مناظرهم بحين خبرتهُمْ حسُنت مناظرهم بقبح المخبَرِ

قلبه أبو الطيب المتنبي فقال

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغّر الخبر الخُبْرُ

وقال أبو تمام

عبأ الكمين له فصلّ لحينه وكمينه المخفى عليه كمينُ

قلبه البحترى فقال

لا ييأس المرء أن ينجيه ما يحسب الناس أنه عطبه

وقال أبو تمام

وحشيةٌ ترمى القلوب إذا غدت وسْنى فما تصطاد غير الصّيدِ

قلبه البحترى فقال

على أننى أخشى على دار أمنها فوارس يصطاد الفوارس صِيدها

وقال أبو تمام

يشنأ الغيث وهو جدٌّ حبيبٍ رب حزم فى بغضة الموموقِ

قلبه البحترى فقال

يسرنى الشىء قد يسوءكُمُ نوّه يوماً بخامل لَقَبُهْ

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر · المعنى فى المصراع الأول أبين منه فى الثانى ، ألا ترى أنه لو قال : إنه ليسوءك الشىء قد يسرك ، كان مثل ذلك للمعنى مستويا ، إلا أنه قلبه لحاجته ، قال ابن الرومى يهجو مغنية

قينة ملعونهٌ من أجلها رفض اللهو معاً من رفضَه

فاذا غنّت ترى فى حلقها كل عرق مثل بيت الأرَضَه

فقلبه ابن المعتز فقال يصف أرضة أكلت له كتابا

تثني أنابيب لها فيها سبل مثل العروق لا ترى فيها خلل

وهذا كثير يكتفى منه باليسير

ومن المعانى مالا ينقلب : ألا ترى أنك تقول نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول ماتوا حتى كأنهم نيام، وقد أخذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف بها

كأنها إذ خرستْ جارمٌ بين يدىْ تفنيدِه مُطرِق

قالوا إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجته بالدار الخالية التى لا تجيب ، وأخذوا عليه قوله

كأن نيراننا فى جنب حصنهمُ معصفراتٌ على أرسان قصّارِ

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الافشين لما أحرق

مازال سرُّ الكفر بين ضلوعهِ حتى اصطلى سر الزناد الوارى

نارٌ يساور جسمه من حرها لهبٌ كما عصفرتَ شِق إزارِ

طارت له شُعَلٌ يهدّم لفحها أركانَهُ هدما بغير غبارِ

فصّلن منه كل مجمع منصل وفعلن فاقرةً بكل فقارِ

صلّى لها حيًّا وكان وَقُودَها ميْتاً ويدخلها مع الكفارِ

وكذاك أهل النار فى الدنيا همُ يوم القيامة جُلُّ أهل النارِ

أردت البيت الثانى ، قالوا وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار ، فهذا وما أشبهه لا يتوازن انعكاسه ، وتتضاد قضاياه . وإنما يصح القلب فيما يتحقق تضاده أو يتقارب

ذكر النجوم

قطعة من شعر أهل العصر فى ذكر النجوم

قال أبو الفتح البستى :

قد غضّ من أملى أنى أرى عملى أقوى من المشترى فى أوّل الحملِ

وأننى راحلٌ عما أحاولهُ كأننى أستدرُّ الحظ من زُحلِ

وقال :

اذا غدا ملكٌ باللهو مشتغلاً فاحكم على ملكه بالويل والحَرَبِ
ألم تر الشمس فى الميزان هابطةً لما غدا برجَ نجم اللهو والطربِ

وقال :

وقد تدنى الملوك لدى رضاها وتبعد حين تحتقد احتقادا
كما المريخ فى التثليث يعطى وفى التربيع يسلب ما أفادا

وقال :

ألا فثقوا بى فانى كما تمدحت فليمتحن من يُحبْ
فما كوكبى راجعاً فى الوفاء ولا بُرْجُ قلبىَ بالمنقلبْ

وقال :

لئن كسفونا بلا علةٍ وفازت قِداحُهُمُ بالظفَرْ
فقد يكسف المرء من دونه كما يكسف الشمسَ جِرم القمَر

وقال :

شرف الوغد بوغد مثلهِ مثل مافيه بزيغ وخلل
ودليل الصدق فيما قلتهُ شرف المريخ فى بيت زُحل

وقال :

قل للذى غرته عزّة ملكهِ حتى أخل بطاعة النصحاءِ
شرف الملوك بعلمهم و برأيهم وكذاك أَوْج الشمس فى الجوزاءِ

وقال :

وقد يفسد المرء بعد الصلاحْ فسادَ الأماكن والشرُّ يعدى
كما السعد يقبل طبع النحوس إذا كان فى موضع غير سعد

وقال :

ما أنسُ ظمآنٍ بماء باردٍ من بعد طول العهد بالموارد

إلا كأنسى بكتابٍ واردٍ   من سيدٍ محض النجار ماجدِ
كأنما استملاه من عُطارد

وقال :

يامعشر الكتاب لا تتعرّضوا   لرياسةٍ وتصاغروا وتخادموا
إن الكواكب كُنَّ فى أشرافها   إلا عطارد حين صُوِّر آدمْ

وقال :

دعانى الى بيته سيدٌ   له الخُلق الأشرفُ الأظرفُ
فلازمت بيتى ولاطفتهُ   بعذر هو الأظرف الألطفُ
عطارد نجمى ولا شك أنّ   عطارد فى بيته أشرفُ

وقال :

لئن تنقّلتُ من دارٍ إلى دارِ   وصرت بعد ثواء رهنَ أسفارِ
فالحر حرٌ عزيز النفس حيث ثوى   والشمس فى كل برجٍ ذات أنوار

وقال :

لئن صدّع الدهر المشتت شملنا   وللدهر حكمٌ للجميع صدُوعُ
فللنجم من بعد الرجوع استقامةٌ   وللشمس من بعد الغروب طلوعُ

وقال لمحبوس :

حبست ومن بعد الكسوف تبلّجٌ   تضيء به الآفاق للبدر والشمسِ
فلا تعتقد للحبس غمّاً ووحشةً   فأول كون المرء فى أضيق الحبسِ

وقال أيضاً :

يامن تولى المشترى تدبيرهُ   حاشاك أن تنقاد للمرّيخِ

وقال :

لا تفزعنْ من كل شيءٍ مفزعٍ   ما كل تدبير البروج بضائرِ

وقال يرثى أبا القاسم الصاحب

فقدناهُ لما تمّ واعتمّ بالعلى   كذاك كسوف البدر عند تمامهِ

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست لأبي الفضل الميكالى

إذا ماغاب وجه البدر عنا　　فوجهك عندنا البدر المقيمُ
فان رجعتْ نجوم السعد يوماً　　فوجهك نجم سعدٍ مستقيمُ

وقال مسكويه الخالدى :

لا يعجبنَّك حسن القصر تنزلُهُ　　فضيلة الشمس ليست فى منازلها
لو زيدت الشمس فى أبراجها مائة　　ما زاد ذلك شيئاً فى فضائلها

وقال أبو بكر الخوارزمى :

رأيتك إن أيسرتَ خيَّمت عندنا　　لزاماً وان أعسرت زرت لماما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه　　أغب وان زاد الضياء أقاما

وهذا كقول ابراهيم بن العباس الصولى فى محمد بن عبد الملك الزيات

أسدٌ ضار إذا مانعتَهُ　　وأبٌ برٌّ إذا ما قدرا
يعرف الأبعد إن أثرى ولا　　يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

وقال ابن المعتز :

إذا ما أراد الحاسدون انهدامهُ　　بناه إلٰهٌ غالبُ العز قاهرُهْ
وماذا يريد الحاسدون من امرىءٍ　　تزينهمُ أخلاقهُ ومآثره
إذا ماهو استغنى اهتدى لافتقارهم　　ولا تهتدى يوماً اليهم مفاقرهْ
وكانوا كرام كوكبا ببصاقهِ　　فرُدَّ عليهم وبله ومواطِرُهْ

وهذا البيت كما قال بعض العرب فى إحدى الروايات

رمانى بأمر كنت منه ووالدى　　بريئاً ومن جال الطوىِّ رمانى

الجول والجال : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد رمانى بما عاد عليه ، والرواية المشهورة ومن أجل الطوى ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه و بين قول ابن المعتز

الاصمعي وبعض الاعراب

قال بعض الرواة كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي في رياض من المذاكرة نجتني ثمارها، ونجتلي أنوارها، إلى أن أفضنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي فقال: رحم الله الأصمعي انه لمعدن حكم، وبحر علم، غير أنه لم نر قط مثل أعرابي وقف بنا فسلم فقال أيكم الأصمعي؟ فقال أنا ذاك، فقال أتأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حسن أدبه، مع جفاء أدب الأعراب. قال يا أصمعي أنت الذي يزعم هؤلاء النفر أنك أثقبهم معرفة بالشعر والعربية، وحكايات الاعراب؟ قال الأصمعي: فيهم من هو أعلم مني، ومن هو دوني. قال أفلا تنشدوني من بعض شعر أهل الحضر، حتى أقيسه على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعرا لرجل امتدح به مسلمة ابن عبدالملك

أمسلم أنت البحر إن جاء وارد ... وليث إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهندواني ان غدت ... حوادث من حرب يعب عبابها
وما خلقت أكرومة في امرىء له ... ولا غاية إلا اليك مآبها
كأنك ديان عليها موكل ... بها وعلى كفيك يجري حسابها
اليك رحلنا العيس إذ لم نجد لها ... أخا ثقة يرجى لديه ثوابها

قال فتبسم الأعرابي، وهز رأسه، فظننا أن ذلك لاستحسانه الشعر، ثم قال يا أصمعي هذا شعر مهلهل خلق النسج، خطؤه أكثر من صوابه، يغطي عيوبه حسن الروي، ورواية المنشد: يشبهون الملك اذا امتدح بالأسد، والأسد أبخر شتيم المنظر[1] وربما طرده شرذمة من إمائنا، وتلاعب به صبياننا، ويشبهونه بالبحر، والبحر صعب على من ركبه، مر على من شربه، وبالسيف وربما خان في الحقيقة، ونبا عند الضريبة، ألا أنشدتني كما قال صبي من حينا! قال الأصمعي وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده:

(١) شتيم المنظر: كريهه

إذا سألت الورى عن كل مكرمةٍ ... لم يُعزَ إكرامها إلا الى الهوْلِ

فتى جوادٌ أذاب المال نائله ... فالنيل يشكر منه كثرة النيْلِ

الموت يكره أن يلقى منيته ... فى كرّهِ عند لف الخيل بالخيلِ

لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفةً ... أو زاحم الصمّ ألجأها الى الميْلِ

أمضى من النجم إن نابته نائبةٌ ... وعند أعدائه أجرى من السيْلِ

لا يستريح الى الدنيا وزينتها ... ولا تراه اليها ساحبَ الذيل

يقصّر المجد عنه فى مكارمهِ ... كما يقصر عن أفعاله قولى

قال أبو نصر فأبهتنا والله ما سمعنا من قوله ، قال فتأنى الاعرابى ثم قال للاصمعى: ألا تنشدنى شعراً ترتاح اليه النفس ويسكن اليه القلب ؟ فأنشده لابن الرقاع العاملى :

وناعمةٍ تجلو بعود أراكةٍ ... مؤشّرة يسبى المعانق طيبها

كأن بها خمراً بماء غمامةٍ ... إذا ارتشفت بعد الرقاد غُروبها

أراك الى نجد تحنُّ وانما ... مُنى كلّ نفس حيث كان حبيبها

فتبسم الاعرابى وقال : يا أصمعى ما هذا بدون الأول ، ولا فوقه ، ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى : وما قلت جُعلتُ فداك ؟ فأنشده :

تعلقتها بكراً وعُلّقت حبها ... فقلبيَ عن كل الورى فارغٌ بِكْرُ

إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها ... وتكفيك ضوء البدر إن حُجب البدر

وما الصبر عنها ان صبرت وجدتُه ... جميلا وهل فى مثلها يحسن الصبر

وحسبك من خمر يفوتك ريقها ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمر

ولو أن جلد الذّر لامس جلدها ... لكان للمس الذّر فى جلدها أثْرُ

ولو لم يكن للبدر ضداً جمالها ... وتفضله فى حسنها لصفا البدر

قال أبو نصر فقال لنا الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدى فى رقاق الأكباد ! قال وأقام عندنا شهرا فجمع له الأصمعى خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحين بعد الحين ، حتى مات الأصمعى وتفرّق أصحابنا

كلام الاعراب

نقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة :

قال الجاحظ : ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الاسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولاأجود تقويما للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الفصحاء

قال ابن المقفع وقد جرى ذكر الشعر وفضيلته : أى حكمة تكون أبلغ ، أو أحسن ، أو أغرب ، أو أعجب ، من غلام بدوى لم ير ريفا ، ولم يشبع من طعام ، يستوحش من الكلام ، ويفزع من البشر ، ويأوي الى القفر ، واليرابيع ، والظباء ، وقد خالط الغيلان ، وأنس بالجان ، فاذا قال الشعر وصف مالم يره ، ولم يغذ به[1] ، ولم يعرفه ، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها ، ويمدح ، ويهجو ، ويذم ، ويعاتب ، ويشبب ، ويقول ما يكتب عنه ، ويروى له ، ويبقى عليه

وقال بعض الاعراب :

وانى لأهدى بالاوانس كالدمى ⁂ وانى بأطراف القنا للعوب
وانى على ما كان من عنجهيتى ⁂ ولوثة أعرابيتى لأديب[2]

كأن الأدب غريب من الأعراب ، فافتخر بما عنده منه

وقال الطائى فى فطنتهم يستعطف مالك بن طوق على قومه بنى تغلب

لا رقة الحضر اللطيف غذتهم ⁂ وتباعدوا عن فطنة الأعراب
فاذا كشفتهم وجدت لديهم ⁂ كرم النفوس وقلة الآداب

ووصف أعرابى رجلا فقال : هو أطهر من الماء وأرق طباعا من الهواء ، وأمضى من السيل وأهدى من النجم

ووصف اعرابى رجلا فقال : ذاك والله من ينفع سلمه ، ويتواصف حلمه ، ولا يستمرأ ظلمه

(١) فى طبعة بولاق « ولم يعهده »
(٢) العنجهية واللوثة : الكبر والحمق

وقال أعرابى : جلست الى قوم من أهل بغداد فما رأيت أرجح من أحلامهم ، ولا أطيش من أقلامهم

وذكر أعرابى من بنى كلاب رجلا فقال : كان والله الفهم منه ذا أذنين ، والجواب ذا لسانين ، ولم أر أحدا أرتق لخلل رأى ، ولا أبعد مسافة روية ، ومَراد طرف منه ، إنما كان يرمى بهمته حيث أشار اليه الكرم ، وما زال يتحسّى مرارة أخلاق الاخوان ، ويسقيهم عذوبة أخلاقه

وذكر أعرابى رجلا فقال : والله لكأن القلوب والألسن ريضت له ، فما تعقد إلا على وده ، ولا تنطق إلا بحمده

وقال أعرابى : أقبح أعمال المقتدرين الانتقام ، وما استُنبط الصواب بمثل المشاورة ، ولا اكتُسبت البغضاء بمثل الكبر

قال الأصمعى : وخطبنا أعرابى بالبادية فقال :

أيها الناس إن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذوا من مفرّكم لمقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم .

قال المعافر بن نعيم : وقفت أنا ومعبد بن طوق العنبرى على مجلس لبنى العنبر وأنا على ناقة وهو على حمار . فقاموا فبدءونى فسلموا علىّ ، ثم انكفئوا على معبد فقبض يده عنهم ، وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، و بالمولى قبل العربى ، و بالمفحَم قبل الشاعر . فأسكت القوم فانبرى اليه غلام فقال : بدأنا بالكاتب ، قبل الأمى ، و بالمهاجر قبل الاعرابى ، و براكب الراحلة قبل راكب الحمار !

ووصف أعرابى قومه فقال : ليوث حرب ، وغيوث جدب ، إن قاتلوا أبلوا ، وإن بذلوا أغنوا

ووصف أعرابى قوما فقال : إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، و إذا تصافحوا بالسيوف فغر فه الحمام

وسئل أعرابي عن صديق له فقال : صفرت عياب الود بيني و بينه بعد امتلائها(١) واكفهرت وجوه كانت بمائها .

وقال الأصمعي سمعت أعرابيا يقول : إن الآمال قطعت أعناق الرجال ، كالسراب غر من رآه ، وأخلف من رجاه ، ومن كان الليل والنهار مطيته ، أسرعا السير والبلوغ به

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجلِ

وذكر اعرابي مصيبة نالته فقال : انها والله مصيبة جعلت سود الرءوس بيضاً ، و بيض الوجوه سوداً ، وهونت المصائب ، وشيبت الذوائب .

وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدي

رمى الحدثان نسوة آل حربٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا (٢)
فردّ شعورهن السُّود بيضاً وردّ وجوههنّ البيض سُودا
و إنك لو رأيت بكاء هندٍ ورملة اذ تصكّان الخدودا
بكيت بكاء مُعْوِلةٍ حزين أصاب الدهر واحدها الفقيدا

ونظير هذا التطابق بين السواد والبياض وان لم يكن من هـذا المعنى قول ابن الرومي :

يابياض المشيب سوّدت وجهي عند بيض الوجوه سود القرونِ
فلعمري لأخفينّك جهدي عن عياني وعن عِيان العيونِ
ولعمري لأمنعنك أن تضـ حك في وجه آسف محزونِ
بسوادٍ فيـه ابيضاضٌ لوجهي وسواد لوجهك الملعون

سأل أعرابيان رجلا فحرمهما فقال أحدهما لصاحبه : نزلت والله بواد غير ممطور ، وأتيت رجلا بك غير مسرور ، فلم تدرك ماسألت ، ولا نلت ما أملت ، فارتحل بندم أو أقم على عدم

(١) صفرت : خلت
(٢) سمدن له : تلوت له رؤوسهن

قال الأصمعي وسمعت أعرابيا يقول : غفلنا ولم يغفل الدهر عنا ، فلم نتعظ بغيرنا حتى وعظ غيرنا بنا ، فقد أدركت السعادة من تنبه ، وأدركت الشقاوة من غفل ، وكفى بالتجربة واعظا

وقال أعرابي لرجل : اشكر للمنعم عليك ، وأنعم على الشاكر لك ، تستوجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مناصحته

ومدح أعرابي رجلا فقال : ذلك والله فسيح الأدب ، مستحكم السبب ، من أي أقطاره أتيته ، تثنى عليه بكرم فعال ، وحسن مقال

وذم أعرابي رجلا فقال : أفسد آخرته بصلاح دنياه ، ففارق ما أصلح غير راجع اليه ، وقدم على ما أفسد غير منتقل عنه ، ولو صدق رجل نفسه ما كذبته ، ولو ألقى زمامه أوطأه راحلته

وقال أعرابي : خرجت حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت أرجلها ، فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر

وقال أعرابي

وقد تعاللت ذميل العنس بالسوط في ديمومة كالترس

إذ عرج الليل بروج الشمس

ومن مليح الاستعارة في نحو هذا قول الحسن بن وهب :

شربت البارحة على وجه الجوزاء ، فلما انتبه الفجر نمت ، فما عقلت حتى لحفني قميص الشمس

وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره : قل إن شاء الله ، فانها ترضي الرب ، وتسخط الشيطان ، وتذهب الحنث ، وتقضي الحاجة

وروى العتبي عن أبيه قال سمعت أعرابيا يقول لأخيه في معاتبة جرت بينهما :

أما والله لرب يوم كتنور الطاهي ، رقاص بالحامة ، قد رميت نفسي في أجيج سمومه ، أحتمل منه ما أكره لما أحب

قال أبو العباس محمد بن يزيد وأحسب العتبى صنع هذا الـكلام وأخذه من قول بشار

ويوم كتنور الإماء سجرنهُ وأوقدن فيه الجزل حتى تضرّما
رميت بنفسى فى أجيج سَمومهِ وبالعِيس حتى بضّ منخرها دما

أخذ هذا المعنى بعض أصحاب أبى العباس ثعلب فقال يهجو المبرد

ويوم كتنور الطهاة سجرنهُ على أنه منه أحرّ وأوقدُ
ظللت به عند المبرد جالساً فما زلت فى ألفاظه أتبرّدُ

أحزان الثواكل

قال الأصمعى : حجت أعرابية ومعها ابن لها فأصيبت به ، فلما دفن قامت على قبره وهى موجعة فقالت : والله يا بنى لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكأنه لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فأصبحت بعد النضارة والغضارة ، ورونق الحياة والتنسّم فى طيب روائحها ، تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ، ورفاتاً سحيقاً، وصعيداً جُرُزاً

أى بنى ! لقد سحبت الدنيا عليك أذيال الفنا ، وأسكنتك دار البلى ، ورمتنى بعدك نكبة الردى

أى بنى ! لقد أسفر لى وجه الدنيا عن صباح داج ظلامه

ثم قالت : أى رب ومنك العدل ، ومن خلقك الجور ، وهبته لى قرة عين ، فلم تمتعنى به كثيراً، بل سلبتنيه وشيكا ، ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدتنى عليه الأجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك ، فرحم الله من ترحّم على من استودعته الردم ووسدته الثرى ! اللهم ارحم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته يوم تكشف الهنات والسوآت !

فلما أرادت الرجوع الى أهلها وقفت على قبره فقالت :

أى بنى ! إنى قد تزودت لسفرى ، فليت شعرى ما زادك لبعد طريقك ، ويوم

معادك ، اللهم إني أسألك له الرضى برضائي عنه

ثم قالت : أستودعك من استودعنيك في أحشائي جنيناً ، واثكل الوالدات ! ما أمضّ حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأشد وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان !

فلم تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز وجل واسترجعت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت

وأنشد المفضل الضبي لامرأة من العرب توفي ابنا لها

يا عمرو مالي عنك من صبر ... يا عمرو يا أسفي على عمرو

لله يا عمرو وأي فتى ... كفنت يوم وضعت في القبر

أحثو التراب على مفارقه ... وعلى غضارة وجهه النضر (١)

حين استوى وعلا الشباب به ... و بدا منير الوجه كالبدر

ورجا أقاربه منافعه ... ورأوا شمائل سيد غمر (٢)

وأهمه همي فساوره ... وغدامع الغادين في السفر

تغدو به شقراء سامية ... مرطى الجراء شديدة الأسر (٣)

ثبت الجنان به ويقدمها ... فلج يقلب مقلتي صقر (٤)

ربيته دهراً أفتقه ... في اليسر أغذوه وفي العسر

حتى إذا التأميل أمكنني ... فيه قبيل تلاحق الثغر

وجعلت من شغفي أقله ... في الأرض بين تنائف غبر (٥)

أدع المزارع والحصون به ... وأحله في المهمه القفر

---

(١) المفارق : مواضع فرق الشعر من الرأس

(٢) غمر : جزيل العطاء

(٣) مرطى : سريعة . والأسر القوة

(٤) فلج : حليف النصر

(٥) تنائف جمع تنوفة وهي الصحراء

ما زلت أصعده وأحدره من قتر موماة إلى قتر[1]
هرباً به والموت يطلبه حيث انتويت به ولا أدرى[2]
حتى دفعت به لمصرعه سوق المعيز تساق للعتر[3]
ما كان إلا أن هجعت له ورمى فأغفى مطلع الفجر
ورمى الكرى رأسى ومال به رمس يساور منه كالسكر
إذ راعنى صوت هببت به وذعرت منه أيما ذعر
وإذا منيته تساوره قد كدّحت فى الوجه والنحر
وإذا له علق وحشرجة مما يجيش به من الصدر
والموت يقبضه ويبسطه كالثوب عند الطىّ والنشر
فدعا لأنصره وكنت له من قبل ذلك حاضر النصر
فعجزت عنه وهى زاهقة بين الوريد ومدفع السّحر
فمضى وأى فتى فجعت به جلت مصيبته عن القدر
لو قيل تفديه بذلت له مالى وما جمّعت من وفر
أو كنت مقتدرا على عمرى آثرته بالشّطر من عمرى
قد كنت ذا فقر له فعدا ورمى علىّ وقد رأى فقرى
لو شاء ربى كان متّعنى بابنى وشد بأزره أزرى
بنيت عليك بنىّ أحوج ما كنا إليك صفائح الصخر
لا يبعدنك الله يا عمرى إما مضيت فنحن بالأثر
هذى سبيل الناس كلهم لا بدّ سالكها على سفر
أو لا تراهم فى ديارهم يتوقّعون وهم على ذعر

(١) القتر بالضم الجانب
(٢) انتويت : قصدت
(٣) العتر : اسم نبات أو شجر صغير

والموت يوردهم موارده م قسراً فقد ذلّوا على القسرِ

وصف رجل

وقال أعرابي يمدح رجلا :

يمدّ نجاد السيف حتى كأنه بأعلى سِتاهَيْنِ دالج يتطوّحُ
ويدلج في حاجات من هو نائمٌ ويوري كريماتِ النوى حين يقدح
إذا اعتمّ بالبُرد اليماني حسبته هلالا بدا في جانب الافق يلمحُ
يزيد على فضل الرجال فضيلةً ويقصر عنه مدح من يتمدح

بكاء الحمائم (١)

وأنشد ابن أبي طاهر الأعرابي :

وقبلي أبكى كل من كان ذا هوًى هتوف البواكي والديار البلاقعُ
وهنّ على الاطلاق من كل جانبٍ نوائح ما تخضلّ منها المدامع
مزبرجة الاعناق نُمْرٌ ظهورها مخطّمة بالدر خُضْرٌ روائع
ترى طرزا بين الخوافي كأنها حواشيّ برد زينتها الوشائع
ومن قِطَع الياقوت صيغت عيونُها خواضب بالحناء منها الاصابع

ومن جيد ما قيل في الحمام قول ابن الرومي

وقفت بمطراب العشية والضُحى فظلْت أسحُّ الدمع مني وأسجم
حليفة شجوٍ هاج مابي وما بها تباريح شوق يشتكيها المتيم
فباح به فوها وأخفته عينها وباحت به عيني وكتّمه الفم

اسماعيل بن صبيح

ودخل أعرابي على الرشيد فأنشده أرجوزة مدحه بها واسماعيل بن صبيح

(١) انظر نوح الحمام في كتاب (مدامع العشاق)

يكتب كتابا بين يديه ، وكان من أحسن الناس خطا ، وأسرعهم يدا ، فقال الرشيد للاعرابي صف الكاتب فقال

رقيق حواشى العلم حين تبور   يريك الهُوينا والامور تَطير
له قلما بؤس ونعمى كلاهما   سحابته فى الحالتين دَرُور
يناجيك عما فى ضميرك خطه   ويفتح باب النُّجح وهو عسير

فقال الرشيد قد وجب لك يا أعرابى عليه حق ، كما وجب لك علينا . يا غلام ادفع له دية الحر، فقال اسماعيل : وعلى عبدك دية العبد

رقة الحنين

قال أعرابى من بنى عقيل :

أحنُّ الى أرض الحجاز وحاجتى   خيامٌ بنجد دونها الطرف يقصرُ
وما نظرى نحو الحجاز بنافعى   فتيلاً ولكنى على ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرةٌ ثم عبرةٌ   لعينيك يجرى ماؤها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاورٌ   حزينٌ وإما نازحٌ يتذكر

دعوة الله

وقال أعرابى

وإنى لأغضى مقلتىَّ على القذى   وألبس ثوب الصبر أبيض أبلجا
وإنى لأدعو الله والامر ضيقٌ   علىَّ فما ينفك أن يتفرجا
وكم من فتىً ضاقت عليه وجوهُهُ   أصاب لها فى دعوة الله مخرجا

ذكرى الحبيب

وقال آخر :

ذكرتك ذكرى هائم بك تنتهى   إليك أمانيه وإن لم يكن وصلُ

وليست بذكرى ساعةٍ بعد ساعةٍ ولـكنها موصولةٌ ما لها فصل

وقال آخر

أريتك إن شطت بك العام نيّةٌ وغالك مصطاف الحمى ومرابعهُ

أترعين ما استودعت أم أنت كالذى إذا ما نأى هانت عليك ودائعه

ألا إن حَسْيًا دونه قُلّة الحمى منى النفس لو كانت تنال شرائعه(١)

بر المرء بقومه

أخذت أزدُ العتيك شاعرا من قيس بن ثعلبة اسمه المعدل فى دم فأتاه البيهس ابن ربيعة لحمله ، وأمره أن ينجو بنفسه ، وأسلم نفسه مكانه ، فقال له المعدل : أخيّرك بين أن أمدحك أو أمدح قومك ، فاختار مدح قومه فقال

جزى الله فتيان العتيك و إن نأت بىَ الدار عنهم خير ما كان جازيا

همُ خلطونى بالنفوس وأحسنوا الصـ حابة لمـا حُمَّ ما كان آتيا

متاعهم فوضى فضاً فى رحالهم ولا يحسنون الشرَّ إلا تباديا

كأن دنانيراً على قسماتهم إذا الموت فى الأبطال كان تحاميا

وذكرت الرواة أن المهلب بن أبى صفرة عرض جنده بخراسان فعرض جيش بكر بن وائل فمرّ به المعدل فقال : هذا المعدل القيسى الذى يقول ، وأنشد الأبيات فقالوا أيها الأمير احسبه علينا فانطلق مائة منهم ، فجوؤا بمائة وصيف ووصيفة ، فقالوا أعطه هذا وليعذرنا

وقوله (كأن دنانيراً على قسماتهم) نظير قول أبى العباس الأعمى

ليت شعرى من أين رائحة المـ ـسك وما إن إخال بالخيف إنسى

حين غابت بنو أميـة عنهُ والبهاليل من بنى عبد شمس

خطباء على المنابر فرسا نٌ عليها وقالة غير خرس

(١) الحسى : سهل فيه ماء ، ويجمع على أحساء ، والشرائع : الموارد

في حلوم إذا الحلوم استفزت　　ووجوه مثل الدنانير ملس

مآثم أبي نواس

ولما خلع المأمون أخاه محمد بن زبيدة ووجه بطاهر بن الحسين لمحاربته ، كان يعمل كتباً بعيوب أخيه تقرأ على المنابر بخراسان ، فكان مما عابه به أن قال : انه استخلص رجلا شاعراً ماجنا كافراً يقال له الحسن بن هانئ واستخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ، ويهتك المحارم ، وهو الذى يقول :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمرُ　　ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهرُ
وبُحْ باسم من تهوى ودعنى من الكُنى　　فلا خير فى اللذات من دونها ستْرُ

ويذكر أهل العراق فيقول : أهل فسوق ، وخمور ، وماخور ، وفجور ، ويقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون ، فاتصل ذلك بابن زبيدة فنهى الحسن عن الخمر ، وحبسه ابن أبى الفضل بن الربيع ، ثم كلمه فيه الفضل فأخرجه ، بعد أن أخذ عليه أن لايشرب خمراً ، ولا يقول فيها شعراً ، فقال :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ　　كيدٍ أبو العباس مولاها
نام الثقات على مضاجعهم　　وسرى إلى نفسى فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمننى　　من أن أخافك خوفك اللهَ
فعفوت عنى عفو مقتدرٍ　　وجبت له نقمٌ فألغاها

ومن قوله فى ترك الشراب :

أيها الرائحان باللوم لوما　　لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمامٌ　　لا أرى لى خلافهُ مستقيما
فاصرفاها الى سواىَ فانى　　لست الاّ على الحديث نديما
جُلُّ حظى منها اذا هى دارتْ　　أن أراها وأن أشمّ النسيما
فكأنى وما أزيّن منها　　قَعَدِيٌّ يزيّن التحكيما

القعدية : فرقة من الخوارج ، يأمرون بالخروج ولا يخرجون ، وزعم المبرد أنه لم يسبق إلى هذا المعنى ، وقال

عين الخليفة بي موكّلة ... عقد الحذار بطرفها طرفي

صحت علانيتي له وأرى ... دين الضمير له على حرف

ولئن وعدتك تركها عدة ... انى عليك لخائف خُلفي

سلبوا قناع الدّن عن رَمقٍ ... حتى الحياة مشارف الحتفِ

فتنفست في البيت إذ مُزجَت ... كتنفس الريحان في الأنف

أخذ قوله (ولئن وعدتك تركها عدة) الحسن بن على بن وكيع فقال

متى وعدتك فى ترك الصّبا عِدة ... فاشهد على عدتى بالزور والكذب

أما ترى الليل قد ولت عساكره ... وأقبل الصبح فى جيش له لجب

وجدّ فى أثر الجوزاء يطلبها ... فى الجو ركضا هلال دائم الطلب

كصولجان لُجَينٍ فى يدَىْ ملك ... أدناه من كُرَةٍ صيغت من الذهب

فقم بنا نصطبح صفراء صافية ... كالنار لكنها نار بلا لهب

عروس كَرْم أتت تختال فى حلل ... صفر على رأسها تاج من الحبب

وقال أبو الفضل الميكالى فى اقتران الهلال بالزهرة

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا ... تحت هلال لونه يحكى اللهب

ككُرَةٍ من فضة مجلوّة ... وافى عليها صولجانٌ من ذهبْ

وعلى قول أبي نواس

صحت علانيتي له وأري ... دين الضمير له على حرف

كتب أبو العباس بن المعتز الى أبى الطيب القاسم بن محمد النميرى

يا أيها الجافى ويستجفى ... ليس تجنيك من الظرف

إنك فى الشوق الينا كمن ... يؤمن بالله على حرف

(٩ — ثانى)

محوت آثارك من ودنا غير أساطيرك فى الصحف
فان تحاملت لنا زورة يوماً تحاملت على ضعف

ثوب الرياء

وحدث أبو عمر الزاهد قال

دلك بعض الزهاد المرائين جبهته بثوم وعصبها ونام ليصبح بها كأثر السجود فانحرفت العصابة إلى صدغه فأخذ الأثر هناك ، فقال له ابنه : ما هذا يا أبت ؟ فقال أصبح أبوك ممن يعبد الله على حرف

عود الى أبى نواس

وقال أبو نواس فى الباب الأول

غننا بالطلول كيف بلينا واسقنا نعطك الثناء الثمينا
من سلاف كأنها كل شىء يتمنى مخير أن يكونا
أكل الدهر ما تجسم منها وتبقى لبابها المكنونا
فاذا ما اجتليتها فهباء يمنع الكف ما تبيح العيونا
ثم شجت فاستضحكت عن لآل لو تجمعن فى يدٍ لاقتنينا
فى كئوس كأنهن نجوم دائرات بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فاذا ما غربن يغربن فينا
لو ترى الشرب حولها من بعيد قلت قوماً من قرة يصطلونا
وغزال يديرها ببنان ناعمات يزيدها الغمز لينا
كلما شئت علنى برضاب يترك القلب للسرور قرينا
ذاك عيش لو دام لى غير أنى عفته مكرهاً وخفت الأمينا

وقال

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوّزها عنى سلافا ترى لها ... لدى الشرف الاعلى شعاعا مطنّبا
إذا عبّ فيها شارب القوم خلته ... يقبل فى داج من الليل كوكبا
ترى حيث ما كانت من البيت مشرقاً ... وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها رطب البنان ترى له ... على مستدار الخد صدغا معقربا
سقام ومنّانى بعينيه منيةً ... فكانت إلى قلبى ألذ وأطيبا

اغتصابه لمعانى الشعراء

قال الحسن بن الضحاك الخليع أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرىّ اللسان مختلق التكـ ... ـريه شاب المجون بالنسك

فلما بلغت فيه :

كأنما نُصْب كأسه قمرٌ ... يكرَعُ فى بعض أنجم الفلك

نعر نعرة منكرة ، فقلت : مالك ، فقد رعتنى ؟ قال : هذا المعنى أنا أحق به منك ولكن سترى لمن يروى ! ثم أنشد بعد أيام

اذا عب فيها شارب القوم خلتهُ ... يقبل فى داج من الليل كوكبا

فقلت هذه مطالبة يا أبا على ، فقال أتظن أنه يروى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟!

وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما

ومهفهف كملتْ محاسنُهُ ... حتى تجاوز مُنْية النفس
تصبو الكئوس إلى مراشفه ... وتضجُّ فى يده من الحبس
أبصرته والكأس بين فم ... منه وبين أنامل خمس

فكأنها وكأن شاربها   قمرٌ يقبل عارض الشمس

وقال أبو الفتح كشاجم :

وسحاب يجر فى الأرض ذيلى   مطرف زرّه على الأرض زرّا

برقه لمحةٌ ولكن له رعـ   ـد بطىء يكسو المسامع وقرا

كخلى منافق للذى يهوا   ه يبكى جهراً ويضحك سرا

قد سقتنى المدام فيها فتاةٌ   سحرتنى وليس تحسن سحرا

فاذا ما رأيتها تشرب الرا   ح أرتنى شمساً تقبل بدرا

صبوة بشار

وإنما احتذى أبو نواس فى هذه الاشعار التى وصف فيها ترك الشراب وطاعته لأمر الأمين مثال بشار بن برد ، وصب على قالبه ، وذلك أن بشاراً لما قال :

لا يؤيسنّك من مخبأةٍ   قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعد ما جمحا

بلغ ذلك المهدى فغاظه ، وقال : يحرض النساء على الفجور ويسهل السبيل إليه فقال له خاله يزيد بن منصور الحميرى : يا أمير المؤمنين ، قد فتن النساء بشعره ، وأى امرأة لا تصبو إلى مثل قوله :

عجبت فطمةُ من نعتى لها   هل يجيد النعتَ مكفوفُ النظر

بنت عشرٍ وثلاثٍ قسمت   بين غصن وكثيبٍ وقمر

درةٌ بحريةٌ مكنونة   مازها التاجر من بين الدرَرْ

أذرت الدمع وقالت ويلتى   من ولوع الكف ركّاب الخطر

أمتى بددّ هذا لعبى   ووشاحى حله حتى انتثر

فدعينى معه يا أمتى   علّنا فى خلوة نقضى الوطر

أقبلت فى خلوة تضربها   واعتراها كجنون مستعر

بأبى والله ما أحسنتهُ دمع عين غسل الكحل قطر
أيها النوّام هبوا ويحكم وسلونى اليوم ما طعم السهر

فأمره المهدى أن لا يتغزل ، فقال أشعارا فى ذلك ، منها

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته
لعبت إلىّ تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
ويشوقنى بيت الحبيـ ـب اذا غدوت وأين بيته
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته
ونهانىَ الملك الهما م عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع عهداً ولا رأياً رأيته

وقال أيضا

والله لولا الخليفة ما أعطيت ضيما علىّ فى شجن
قد عشت بين الندمان والرا ح والمزهر فى ظل مجلس حسن
ثم نهانى المهدى فانصرفت نفسىَ صُنع الموفق اللقِن

وقال

أفنيت عمرى وتقضى الشباب بين الحميا والجوارى العذاب
فالآن شفّعت إمام الهدى وربما طبت لحبٍّ وطاب
لهوت حتى راعنى داعياً صوت أمير المؤمنين المجاب
لبيك لبيك هجرت الصبا ونام عذّالى ومات العتاب
أبصرت رشدى وتركت المنى وربما ذلت لهن الرقاب

فى كلمة طويلة يقول فيها

ياحامد القول ولم يبله … سبقت بالسيل مساك السحاب
الفعل أولى بثناء الفتى … ما جاءه من خطأ أو صواب
دع قول واء وانتظر فعله … يثنى على اللقحة ما فى الحلاب[1]
إذا غدا المهدى فى جنده … وراح فى آل الرسول الغضاب
بدا لك المعروف فى وجهه … كالظلم يجرى فى الثنايا العذاب

غزل بشار

ومن شعر بشار فى الغزل

أيها الساقيان صُبا شرابى … واسقيانى من ريق بيضاء رودِ
ان دائى الصدى وان شفائى … شربة من رضاب ثغر برودِ
عندها الصبر عن لقائى وعندى … زفرات يأ كلن قلب الجليد
ولها مبسم كغُرّ الاقاحى … وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ … ـب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ … والليالى يبلين كل جديد
لا أبالى من ضن عنى بوصلٍ … إن قضى الله منك لى يوم جود

وقال

تُلقَى بتسبيحة من حُسْن ما خُلِقت … وتستفزّ حشا الرائى بارعادِ
كأنما صوّرت من ماء لؤلؤة … فكل جارحة وجهٌ بمرصادِ

وقال :

وهبت له على المسواك ريقاً … فطاب له بطيب ثنيّتيكِ

(١) واء : واعد من الوأى وهو الوعد

أقبله على الذكرى كأنى أقبل فيه فاك ومقلتيك(١)

وقال :

لا أستطيع الهوى وهجرتها قلبى ضعيف وقلبها حجرُ
كأن وجدى بها وقد حجبت فى الرأس والعين والحشا سُكْرُ

وأنشد له أبو تمام ، وكان يقول ما رأيت شعراً أغزل منه

زوّدينا ياعبد قبل الفراق بتلاق وكيف لى بالتلاق
أنا والله أشتهى سحر عينيـ ـك وأخشى مصارع العشاق
أمتى من بنى عقيل بن كعب موضع السلك فى طلا الاعناق

وقال :

لقد عشقت أذنى كلاما سمعته رخيما وقلبى للمليحة أعشقُ
ولوعاينوها لم يلوموا على البكا كريما سقاه الخمر بدرٌ محلّق
وكيف تناسى من كأن حديثه بأذنى وان غُنيت قرط معلّق

وقال :

وقد كنت فى ذاك الشباب الذى مضى أزارُ ويدعونى الهوى فأزور
فان فاتنى إلف ظللت كأنما يدير حياتى فى يديه مديرُ
ومرتجة الأرداف مهضومة الحشا تمور بسحر عينها وتدور
اذا نظرت صبّتْ عليك صبابة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها لايخلص الماء بيننا الى الصبح دونى حاجب وستور

ومن هذا أخذ على بن الجهم قوله :

صليني وحبل الوصل لم يتشعب ولا تهجرى أفديك بالأم والأب
رعى الله دهراً ضمنا بعد فرقة وأدنى فؤاداً من فؤاد معـذب

(١) من هنا أخذ ابن زيدون وابدع وأجاد
يدنى خيالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

عناقاً وضماً والتزاماً كأنما يرى جسدانا جسم روح ومركب

فبتنا وإنا لو تراق زجاجةٌ من الخمر فيما بيننا لم تسرَّب

وشعره فى هذا المعنى كثير

شعره ومذهبه

وروى أنه قال : أنا أشعر الناس ، لأن لى اثنى عشر ألف قصيدة ، فلو اختير من كل قصيدة بيت لاستُندر ، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس(١)

وقد نثرت نظامه فى أضعاف الكتاب استدعاء لنشاط القارىء وكراهة فى املاله .

وكان بشار أرق المحدثين ديباجة كلام ، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبيل البديع ، فاتبعوه ، وكان ابن الرومى يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر . وهو يتعلق فى شعره بولاء عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ويفتخر بالمضرية ، قال له المهدى فيمن تعتزى ؟ قال : أما اللسان فعربى وأما الأصل فكما قلت فى شعرى . قال وما قلت ؟ فأنشده

ونبئت قوماً لهم إحنةٌ يقولون من ذا وكنت العلَمْ

ألا أيها السائلى جاهلاً ليعرفنى أنا أنف الكرم

نمت فى المكارم بنى عامرٌ فروعى وأصلى قريش العجم

وانى لأغنى مقام الفتى وأصبى الفتاة فلا تعتصم

البيت الأول من هذه الأبيات ينظر الى قول جميل

اذا ما رأونى طالعاً من ثنية يقولون من هذا وقد عرفونى

(١) كان المسيو مرسيه أخبرنى وأنا فى باريس انه توجد نسخة من ديوان بشار عند أحد [illegible] برنس . فليت من يملك تلك النسخة يتفضل بنشرها لأننا فى أشد الظمأ الى مجموعة كبيرة من شعر بشار الذى عده المتقدمون إمام شعراء البديع

وفى هذه القصيدة يقول بشار

وبيضاء يضحك ماء الشبا ... ب فى وجهها لك إذ تبتسم
رواء العذارى اذا زرنها ... أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركانها ... كما يمسح الحجرَ المستلم
أصفراء ليس الفتى صخرة ... ولكنه نُصب هم وغم
صببتِ هواكِ على قلبهِ ... فضاق وأعلن ما قد كتم

ويقال إنه مولى لأم الظباء السدوسية ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزّال رئيس المعتزلة لما هجاه بشار : أما لهذا الاعمى الملحد المشنف المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ والله لولا أن الغيلة من سجايا الغالية ، لبعثت اليه من يبعج بطنه فى جوف منزله ، ولا يكون إلا سدوسيا ، أو عُقيليا

واصل بن عطاء

وكان واصل بن عطاء أحد أعاجيب الدنيا : لأنه كان ألثغ فى الراء ، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه ، إذ كان إمام مذهب ، وداعى نحلة ، وكان محتاجا إلى جودة البيان ، وفصاحة اللسان

قال الجاحظ : فانظر كثرة ترداد الراء فى هذا الكلام وكيف أسقطها ؟ قال الأعمى ولم يقل الضرير ، وقال الملحد ولم يقل الكافر ، وقال المشنف ولم يقل المرعّث ، وقال المكتنى بأبى معاذ ولم يقل بشاراً ولا ابن برد ، وقال الغالية ولم يقل المغيرية ، ولا المنصورية ، وهم الذين أراد ، وقال لبعثت ولم يقل لأرسلت ، وقال يبعج ولم يقل يبقر ، وقال فى جوف منزله ولم يقل فى داره ، وأراد بذكر عقيل وسدوس ما ذكر من اعتزائه إليهم

دين بشار

وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأمة ، وأنشد له أشعاراً صوّب بها رأى ابليس فى تقديم النار على الطين ، منها قوله

الأرض مظلمة والنار مشرقةٌ والنار معبودة مذ كانت النارُ

وقال داود بن رزين أتينا بشاراً فأذن لنا والمائدة بين يديه ، فلم يدعنا إلى الطعام ثم جلسنا لحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصل ، ودعا بطست فبال بحضرتنا . فقلنا له أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال . ماهى ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا ، قال : إنما أذنت لتأ كلوا ، ولولم أرد ذلك ما أذنت لكم ، قلنا له : ودعوت بالطست ونحن حضور ، قال أنا مكفوف وأنتم مأمورون بغض الابصار دونى ، قلنا وحضرت الصلاة فلم تصل ، قال الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة هذا وهو القائل

كيف يبكى لمحبس فى طلولٍ من سيفضى لحبس يوم طويلِ
إن فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل

وقال

ذكرت بها عيشاً فقلت لصاحبى كأنْ لم يكن ما كان حين يزولُ
وما حاجتى إن ساعد الدهر بالمنى كعاب عليها لؤلؤ وشكول
بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا وأن بقائى إن حييت قليل
فعش خائفا للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليل
خليلك ما قدمت من عمل التقى وليس لأيام المنون خليل

سجعه ورجزه

وكان بشار حاضر الجواب سجّاعا خطيبا ، صاحب منثور ومزدوج ، ورجز ، ورسائل مختارة على كثير من الكلام

ودخل على عقبة بن مسلم بن قتيبة فأنشده مديحا وعنده عقبة بن رؤبة فأنشده أرجوزة ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لاتحسنه يا أبا معاذ ! فقال والله لأنا أرجز منك ومن أبيك ، ثم غدا على عقبة من الغد فأنشده أرجوزته.

يا طلل الحى بذات الصّمْد ... بالله خبّر كيف كنت بعدى

يقول فيها

صدّت بخد وجلت عن خدّ ... ثم انثنت كالنفس المرتدّ

وصاحب كالدُّمّل المُمِدّ ... حملته فى رقعة من جلدى

حتى اغتدى غير فقيد الفقد ... ومادرى مارغبتى من زهدي

وهذا كقول الآخر :

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ... ولا يدفع الموت النفوس الشحائحُ

وفيها يقول:

الحر يلحى والعصى للعبد ... وليس للملحف مثل الرد

اسلم وحُييت أبا المَلَدّ ... مفتاح باب الحدث المنسدّ

والبس طرازى غير مستردّ ... لله أيامك فى مَعَدّ

وهى طويلة ، فأجزل صلته ، فلما سمع ابن رؤبة مافيها من الغريب قال : أناوأبى وجدى فتحنا الغريب للناس ، وانى لخليق أن أسده عليهم ، فقال بشار: ارحمهم رحمك الله ! فلى تستخف بى ، وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ قال إذاً أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ! فضحك كل من حضر

طرفه ونوادره

ودخل على المهدى وعنده خاله يزيد بن منصور الحيرى فأنشده قصيدة فلما أتمها قال له يزيد :

— ماصناعتك ياشيخ ؟

— قال : أثقب اللؤلؤ !

— فقال له المهدى : أتهزأ بخالى ؟

— فقال يا أمير المؤمنين فما يكون جوابى لمن يرى شيخاً أعمى ينشد شعراً فيسأله عن صناعته ؟

وقال جوارى المهدى للمهدى : لو أذنت لبشار يدخل الينا يؤانسنا وينشدنا فهو محجوب البصر ، لا غيرة عليك منه ، فأمره فدخل اليهن واستظرفنه ، وقلن له :

— وددنا والله يا أبا معاذ انك أبونا حتى لا نفارقك

— قال : ونحن على دين كسرى !

فأمر المهدى أن لا يدخل عليهن .

وكأن المتنبي نظر إلى هذا فقال

يا أخت معتنق الفوارس فى الوغى لأخوك ثم أرق منك وأرحمُ
يرنو اليك مع العفاف وعندهُ أن المجوس تصيب فيما تحكم

كلمات مأثورة

قال على بن عبيدة الريحانى :

المودة تعاطف القلوب ، وائتلاف الأرواح ، وحنين النفوس الى مثابة السرائر ، و[illegible] فى [illegible] ووحشة الأشخاص عند تباين اللقاء ، وظاهر السرور [illegible] ، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاق الخصال

وقال: العتاب حدائق المتحابين ، وثمار الأوداء ، ودليل الظن،وحركات الشوق وراحة الواجد ، ولسان المشفق

قال بعض الكتاب : العتاب علامة الوفاء ، وخاصة الجفاء ، وسلاح الأكفاء

وقال على بن عبيدة : التجنى رسول القطيعة وداعى القلى وسبب السلو وأول التجافى ومنزل التهاجر .

وقال: الصدق ربيع القلب وزكاة الخلق وثمرة المروءة وشعاع الضمير وعن جلالة القدر عبارته والى اعتدال وزن العقل ينسب صاحبه ، وشهادته قاطعة فى الاختلاف وإليه ترجع الحكومات

وقال الكذب شعار الخيانة وتحريف العلم وخواطر الزور وتسويل أضغاث النفس واعوجاج التركيب واختلاف البنية وعن خمول الذكر ما يكون صاحبه

وعلى بن عبيدة كثير الاغارة على ما كان غيره قد استثاره

ذم الكذب

فقر فى الكذب لغير واحد

— بعض الفلاسفة : الكذاب والميت سواء ، لأن فضيلة الحى النطق ، فاذا لم يوثق بكلامه ، فقد بطلت حياته

الحسن بن سهل : الكذاب لص ، لأن اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك ولا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب غيرك عندك فلا تأمن أن يغتابك عند غيرك

وقال إبراهيم بن العباس فى هذا النحو :

إنى متى أحقد بحقـ ... ـدك لا أضر به سواكا
ومتى أطعتك فى أخـ ... ـيك أطعت فيك غداً أخاكا
حتى أرى متقسما ... يومى لذا وغداً لذاكا

— حسب الكاذب بعقله سقما و بقلبه خصما

— ابن المعتز : علامة الكذاب جوده في اليمين لغير مستحلف ،وقال

وفى اليمين على ما أنت فاعلهُ   ما دل أنك فى الميعاد متهمُ

وقال : اجتنب مصاحبة الكذاب ، فإن اضطررت إليه فلا تصدقه ، ولا تعلمه أنك تكذبه ، فينتقل عن وده ، ولا ينتقل عن طبعه

— يعترى حديث الكذاب من الاختلاف ، مالا يعترى الجبان من الارتعاد عند الحرب

— لا تصح للكذاب رؤيا لأنه يخبر عن نفسه في اليقظة بما لم ير ، فتريه فى النوم مالا يكون

وأنشد

لا يكذب المرء إلا من مهانته   أو عادة السوء أو من قلة الأدب

ولرأهل العصر :

— فلان منغمس فى عيبه يكذب لذيله على جيبه

— يقول بهتاً ، وزوراً بحتاً

— قد ملأ قلبه ريناً ، وقوله مَيْنا

— يدين بالكذب مذهبا ، ويستثير الزور مركبا

— أقاويل يتمشى الزور فى مناكبها ، ويبرز البهتان فى مذاهبها

وقال اعرابى لابنه وسمعه يكذب

يابنى ! عجبت من الكذاب المشيد بكذبه وانما يدل على عيبه ويتعرض للعقاب من ربه فالآثام له عادة والأخبار عنه متضادة إن قال حقا لم يصدّق وان أراد خيراً لم يوفق : فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صح من صدقه نسب الى غيره ، وماصح من كذب غيره نسب اليه ، فهو كما قال الشاعر

حسب الكذوب من المها   نة بعض ما يحكى عليه
ما إن سمعت بكذبة   من غيره نسبت إليه

حزم الحسن بن سهل

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون بعد أن زفت إليه بوران وتوهم القواد أن هذا التزويج قد أنسى الحسن حاله قبل ذلك

قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته ، شيئاً لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة أمير المؤمنين أدام الله عزه في إخراج توقيعه بتزيين حالى فى العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله

فخرج التوقيع : الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة ، وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ، ونفذ بالولاة ، و إليه الخراج والبريد واختيار القضاة جزاء بمعرفته بالحال التي قربته منا ، و إثابة لشكره إيانا على ما أولينا

خطب النكاح

قال يحيى بن اكثم : أراد المأمون أن يزوج ابنته من الرضى فقال : يا يحيى تكلم ، فأجللته أن أقول أنكحت ، فقلت يا أمير المؤمنين أنت الحاكم الاكبر ، والامام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام فقال :

الحمد لله الذي تصاغرت الامور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ، وصلى الله على محمد عند ذكره .

أما بعد فان الله قد جعل النكاح دينا ورضيه حكما وأنزله وحيا ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من على بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف ، والحمد لله رب العالمين

قال الاصمعي : كانوا يستحبون من الخاطب الى الرجل حرمته الاطالة لتدل على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الايجاز ، ليدل على الاجابة

وخطب رجل من بني امية إلى عمر بن عبد العزيز أخته فأطال فقال عمر : الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الانبياء :

أما بعد فان الرغبة منك دعتك إلينا ، والرغبة منا فيك أجابت ، وقد زوجناك على كتاب الله : إمساك بمعروف ، أو تسريح باحسان —

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يخطب له فاستفتح بحمد الله وأطال وصلى على النبي عليه السلام وأطال ثم ذكر البدء وخلق السموات والارض ، واقتص ذكر القرون حتى ضجر من حضر ، والتفت إلى الخاطب فقال : ما اسمك أعزك الله ؟ فقال والله لقد أنسيت اسمي من طول خطبتك ، وهي طالق ان تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم وعقدوا في مجلس آخر

الكتاب والقلم

وقال ابن المعتز

الكتاب والج الابواب ، جرىء على الحجاب ، مفهم لا يفهم وناطق لا يتكلم ، به يشخص المشتاق ، إذا أقعده الفراق ، والقلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الارادة ولا يمل الاستزادة ، ويسكت واقفا وينطلق سائرا ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضيء ، وكأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح نوار بستان

وهذا كقوله في القاسم بن عبيد الله قال الصولي لما عرض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه قال ابن المعتز :

قلم ما أراه أم فلك يجـ ... ـري بما شاء قاسم ويسير
خاشع في يديه يلثم قرطا ... سا كما قبل البساط شكورُ
ولطيف المعنى جليل نحيف ... وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتف ... وعيش تضم تلك السطور
نقشت بالدجا نهارا فما أد ... ري أخط فيهن أو تصوير

وكذا من أبوه مثل عبيد الله ينمى إلى العلى ويصير
عظمت منة الآله عليه فهناك الوزير وهو الوزير

وقال بعض البلغاء : صورة الخط فى الأبصار سواد ، وفى البصائر بياض

وقال أبو الطيب المتنبي

دعانى اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وما قلت من شعر تكاد بيوته اذا كتبت يبيض من نورها الحبر

وقال ابن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وهب

عليم بأعقاب الأمور كأنه بمختلسات الظن يسمع أو يرى
إذا أخذ القرطاس خلت يمينه يفتح نورا أو ينظم جوهرا

فاخر صاحب سيف صاحب قلم ، فقال صاحب القلم :

أنا أقتل بلا غرر ، وأنت تقتل على خطر

فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف ؛ إن تم مراده ؛ وإلا الى السيف معاده أما سمعت قول أبى تمام

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

وقال أبو الطيب :

ما زلت أضحك إبلى كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

هذا مقلوب من قول على بن العباس النوبختى وقد رواه أبو القاسم الزجاجى لابن الرومى وإنما وهم لاتفاق الاسمين :

[illegible]ت له الرقابُ ودانت خوفَه الامم

[illegible] لا شيء يغالبهُ ما زال يتبع ما يجرى به القلمُ

[illegible]قضى الله للاقلام مُذ بُريت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما السيف سيف الكمىّ بأخوفَ من قلم الكاتبِ

له شاهدٌ ان تأملتهُ ظهرتَ على سرّه الغائب

أداة المنية فى جانبيه فمن مثله رهبة الراهب

سنان المنية فى جانبٍ وحدّ المنية فى جانبِ

ألم تر فى صدره كالسنان وفى الردف كالرهف القاضب

وقال أبو الفتح البستى :

إذ أقسم الابطال يوما بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرمْ

كفى قلم الكتّاب مجداً ورفعةً مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقد قيل : صرير الاقلام أشد من صليل الحسام

قال الصولى أنشدني طلحة بن عبيد الله

وإذا أمرّ على المهارق كفهُ بأنامل يحملن سَحْتا مرهفا

متقاصراً متطاولا ومفصلا وموصلا ومشتتاً ومؤلفا

تركت العُداة رواجفا أحشاؤها وفلاعها قلماً هناك رجّفا

كالحية الرقشاء إلا أنهُ يستنزل الأروى اليه تلطفا

يرمى به قلما يمجّ لعابهُ فيعود سيفا صارما و مثقفا

وقال محمود بن أحمد الاصبهانى

أخرسُ ينبيك بإطراقه عن كل ما شئت من الامرِ

يذرى على قرطاسه دمعةً يبدى بها السر وما يدرى

كعاشق أخفى هواه وقد نمّت عليه عبرةٌ تجرى

تبصره فى كل أحواله عريان يكسو الناس أو يعرى
يُرى أسيراً فى دواة وقد أطلق أقواما من الأسر
أخرق لو لم تبره لم يكن يرشق أقواما وما يبرى
كالبحر إذ يجرى وكالليل اذ يغشى وكالصارم اذ يفرى

وقال أحمد بن جرار

أهيفُ ممشوقٌ بتحريكه يحل عقد السر اعلانُ
له لسانٌ مرهف حده من ريقة الكرسف ريان
ترى بسيط الفكر فى نطقه شخصا له حد وجثمان
كأنما يسحب فى أثره ذيلا من الحكمة سحبان
لولاه ما نار منار الهدى ولا سما للملك ديوان

ومن أجود ما قيل فى صفة القلم قول أبى تمام لمحمد بن عبد الملك الزيات

لك القلم الأعلى الذى بشباته تُصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ
له ريقةٌ طَلٌّ ولكن وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وابلُ
لُعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأرْىُ الجنى اشتارته أيدٍ عواسل
له الخلوات اللاتى لولا نجيُّها لما احتفلت للمُلك تلك المحافل

شكوى الزمان

وقال الأمير تميم بن المعز :

وذى عجب من طول صبرى على الذى ألاقى من الأرزاء وهو جليلُ
يقولون ما تشكو ؟ فقلت متى شكا شبا السيف عضب الشفرتين صقيلُ
وإن امرأً يشكو إلى غير نافع ويسخو بما فى نفسه لجهولُ
عدانىَ ان أشكو إلى الناس أننى عليلٌ ومن أشكو إليه عليلُ
ويمنعى الشكوى إلى الله علمهُ بجملة ما ألقاه فيه أقول

سأسكت صبراً واحتسابا فانني ... أرى الصبر سيفاً ليس فيه فلول

وقال

يا دهر ما أقساك من متلون ... في حالتيك وما أقلك منصفا

أتروح للنكس الجهول ممهداً ... وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفا

واذا صفوت كدرت شيمة باخل ... واذا وفيت نقضت أسباب الوفا

لا أرتضيك وإن كرمت لأنني ... أدرى بأنك لا تدوم على الصفا

زمن اذا أعطى استردّ عطاءهُ ... واذا استقام بدا له فتحرفا

ما قام خيرك يا زمان بشره ... أولى بنا ما قل منك وما كفى

أحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف منصرفا عن غسان بن عباد ، وجرت بينهما هنات بحضرة المأمون ، فقال يوما بحضرة خاصة أصحابه : أخبروني عن غسان بن عباد فاني أريده لأمر جسيم ، وكان قد عزم على تقليده السند مكان بشر بن داود ، فتكلم كل فريق بما عنده في مدحه ، فقال أحمد بن يوسف : هو يا أمير المؤمنين رجلٌ محاسنه أكثر من مساويه ، لا يتطرف به أمر الا تقدم فيه . ومهما تخوّف عليه فانه لن يأتي أمراً يعتذر منه ، لأنه قسم أيامه بين أفعال الفضل : فجعل لكل خلق نوبة . اذا نظرت في أمره لم تدر أي حالاته أعجب : أمّا هداه اليه عقله أمْ ما اكتسبه بأدبه . فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه ، قال لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر

كفى ثمنا لما أسديت أني ... نصحتك في الصديق وفي عدائي

وأني حين تندبني لأمرٍ ... يكون هواك أغلب من هوائي

قال الصولي وقد روى هذا لغير أحمد ولعل أحمد استعاره ؛ فأعجب المأمون ذلك منه وشكره له غسان بن عباد : وتأكدت الحال بينهما

وكان أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عجل بن لجيم عالى الطبقة

فى البلاغة ؛ ولم يكن فى زمانه أكتب منه ؛ وله شعر جيد مرتفع عن أشعار الكتّاب ووزّر للمأمون بعد أحمد بن أبى خالد . وكان أول ما ارتفع به أحمد أن المخلوع محمد بن الرشيد لما قتل أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا . فقال طاهر أريد أخصر من هذا . فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة فأحضره لذلك . فكتب :

أما بعد فان كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب فى الولاية والخدمة ، بمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، لقول الله عز وجل فيما اقتص من نبأ نوح وابنه (انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) ولا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعة فى ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه ، الكائد له فيمن ختَر عهده ، ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد بعثت اليك بالدنيا وهى رأس مال المخلوع ، و بالآخرة وهى البردة والقضيب ، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع اليه تراث آبائه الراشدين

وكان أحمد بن أبى خالد كثيراً ما يصف أحمد للمأمون و يحثه عليه فأمره المأمون بإحضاره ، فلما وقف بين يديه قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى استخصك فيما استحفظك من دينه ، وقلدك من خلافته ، بسوابغ نعمه وفضائل قِسَمِه ، وعرّفك من تيسير كل عسير حاولك عليه متمرد حتى ذل لك ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها . حمداً نامياً زائداً لا ينقطع أولاه ، ولا ينقضى أخراه ، وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومننه عليك ، وكفايته ما أولاك واسترعاك ، وتحصين ما حاز لك والتمكين من بلاد عدوك ، ما يمنع به بيضة الاسلام ، ويعز بك أهله و يبيح بك حمى الشرك ، ويجمع لك متباين الالفة ، وينجز بك فى أهل العناد والضلالة وعده ، إنه سميع الدعاء ، فعّال لما يشاء

فقال المأمون : أحسنت ، بورك عليك ناطقا وساكتا ! ثم قال بعد أن بلاه واختبره : ياعجبا لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه !

وكتب إلى المأمون يستجدى لزوّار على بابه

ان داعى نداك ، ومنادى جدواك ، جمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك المتيد فنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ويحقق ظنهم بطوله ، فعل

فوقّع المأمون فى عرض كتابه :

الخير متبع وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات ، فاكتب أسماءهم وبيّن مرتبة كل واحد منهم ليصير اليه على قدر استحقاقه ، ولا تكدرن معروفنا بالمطل والحجاب ، فقد قال الشاعر

فانك لن ترى طردا لحرّ كإلصاقٍ به طرف الهوان
ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل الود أو بذل اللسان

قال أحمد بن يوسف أمرنى المأمون أن أكتب فى زيادة قناديل شهر رمضان فأعيا علىّ ولم أجد مثالا أحتذى عليه . فبت مغموما فأتانى آت فى النوم فقال : اكتب «فإن فيها اضاءة للمتهجدين ، ونفيا لمكامن الريب ، وأنسا للسابلة ، وتنزيها لبيوت الله من وحشة الظلم»

فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه ، وأمر أن تمضى الكتب عليه

وأهدى إلى المأمون فى يوم نوروز طبق جزع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش . وكتب اليه

« هذا يوم جريت فيه العادة بإلطاف العبيد السادة ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين طبق جذع فيه ميل »

فلما قرأ المأمون الرقعة قال : أجاءت هدية أحمد بن يوسف ؟ قالوا نعم . قال هى فى دارى أم دارى فيها ؟ فلما رفع المنديل استظرف الهدية واسترجح مهديها

وأهدى إلى ابراهيم بن المهدى هدية وكتب اليه

«الثقة بك قد سهلت السبيل اليك ، فأهديت هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتنم»

وكتب إلى بنى سعيد بن سلم «لولا أن الله عز وجل ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتبه بالقرآن ، لنزل فيكم نبي نقمة ، وأنزل فيكم قرآن غدر ، وما عسيت أن أقول فى قوم محاسنهم مساوى السفل ، ومساويهم فضائح الامم ، وألسنتهم معقولة بالعىّ ، وأيديهم معقودة بالبخل . وهم كما قال الشاعر

لا يكبرون وإن طالت حياتهمُ ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا

ذم المغنين

وغنّى مغن بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن محسنا فلم ينصتوا له وتحدثوا مع غنائه فغضب المغنى فقال احمد بن يوسف

« أنت عافاك الله تحمل الاسماع ثقلا ، والقلوب مللا ، والأعين قباحة ، والأنف نتانة ، ثم تقول اسمعوا منى وأنصتوا إلىّ ! هذا اذا كانت أفهامنا مقفلة ، وآذاننا صدئة فإما رضيت بالعفو منا ، وإلا قمت مذموما عنا »

ألفاظ لأهل العصر فى ذم المغنين

— يترنم فيتعب ، ولا يطرب

— إذا غنى عنّى ، وإذا أدى آذى

— يميت الطرب ، ويحيي الكرب

— ضربه ، يوجب ضربه

— من عجائب غنائه انه يورد الشتاء فى الصيف ما رؤى قط فى دار مرتين

وحضر جحظة مجلسا فيه على بن بسام فتفرق القوم المحادّ فقال جحظة : فمالى

لم تعطونى مخدة ؟ فقال على بن بسام : غنّ فالمخاد كلها اليك تصير

وفيه يقول ابن بسام

يامن هجوناه ففنانا ‏ ‏ ‏ أنت وبيت الله أهجانا

سيّان ان غنى لنا جحظة ‏ ‏ ‏ أو مر مجنون فمنانا

وكان خالد يستبرد فبعث بعض الظرفاء غلامه يشترى له خمسة أرطال ثلجاً فأتى بخالد وقال : يا مولاى طلبت خمسة أرطال وهذا رطل !

وتغنى بحضرة محموم فقال: ويحك دعنا نعرق !

وقال بعض المحدثين فى قُرَيس المغنى

ألا فاسقنى قدحاً وافراً ‏ ‏ ‏ يمين على اليلمم المائج

أكلنا قُرَيسا وغنى قريس ‏ ‏ ‏ فنحن على شرف الفالج

ولقى أبو العباس المبرد برد الخيار المغنى فى يوم ثلج بالجسر فقال : أنت المبرد وأنا برد الخيار . واليوم كما ترى . اعبر بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا.

وقال ابن عباد الصاحب فى مغن يعرف بابن عذاب

أقول قولا بلا احتشام ‏ ‏ ‏ يعقله كل من يعيه

أبن عذاب اذا تغنى ‏ ‏ ‏ فانى منه فى أبيه

شعر أحمد بن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف

ضمير وجد بقلب صب ‏ ‏ ‏ ترجم دمعى به فشاعا

فصار دمعى لسان وجدى ‏ ‏ ‏ أضيع سرى به فذاعا

لولا دموعى وفرط حبى ‏ ‏ ‏ ما كان سرى كذا مضاعا

وقال

وعمل بالمجور يمر بالبر ‏ ‏ ‏ كهاد يخوض فى الظلم

أو كطبيب قد شفه سقمٌ — وهو يداوى من ذلك السَّقم
يا واعظ الناس غير متعظ — ثوبك طهر أوْ لا فلا تلم

وقال

إذا ما التقينا والعيون نواظرٌ — فألسنتا حرب وأبصارنا سِلْمُ

وقال فى الحزن :

كثير هموم القلب حتى كأنما — عليه سرور العالمين حرامُ
إذا قيل ماأضناك أسبل دمعهُ — فأخبر ما يلقى وليس كلامُ

وقال

كريم له نفس يلين بلينها — ليردع عن سلطانه سنن الكِبْرِ
إذا ذكّرته نفسه عظم قدرها — دعاه إلى تسكينها عظم القدرِ

ووقع فى كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده :

مستتم الصنيعة من عدّل زيغها ، وأقام أودها ، صيانةً لمعروفه ، ونصرة لرأيه ، - فإن أول المعروف مستخف وآخره مستثقل . يكاد يكون أول الصنيعة للهوى ، وآخرها للرأى . ولذلك قيل : رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها[1]

أصدقاء أبى العتاهية

وكان أبو العتاهية له صديق قبل ارتفاع حاله فأحس منه فى حين وزارته تغيرا فكتب إليه

أمنت إذ استغنيت من سوْرة الفقر — فصرت ترى الاخوان بالنظر الشَّزْرِ
أبا جعفر إن الشريف يهينه — تتايهه دون الاخلاء بالوفر
فإن تهت يوماً بالذى نلت من غنى — فإن غنى بالتجمل والصبر
ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى — وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

(١) الرب : التعهد بالاصلاح

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال : حجب أحمد بن يوسف أبا العتاهية ثم عاد فقيل هو نائم فكتب إليه

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالمٌ   سأصرف وجهى حيث تبغى المكارمُ
متى يظفر الغادى إليك بحاجة   ونصفك محجوب ونصفك نائمُ

وقال

يا أبو جعفر أخى وخليلى   فى عداد الموتى وفى ساكنى الدنـ
يا مقيما فى ظل عيش ظليلِ   ميت مات وهو فى وارف العيـ
لم يمت ميتة الوفاة ولكن   مات عن كل صالح وجميلِ

أحمد بن يوسف والمأمون

وخاصم أحمد بن يوسف رجلا بين يدى المأمون وكان صغا المأمون إليه على أحمد ففطن لذلك فقال : يا أمير المؤمنين إنه يستملى من عينيك مايلقانى به ، ويستبين بحركتك ما تجنه له ، و بلوغ إرادتك أحب إلىَّ من بلوغ أملى ، ولذة إجابتك أمتع عندى من لذة ظفرى ، وقد تركت له ما نازعنى فيه ؛ وسلمت له ما طالبنى به فاستحسن ذلك المأمون

ومن كلام أحمد بن يوسف : مجالسة البغضاء تثير الهموم ؛ وتجلب الغموم . وتؤلم القلب ، وتقدح فى النشاط ، وتطوى الانبساط

صفات الثقلاء

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الثقلاء

— فلان ثقيل الطلعة ، غيض التفصيل والجملة ، بارد السكون والحركة ، قد خرج عن حد الاعتدال ، وذهب من ذات اليمين الى ذات الشمال .

— يحكي ثقل الحديث المعاد ، ويمشي في القلوب والأكباد ، ولا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته ، وكيف احتاجت الى الجبال بعد ما أقلته .

— كأن وجهه أيام المصائب ، وليالي النوائب .

— كأنما قربه فقد الحبائب ، وسوء العواقب

— كأنما وصله قطع الحياة بموت الفجأة .

— كأنما هجره قوة المنة ، وريح الجنة

— ياعجبي من جسم كالخيال ، وروح كالجبال

— كأنه ثقل الدين ، على وجع العين

— هو ثقيل السكون ، بغيض الحركة ، كثير الشؤم ، قليل البركة

— هو بين الجفن والعين قذاة ، و بين الأخمص والنعل حصاة

— ماهو إلا عداة الفراق ، وكتاب الطلاق ، وموت الحبيب ، وطلوع الرقيب

— ما هو إلا أربعاء لاتدور في صفر ، والكابوس في وقت السحر

— أثقل من خراج بلا غلة ، ودواء بلا علة .

— أبغض من مثل غير سائر ، وأجمع للعيوب من بغلة أبي دلامة وحمار طناز وطيلسان ابن حرب وأير أبي حكيمة

وأنشد :

متى مدعا من ثقله الحوت ربه　　وقال الهي زيدت الأرض ثامنة

وأنشد :

تحس منه الأرض أضعاف ما　　يحمله الحوت من الأرض [1]

وأنشد :

مشتمل بالبغض لاتنثني　　اليه لحظاً مقلة الرامق

(١) إشارة إلى الخرافة التي تزعم أن الارض يحملها حوت !

يظل في مجلسنا قاعداً   أثقل من واش على عاشق

وقال الحمدوني

سألتك بالله الا صدقت   وعلمي بأنك لا تصدق

أتبغض نفسك من ثقلها   والا فأنت اذاً أحمق

وكتب أبو عبد الرحمن العطوي الى بعض اخوانه

اذا أنت لم ترسل وجئت فلم أصل   ملأت بعذر منك سمع لبيب

أتيتك مشتاقا فلم أر حاجباً   ولا صاحباً إلا بوجه قطوب

كأني غريم مقتض أو كأنني   طلوع رقيب أو نهوض حبيب

فعدت وما فك الحجاب عزيمتي   إلى شكر سبط الراحتين أديب

عليّ لاخلاص الذي ودع الهوى   اطالة رأي أو وقار مشيب

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقل جليسا اسمه زنباع . فقال له رجل يوماً ما الزنبعة في بلاد العرب ؟ قال التثاقل ، ولذلك سمي جليسنا زنباعا

وقد أكثر الناس في الثقلاء وأنا أستحسن قول جحظة . وان كان غيره قد تقدمه في مثله

يالفظة النعي بموت الخليل   ياوقفة التوديع بين الحمول

ياشربة اليارج يا أجرة المنز   ل يا وجه العذول الثقيل

ياطلعة النعش ويا منزلاً   أقفر من بعد الأنيس الحلول

يا نهضة المحبوب عن غضبة   يا نعمة قد آذنت بالرحيل

ويا كتاباً جاء من مخلف   للوعد مملوءاً بعذر طويل

يابكرة الثكلى الى حفرة   مستودع فيها عزيز الثكول

ياوثبة الحافظ مستعجلا   بصرفه القينات عند الأصيل

ويا طبيبا قد أتى باكراً   على أخي سقم بماء البقول

ياشوكة في قدم رخصة   ليس الى إخراجها من سبيل

ياعِشرة المجذوم فى رحلهِ ... ويا صعود السعر عند المُعِيل
يارَدة الحاجب عن قسوةٍ ... ونكسة من بعد برء العليل

جحظة البرمكى

وجحظة هذا هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقال أبو الحسن على بن محمد بن مقلة الوزير سألت جحظة من لقبه بهذا اللقب فقال ابن المعتز لقينى يوما فقال لى : ما حيوان إن نكسوه أتانا آلة للمراكب البحرية ؟ فقلت عَلَقَ إذا نكس صار قلعا ، قال أحسنت ياجحظة ، فلزمنى هذا اللقب

وكان ناتىء العينين جداً ، قبيح الوجه ، ولذلك قال ابن الرومى

نُبئت جحظة يستعير جحوظه ... من فيل شطرنج ومن سرطانِ
يارحمتى لمنادميه تحملوا ... ألم العيون للذة الآذانِ

وكان طيب الغناء ، ممتد النفس ، حسن المسموع ، إلا انه كان ثقيل اليد فى الضرب . وكان حلو النادرة ، كثير الحكاية ، صالح الشعر . ولا تزال تندر له لأبيات الجيدة ، وهو القائل

جانبت أطيب لذاتى وشرابى ... وهجرت بعدك عامداً أصحابى
فاذا كتبت لكى أنزّه ناظرى ... فى حسن لفظك لم تجد بجواب
إن كنت تنكر ذلتى وتذللى ... ونحول جسمى وامتداد عذابى
فانظر إلى بدنى الذى موّهتُه ... للناظرين بكثرة الأثواب

وقال

وإذا جفانى صاحبٌ ... لم أستجز ماعشت قطعهَ
وتركته مثل القبو ... ر أزورها فى كل جمعه

وقال

ضاقت علىّ وجوه الرأى فى نفر ... يلقون بالجحد والكفران إحسانى
أُقلب الطرف تصعيداً ومنحدراً ... فما أقابل إنسانا بانسانى

وقال

لقد مات اخوانىَ الصالحون فمالى صديق ومالى عمادْ
اذا أقبل الصبح ولّى السرور وان أقبل الليل ولّى الرقاد

وقال يهجو رجلا

لاتعذلونى إن هجرت طعامه خوفا على نفسى من المأكول
فتّى أكلت قتلته من بخله ومتى قتلت قُتِلْت بالمقتولِ

خالد الكاتب

ومن حكاياته قال حدثنى خالد الكاتب قال : جاءنى يوما رسول ابراهيم بن المهدى فصرت اليه ، فرأيت رجلا أسود على فُرُش قد غاص فيها ، فاستجلسنى وقال أنشدنى من شعرك فأنشدته

رأت منه عينى منظرين كما رأت من الشمس والبدر المنير على الأرضِ
عشيّة حيانى بورد كأنه خدود أُضيفت بعضهن إلى بعضِ
ونازعنى كأسا كأن حَبابها دموعى لما صد عن مقلتى غُمضى
وراح وفعل الراح فى حركاته كفعل نسيم الريح بالغُصن الغض

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يافتى ! شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ، زدنى فأنشدته

عاتبت نفسى فى هوا ك فلم أجدها تقبلُ
وأطعت داعيها اليـ ك فلم أطع من يعذل
لا والذى جعل الوجو هَ لحسن وجهك تمثُل
لا قلت إن الصبر عنـ ك من التصابى أجمل

فزحف حتى انحدر عن الفرش ثم قال لى زدنى فأنشدته

عش فحبّيك سريعا قاتلى والضنى ان لم تصلنى واصلى

ظفر الحب بقلب دنفٍ فيك والسقم بجسم ناحلِ
فهما بين اكتئاب وضنًى تركاني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمةٍ فبكائي لبكاء العاذل

فنعر طرباً وقال يا بليق كم معك لنفقتنا ؟ قال ثمانمائة وخمسون دينارا ، قال اقسمها بيني وبين خالد فدفع إليّ نصفها

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسم قائله

لايبعد الله اخوانا لنا سلفوا أفناهمُ حدثان الدهر والابدُ
نمدهم كل يوم من بقيتنا ولا يؤوب الينا منهمُ أحدُ

لطف الجواب

وكان أحمد بن يوسف جالساً بين يدي المأمون فسأل المأمون عن السكّين فناوله أحمد السكين ، وقد أمسك بنصابها وأشار اليه بالحد ، فنظر إليه المأمون نظر منكر ، فقال لعل أمير المؤمنين أنكر عليّ أخذي بالنصاب وإشارتي اليه بالحد ، وإنما تفاءلت بذلك أن يكون له الحد على أعدائه . فعجب المأمون لسرعة فطنته ، ولطيف جوابه

صفات السكاكين

وقال بعض الكتاب : السكين سن الأقلام يشحذها إذا كلّت ، ويصقلها إذا نبت ، ويطلقها إذا وقفت ، ويلمها إذا شعثت ، وأحسنها ما عرض صدره ، وأرهف حده ، ولم يفضل على القبضة نصابه

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي سكينا سرقت له

يا قاتل الله كتاب الدواوين ما يستحلون من أخذ السكاكينِ
لقد دهاني لطيف منهم ختلٌ في ذات حد كحد السيف مسنونِ

فأقفرت بعد عمران بموقعها ... منها دواة فتى بالكتب مفتون
تبكى على مُدية أودى الزمان بها ... كانت على جائر الأقلام تُعدينى
كانت تقوّم أقلامى وتنحتها ... نحتاً وتسخطها بريا فترضينى
وأضحك الطرس والقرطاس عن حُللٍ ... ينوب للعين عن نور البساتين
فان قشرت بها سوداء من صحفٍ ... عادت كمحض خدود الخرّد العين
جزع النصاب لطيفات شعائرها ... محسنات بأصناف التحاسين
هيفاء مرهفة بيضاء مذهبةٌ ... قال الاله لها سبحانه كونى
لكن مقطّى أمسى شامتاً جذلا ... وكان فى ذلة منها وفى هُون
فصين حتى يضاهى فى صيانته ... جاهى لصونيه عمن لا يدانينى
ولست عنها بسالٍ ما حييت ولا ... بواجد عوضا منها يسلّينى
ولو يُردُّ فداء ما فجعت به ... منها فديناه بالدنيا وبالدين

ألفاظ لأهل العصر فى صفات السكين

— سكين كأن القدر سائقها ، أو الأجل سابقها . مُرهفة الصدر . مخطفة الخصر يجول عليها فرند العتق ، ويموج فيها ماء الجوهر

— كأن المنية تبرق من حدها والأجل يلمع من متنها — ركبت فى نصاب آبنوس كأن الحدق نفضت عليه صبغها وحب القلوب كسته لباسها

— أخذها حديدها الناصع محط من الروم وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج فكأنها ليلٌ من تحت نهار أو مجمر أبدى سنا نار

— ذات غرار ماض وذباب قاض

— سكين ذات متسر بارى بجوهره وأنى ونصاب زنجى ان أرضيت أولت متنا كالدهان وان أسخطت اتقت بناب الافعوان

— سكين أحسن من التلاق ، وأقطع من الفراق ، تفعل فعل الأعداء ، وتنفع نفع الاصدقا

هى أمضى من القضاء ، وأنفذ من القدر المتاح ، وأقطع من ظبة السيف الحسام ، وألمع من البرق فى الغمام

جمعت حسن المنظر ، وكرم المخبر ، وتملكت عنان القلب والبصر ، ولم يحوجها عتق الجوهر إلى إمهاء الحجر

الاسترواح بذكر الصديق

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح :

ما زلنا فى سمر نصل فصوله بتشوقك ، فيذهب ذكرك ملل السامر ، ونعسة الساهر .

فقال القاسم : مثلك ذكر صديقه فأطراه ، واعتذر إليه فأرضاه ، ولو كنتم آذنتمونى كنت كأحدكم مسروراً بما به سررتم ، مفيضاً فيما فيه أفضتم

شروط المنادمة

قال بعض الظرفاء : شرط المنادمة قلة الخلاف ، والمعاملة بالانصاف ، والمسامحة فى الشراب ، والتغافل عن رد الجواب ، و إدمان الرضى ، واطراح ما مضى ، و إسقاط التحيات ، واجتناب اقتراح الأصوات ، وأكل ما حضر ، واحضار ما تيسر ، وستر العيب ، وحفظ الغيب .

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوى فى قوله :

حقوق الكاس والندمان خمس   فأولها التزين بالوقار
وثانيها مسامحة الندامى   فكم حمت السماحة من ذمار
وثالثها وإن كنت ابن خير البرية محتدا ترك الفخار
ورابعها وللندمان حق   سوى حق القرابة والجوار

إذا حدثته فا كس الحديث الذى حدثته ثوب اختصار
فما حث النبيذ بمثل حسن الأغانى والاحاديث القصار
وخامسة يدل بها أخوها على كرم الطبيعة والنجار
حديث الأمس تنساه جميعاً فان الذنب فيه للعُقار
ومن حكّمت كأسك فيه فاحكم له بإقالة عند العِثار

وقال حسان بن ثابت :

نولّيها الملامة إن ألمنا اذا ما كان مغث أو لحاء

بساط السلاف

وشرب اليزيدى عند المأمون فلما أخذت منه الكأس أقبل يمتز عليه بتعليمه إياه ، وأساء مخاطبته ، فلما أفاق من سكره عرف ما جرى ؛ فلبس أكفانه ووقف بين يدى المأمون فأنشده

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
ثملت فأبدت منىَ الكأس بعض ما كرهت وما إن يستوى السكر والصحو
ولا سيما إن كنت عند خليفة وفى مجلس ما إن يجوز به اللغو
فان تعف عنى ألف خطوى واسعاً وإلا يكن عفو فقد قصر الخطو

فقال المأمون : لا تثريب عليك ، فالنبيذ بساط يطوى بما عليه

وشرب كوران المغنى عند الشريف الرضى ، فافتقد رداءه وزعم أنه سرق . فقال له الشريف : ويحك من تتهم ؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه ؟ فقال: انشروا هذا البساط حتى آخذ ردائى واطووه الى يوم القيامة!

وكان أبو جعفر أحمد بن جدار كاتب العباس ابن احمد بن طولون ينقل أخبار أبى حفص عمر بن أيوب كاتب احمد بن طولون على الشراب إلى العباس ، فصار اليه أبو حفص فقال : يا أبا جعفر انما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أنس ، ومسرح

لبانه ، ومذادهم ، ومرتع لهو ، ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه ، ولا يخشى عتبه ، وقد اتصل بى ماتنهيه الى أميرنا أبى الفضل أعز الله أمره ، من أخبار مجالستى ، فلا تفعل ، وأنشده

ولقد قلت للاخلاء يوماً   قول ساع بالنصح لو سمعوه
انما مجلس المدام بساط   للمودات بينهم وضعوه
فاذا ما انتهوا الى ما أرادوا   من نعيم ولذة رفعوه
وهُمُ أحرياء ان كان منهم   حافظ ما أتوه أن يمنعوه

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .

وأنشد أبو حفص

كم من أخ أوجست منه سجيةً   فأنست بعد وداده بفراقه
لم أحمد الأيام منه خليقةً   فتركته مستمتعاً بخلاقه

عول أبو حفص فى أكثر كلامه على نقل كلام أبى العباس الناشىء فى الشراب والابيات التى أنشد أولا له

أبو القاسم الصاحب : قدماً حُملت أوزار السكر ، على ظهور الخمر ، وطوى بساط الشراب ، على مافيه من خطأ أو صواب ـ متابعة العقار ، تعذر فى خلع العذار ، وتغنى عن الاعتذار — متابعة الارطال ، تبطل سورة الابطال ، وتدع الشيوخ كالأطفال

أيام الشراب

كتب اسحاق بن ابراهيم الموصلى الى بعض الجلة يستدعيه : يومنا يوم لين الحواشى وطىء النواحى ، وسماؤنا قد أقبلت ، ورعدت بالخير وبرقت ، وأنت قطب السرور ، ونظام الامور ، فلا تفردنا فنقل ، ولا تنفرد عنا فنذل

وكتب بعض أهل العصر وهو السرى الموصلى الى أخ له يستدعيه الى مؤانسته

خلالك ما اختل الصديق سحائبُ   وبشرك ما هبت رياح مواهب

وأنت شقيق الروح تؤثر وصلها ... إذا راعها بالهجر خلٌّ وصاحبُ
ونحن خلال القصف والعزف نجتني ... ثمار ملاهٍ كلهن أطايب
وعندي لك الريحان زين بساطهُ ... بزهر كما زانت سماء كواكب
وجيش كما انجرت ذيول غلائل ... مصندلة تختال فيها الكواعب
وقد أطلقت فيه الشمائل وانثنت ... مفندة عن جانبيها الجنائب
وحافظة ماء الحيـاة لفتيةٍ ... حيـاتهمُ أن تُستلذ المشارب
تُسَرْبلها أخفى اللباس وإنمـا ... يلف بهـا أفواهه والسبائب
على جسد مثل الزبرجـد لم تزل ... تشاكلهُ فى لونه وتناسب
إذا استودعت حُرٌّ اللجين سبائكا ... تصوب فى أحشائها وهو ذائب
وفوق رءوس القوم غيم معلقٌ ... من الند لايجرى ولا هو ذاهب
بوارقهُ خمر الكئوس ورعـدهُ ... أنامل بيضٌ للطبول تلاعب
ولا عائق يثنى عنانك عن هوى ... رغى جانبٌ منه وأومض جانب
فبادر فان اليوم صاف من القذى ... ويارب يوم بادرته النوائب

وقال ابن المعتز :

لاشيء يُسْلي همي سوى قدح ... تدمى عليه أوداج ابريقِ
فى يوم غيم يزجي سحائبهُ ... برق ابتسامٍ ورعد تصفيقِ

وقال الحسن بن محمد الكاتب يصف طبلا :

يا حبذا يومنا نلهو بملهيةٍ ... تلهى بشيء له رأسان فى جسد
قد شُدَّ هذا الى هذا كأنهما ... من شدة الشد مقرونان فى صَفَدِ
نظل نلطم خديه إذا ضربت ... بكل طاقتنا لطما بلا حَرَد
فنسمع الصوت منه حين نضربهُ ... كأنه خارج من ماضغَىْ أسد

الدعوة الى الراح

ومن ألفاظهم فى الاستدعاء :

— نحن فى مجلس قد أبت راحه أن تصفو لنا أو تتناولها يمناك ، وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذناك ، فأما خدود نارنجه فقد احمرت خجلا لإبطائك ، وعيون نرجسه قد حدقت تأميلا للقائك ، فبحياتى عليك إلا تعجّلت ، وما تمهلت .

— نحن بغيبتك كعقد قد تغيبت واسطته ، وشباب قد أخلقت جدّته ، واذا غابت شمس السماء عنا ، فلابد أن تدنو شمس الأرض منا .

— أنت من ينظم به شمل الطرب ، و بلقائه يبلغ كل أرب .

— طر إلينا طيران السهم ، واطلع علينا طلوع النجم .

— ثِب الينا وثوب الغزال ، واطلع علينا طلوع الهلال ، فى غرة شوال .

— كن إلينا أسرع من السهم الى ممره ، والماء إلى مقره .

— جشّم الينا قدمك ، واخلع علينا كرمك ، وان رأيت أن تحضر نا لتتصل الواسطة بالعقد ، ونحصل بقربك فى جنة الخلد ، وتسهم لنا فى قربك الذى هو قوت النفس ، ومادة الأنس .

ولهم فى استدعاء الشراب :

— قد تألف لى شمل إخوان كاد يفترق لعوز المشروب ، واعتمدنا فضلك المعهود ووردنا بحرك المورود ، وأنا ومن ساعدنى الدهر بزيارته من اخوانى وأوليائك ، وقوف بحيث يقف بنا اختيارك ، من النشاط والفتور ، و يرتضيه لنا إيثارك ، من الهم والسرور والأمر فى ذلك اليك ، والاعتماد فى جمع شمل المسرة عليك ، فان رأيت أن تكلنى الى أولى الظنين بك فعلت .

— ألطف المنن موقعا ، وأجلها فى النفوس موضعا ، ما عمّر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة .

— قد انتظمت في رقعة لي في سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام ، باهداء المدام عدنا كبنات نعش والسلام .

فرأيك في إرواء غلتنا بما ينقعها ، والطّول على جماعتنا بما يجمعها

الكناية عن الشراب

ولهم في الكناية عن الشراب :

— قد نشط لتناول ما يستمد البشر ، و يشرح الصدر .

— قد استمطر سحابة الأنس ، واستدر حلوبة السرور ، وقدح زند اللهو ، فهو يجرى دماء العناقيد ، و يفصد عروق الدنان ، و ينظم عقد الندمان .

كتب الحسن بن سهل الى الحسن بن وهب وقد اصطبح في يوم دجن لم يمطر :

أما ترى تكافؤ الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر و بعده ، كأنه قول كثير :

وانى وتهيامى بعزة بعد ما تخليت مما بيننا وتخلتِ
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلتِ

وما أصبحت أمنيتى إلا فى لقائك ، فليت حجاب النأى هتك بيني و بينك ! رقعتى هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلى ولم تتحيفه ، و بعثت نشاطا حركنى للكتاب ، فرأيك فى امطارى سروراً بسار خبرك ، إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم موفقا إن شاء الله .

وكتب الحسن بن وهب :

وصل كتاب الأمير أيده الله وفمى طاعم ، و يدى عاملة ، ولذلك تأخر الجواب قليلا ، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم واساءته ، وما استوجب ذنبا استحق به ذماً . لأنه اذا أشمس حكى حسنك وضياءك ، وان أمطر حكى جودك وسخاءك ، وان غم أشبه ظلك وفناءك ، وسؤال الامير عن نعمة من نعم الله عز وجل أعفى بها

آثار الزمان السيء عندي ، وأنا كما يحب الأمير صرف الله الحوادث عنه ، وعن حظي منه .

غرائب الأخلاق

وذم رجل رجلا فقال : دعواته ولائم ؟ وأقداحه محاجم ، وكؤوسه محابر ، ونوادره بوادر .

وقال أبو الفتح كشاجم : كان عندي بعض المجان من النبيذيين فسمعني وأنا أحمد الله جل ذكره في وسط الطعام لشيء خطر ببالي من نعم الله التي لا تحصى ، فنهض وقال : أعطي الله عهداً ان عاودت ، وما معنى التحميد هنا ، كأنك تعلمنا أنا قد شبعنا . ثم مال إلى الدواة والقرطاس وكتب ارتجالا

وحمد الله يحسن كل وقتٍ   ولكن ليس في أولى الطعامِ
لأنك تحشم الأضياف فيهِ   وتأمرهم باسراع القيامِ
وتؤذنهم وما شبعوا بشبعٍ   وذلك ليس من خلق الكرامِ

بعد المتاب

وكتب المريمي إلى بعض اخوانه وقد ترك النبيذ

إن كنت تبت عن الصهباء تشربها   نسكا فما تبت عن برٍّ واحسان
تب راشداً واسقنا منها وان عذلوا   فيما فعلت فقل ما تاب اخواني

وقال بعض النبيذيين وقد ترك الشرب

تحاموني لتركي شرب راحٍ   أقمت مكانها الماء القَراحا
وما انفردوا بها دوني لفضل   إذا ما كنت أكثرهم مزاحا
وأرفعهم على وتر وصنجٍ   وأطرفهم وأظرفهم مزاحا
إذا شقوا الجيوب شققت جيبي   وان صاحوا علوتهمُ صياحا

فضل الصهباء

فقر للنبيذيين :

— ما جشمت الدنيا بأظرف من النبيذ

— ماالعقار ، والوقار

— إنما العيش، مع الطيش

— الراح ترياق سم الهم

— النبيذ ستر فانظر مع من تهتكه .

— اشرب النبيذ ما استبشعته ، فاذا استطبته فدعه

— لولا أن المخمور يعلم قصته ، لقدم وصيته

— الصاحي بين السكارى كالحي بين الموتى ، يضحك من عقلهم ، ويأكل من نقلهم

— أحمق ما يكون السكران إذا تعاقل

— التبذل على النبيذ ظرف ، والوقار عليه سخف

— حد السكر أن تعزب الهموم ، ويظهر السر المكتوم

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب : ما أنصفتها ، تضحك في وجهك ، وتعبس في وجهها !

وقال الطائي

إذا ذاقها وهي الحياة رأيته   يعبّس تعبيس المقدّم للقتل

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال

وأن أقطب وجهي حين تبسم لي   فعند بسط الموالي يحفظ الأدب

وترك رجل النبيذ فقيل له : لم تركته ، وهو رسول السرور إلى القلب ؟ قال

ولكنه رسول بأس يبعث إلى الجوف فيذهب إلى الرأس

وقيل لبعضهم : ما أصباك بالخمر ؟ فقال إنها تسرج في يدى بنورها ، وفى قلبي بسرورها .

كأن الناشيء نظر إلى هذا الكلام فقال

راح إذا علت الأكف كؤوسها   فكأنها من دونها في الراح
وكأنما الكاسات مما حولها   من نورها يسبحن فى ضحضاح
لو بث فى غسق الظلام ضياؤها   طلع المساء بغرة الاصباح
نفضت على الأجسام ناصع لونها   وسرت بلذتها إلى الأرواح

البيت الأول كقول البحترى

يخفى الزجاجة ضوؤها فكأنها   فى الكف قائمة بغير إناء

وللناشيء فى هذا المعنى

ومُدامة يخفى النهارُ لنورها   وتذل أكناف الدجا لضيائها
صُبّت فأحدق نورها بزجاجها   فكأنها جعلت اناء إنائها
وترى إذا صبت بدت فى كأسها   متقاصر الأرجاء عن أرجائها
وتكاد إن مزجت لرقة لونها   تمتاز عند مزاجها من مائها
صفراء تُضحي الشمس إن قيست بها   فى ضوئها كالليل فى اضوائها
وإذا تصفحت الهواء رأيتهُ   كدر الأديمة عند حسن صفائها
تزداد من كرم الطباع بقدر ما   تودى به الأيام من أجزائها
لا شيء أعجب من تولّد برئها   من سقمها ودوائها من دائها

وقال

ان رمت وصف الراح فأت بما   فيها من الأوصاف من قُرْبِ
هى ماء ياقوت وان مزجتْ   فى كأسها بالبارد العذب
فكأنها وحَبابها ذهبٌ   كلّلته باللؤلؤ الرطب

ولأهل العصر : الدنيا معشوقة ريقها الراح .

أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في صاعد بن مخلد

فتًى هاجر الدنيا وحرّم ريقها ... وهل ريقها إلا الرحيق المورّدُ

ولو طمِعَتْ في عطفه ووصاله ... أباحته منها مرشفاً لا يصرّدُ

— الخمر أشبه شيء بالدنيا لاجتماع اللذات والمرارة فيها

— الخمر مصباح السرور ، ولكنها مفتاح الشرور

— لكل شيء سر ، وسر الراح السرور

— لا يطيب المدام الصافي ، إلا مع النديم المصافي

مجالس الانس وآلات اللهو

ومن ألفاظهم في صفات مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

— مجلس راحه ياقوت ، ونوره ورد ، ونارنجه ذهب ، ونرجسه دينار ودرهم يحملهما زبرجد .

— عندنا أترجّ كأنه من خلقك خُلق ، ومن شمائلك سُرق ، ونارنج كـكرات من سَفن ذُهّبت(١) ، أو ثدي أبكار خلقت

— مجلس أخذت فيه الأوتار تتجاوب ، والأقداح تتناوب

— أعلام الأنس خافقة ، وألسن الملاهي ناطقة

— نحن بين بدور ، وكاسات تدور ، وبروق راح ، وشموس أقداح

— قد نشأت غمامة الند ، على بساط الورد

— مجلس قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وفاحت مجامير الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، ونطقت ألسن العيدان ، وقامت خطباء الأوتار ، وهبت رياح الاقداح

(١) السفن بالفتح جلد سمك خشن يسفن به الخشب فيلين

وطلعت كواكب الندمان ، وامتدت سماء الند

- مجلس من رآه حسب الجنان قد اصطفت عيونها ، فجعلت فى قدر من الارض ، وتخيرت فصوصها فنقلت إلى مجلس الأنس واللهو

- قد فض اللهو ختامه ، ونشر الانس أعلامه

- قد هبت للانس ريح برقها الراح ، وسحابها الأقداح ، ورعودها الأوتار ، ورياضها الأقمار

- قد فرغنا للهو والدهر عنا فى شغل

جل هذا من قول بعض أهل العصر

كم جوًى مثله رسمٌ مَثَلَ ودم قد طُلّ أثناء طَلَلْ
ولآلٍ كلّل الخدّ بها لعب البين بربات الكللْ
حبذا عيش الليالى باللوى لو تجافى الدهر عنا وغفلْ
إذ فرغنا فيه للهو وقد باتت الأقدار عنا فى شُغُلْ
وأدرنا ذهباً فى لهبٍ كلما أخمد بالماء اشتعل

- قد اقتعدنا غارب الأنس ، وجرينا فى ميدان اللهو

- عمدنا إلى أقداح اللهو فأجلناها ، ولمراكب السرور فامتطيناها

- قد امتطينا غوارب السرور بالأقداح

- مدامة تورد ريح الورد ، وتحكى نار ابراهيم فى اللون والبرد ، ولست أدرى أشقيق ، أم عقيق ، أم رحيق ، أم حريق

- راح كأن الديوك صبت أحداقها فيها

- راح كأنما اشتقت من الروح والراحة .

قال ابن الرومى

والله ما ندرى لأية علة يدعونها فى الراح باسم الراحِ
ألريحها أم رَوحها تحت الحشى أم لارتياح نديمها المرتاح

— راح كالنار ، والنور ، والنَّور ، أصفى من البلور ، ومن دمع المهجور .

— روح نور لها من الكأس جسم ، كأنها شمس فى غلالة سراب .

— شراباً كاد أقول هو أصفى من مودتى لك ، ومن نعم الله عندى فيك ، وأطيب من إسعاف الزمان بلقائك .

— مدامة قد سبك الدهر تبرها قصفا .

— كأس كأنها نور ضميره نار ، راح كياقوتة فى درة أصفى من ماء السماء ، ودمع العاشقة المرهاء (١) .

— أحسن من الدنيا المقبلة ، والنعم المكملة .

— أحسن من العافية فى البدن ، وأطيب من الحياة فى السرور .

— أرق من نسيم الصَّبا ، وعهد الصِّبا .

— أرق من دمع محب ، وشكوى صب .

— أرق من دموع العشاق ، مرتها لوعة الفراق

— مزج نار الراح بنور الماء .

— راح كأنها معصورة من وجنة الشمس ، فى كأس كأنها مخروطة من فلقة البدر .

— كأسها ملء اليد ، وريحها ملء البلد ، تصب على الليل ثوب النهار ، كأنها فى الكأس معنى دقيق ، فى ذهن لطيف .

— كأن الراح من خده معصورة ، وملاحة الصورة عليها مقصورة .

وهذا من قول الطائى :

كأنها من خده تُعْصَرُ .

وقال عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور :

معتقة من كف ظبي كأنما — تناولها من خده فأدارها

(١) مرهاء : بيضاء

— تمشت الصهباء فى عظامهم ، وترقت الى هامهم ، وماست فى أعطافهم ، ومالت بأطرافهم .

— سارت فيهم الكؤوس ، ونالت منهم سورة الخندريس ، شربت عقولهم ، وملكت قلوبهم .

خمريات أبى نواس

وقال أبو نواس ، وهو أستاذ الناس فى هذا الشأن .

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم
تصف الطلول على السماع بها   أفذو العيان كأنت فى العلم
واذا وصفت الشىء متبعا   لم تخل من غلط ومن وهم

وقال :

الكأس أهواها وان رزأت   بلغ المعاش وقللت فضلى (١)
صفراء مجدها مرازبها   جلت عن النظراء والمثل
ذخرت لآدم قبل خلقته   فتقدمته بخطوة القبل
فاعذر أخاك فانه رجل   مرنت مسامعه على العذل

وقال :

فتسليت بشرب عقار   نشأت فى حجر أم الزمان
فتناساها الجديدان حتى   هى أنصاف شطور الدنان
واقترعنا مرة الطعم بها   نزق البكر ولين العوان
واحتسينا من رحيق عتيق   وشديد كامل فى ليان
لم يخفها منزل القوم حتى   نجمت مثل نجوم السنان
أو كعرق السام تنشق منه   شعب مثل انفراج البنان

(١) بلغ المعاش : مواد الرزق

وقال :

وخدين لذات معلل صاحب ۞ يقتات منه فكاهة ومزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتئد ۞ حسبي وحسبك ضوءها مصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شربةً ۞ كانت له حتى الصباح صباحا

وهذا كقوله :

وَخَمَّار أنخت عليه ليلا ۞ قلائص قد تعبن من السِّفارِ
فترجم والكرى في مقلتيه ۞ كمخمور شكا ألم الخُمارِ
أبن لي كيف صرت الى حريمي ۞ وجفن الليل مكتحلٌ بقار
فقلت له ترفق بي فاني ۞ رأيت الصبح من خلل الديار
فكان جوابه أن قال كلا ۞ وما صبحٌ سوى ضوء العقار
وقام الى الدنان فسد فاها ۞ فعاد الليل مسدول الإزار

سورة الكأس

وقال بعض المحدثين :

ما زال يشربها وتشرب عقلهُ ۞ خبلا وتؤذن روحه برواح
حتى انثنى متوسدا بيمينهِ ۞ سكراً وأسلم روحه للراح

وقال الصنوبري وذكر شَربا (١)

نازعتهم كأسا تخال نسيمها ۞ مسكا تضوع في الاناء عتيقا
شقت قناع الفجر لما غادرت ۞ كف النديم قناعها مشقوقا
صبغت سواد دجاه حمرة لونها ۞ فكأنه سبج أعيد عقيقا

وقال أبو الشيص :

وكأس كسا الساقي لنا بعد هجعة ۞ حواشيها ما مجَّ من ريقة العنبْ

(١) الشرب بالفتح هم القوم يشربون

كأن اطراد الماء في جنباتها — تربع ماء الدر في سُبُك الذهب
سقاني بها والليل قد شاب رأسه — غزال بحناء الزجاجة مختضب

وقال أبو عدي الكاتب :

وليس لها حد تحيط بوصفه — لغات ولا جسم يباشره لمسُ
ولكنه كالبرق أومض ماضياً — فلم يبق منه غير ما تذكر النفسُ

ساقي المدام

وقال ابن المعتز :

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجا — عُقاراً كمثل النار حمراء قرقفا
فناولني كأساً أضاءت بنانه — تدفق ياقوتاً ودراً مجوفا
ولما أريناها المزاج تسعرت — وخِلْت سناها بارقا قد تكشفا
يطوف بها ظبي من الانس شادنٌ — يقلب طرفاً فاسق اللحظ مدنفا
عليم باسرار المحبين حاذق — بتسليم عينيه اذا ما تخوفا
فظل يناجيني تقلب طرفه — بأطيب من نجوى الاماني وألطفا

ذكريات الشباب

وقال أيضا :

ألا عُج على دار السرور فسلِّم — وقل أين لذاتي وأين تكلمي
وقل ما حلت بالعين بعدك لذة — سواك وان لم تعلمي ذاك فاعلمي
وصفراء من صبغ المزاج برأسها — إذا مزجت إكليل در منظم
قطعت بها عمر الدجى وشربتها — ظلامية الاحشاء نورية الدم

رسائل البديع

كتب أبو الفضل بديع الزمان الى أبي عدنان بن محمد الضبي يعزيه عن بعض أقاربه :

اذا ما الدهر جر على أناس حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى [1] إذا ساء ، ويخص بالنعمة اذا شاء ، فليفكر الشامت ، فان كان أفلت ، فله أن يشمت ولينظر الانسان في الدهر وصروفه ، والموت وصنوفه ، من فاتحة أمره ، إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه ، أثراً في نفسه ، أم لتدبيره ، عوناً على تصويره ، أم لعمله ، تقديماً لأمله ، أم لحيله ، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، خلق مقهوراً ، ورزق مقدوراً ، فهو يحيا جبرا ، ويهلك صبرا ، وليتأمل المرء كيف كان قبلا ، فان كان العدم أصلا ، والوجود فصلا ، فليعلم الموت عدلا . فالعاقل من رقع من جوانب الدهر ماساء بما سر ، ليذهب ما نفع بما ضر ، فان أحب أن لايحزن فلينظر يمنة ، هل يرى الا محنة ، ثم ليعطف يسرة ، هل يرى الا حسرة ، ومثل الشيخ الرئيس أطال الله بقاءه من فطن لهذه الأسرار ، وعرف هذه الديار ، فأعد لنعيمها صدرا لايملؤه فرحاً ، ولبؤسها قلباً لايطيره ترحاً ، وصحب البرية برأي من يعلم أن للمتعة حداً ، وللعارية ردا ، ولقد نعي الي أبو قبيصة قدس الله روحه ، وبرد ضريحه ، فعرضت علي آمالي قعودا ، وأماني سودا ، وبكيت والسخي جوده بما يملك ، وضحكت وشر الشدائد مايضحك ، وعضضت الأصبع حتى أدميته وذممت الموت حتى تمنيته ، والموت أطال الله بقاء الشيخ الرئيس خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى عاد عرفا ، والدنيا قد تنكرت حتى

(١) الجفلى : الدعوة العامة

صار الموت أخف خطوبها ، وخبثت حتى صار أقل عيوبها ، ولعل هذا السهم آخر ما فى كنائنها ، وأنكأ ما فى خزائنها ، ونحن معاشر التبع نتعلم الأدب من أخلاقه والجميل من أفعاله ، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر ، فلير فيهما رأيه ان شاء الله

كرائم النفوس

وله إلى بعض إخوانه جوابا عن كتاب كتبه يهنيه بمرض أبى بكر الخوارزمى وكانت بينهما مقارعة ، ومنازعة ، ومنافرة ، ومهاترة ، ولهما مجالس مستطرفة قهره البديع فيها وبهره، وبكّته ، حتى أسكته ، ليس هذا موضعها ، ولكنى أذكر بعد هذه الرسالة بعض مكاتبات جرت بينهما اذ كان ما لها من الابتداء والجواب آخذا بوصل الحكمة وفصل الخطاب

« الحر — أطال الله بقاءك — لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهى أمانى ، وان وجدت فهى عوارى ، وأن محن الأيام وإن طالت فستنفد ، وإن لم تصب فكأنْ قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ؟ والشامت ان أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ؛ وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الإماتة ! فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ؟ والدهر غَرثان طعمه الخيار [1] وظمآن شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله : إن ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه وداً جميلا . والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الاحقاد فلا تتصور حالتى إلا بصورتها من التوجع لعلته ، والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه ووقانى سماع المحذور فيه ، بمنه وحوله ، ولطفه وطَوْله »

(١) غرثان : جوعان

بين الهمذانى والخوارزمى

قال البديع فى سياقة أخباره مع أبى بكر الخوارزمى :

أولها أنا وطئنا خراسان ، فما اخترنا إلا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم انا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على الغيب فنتمشقه ، ونقدّر أنا اذا وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت كلمة الغربة نظمتنا ، ولحمة الأدب جمعتنا ، وقد قال شاعر القوم غير مدافع

آجارتنا إنا غريبان هاهنا وكلٌّ غريب للغريب نسيبُ

فأخلف ذلك الظن كل الاخلاف، واختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وكان قد اتفق علينا فى الطريق من العرب اتفاق ، لم يوجبه استحقاق ، من بزّة بزّوها ، وفضة فضّوها ، وذهب ذهبوا به ، ووردنا نيسابور براحة ، أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار (١) وزى أوحش من طلعة المعلم ، بل اطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلاّ قصبة جوراه ، ولا وطئنا إلا عتبة داره ، وهذا بعد رقعة قدمناها ، وأحوال أنس نظمناها ، ونسخة الرقعة « أنا قرب الاستاذ أطال الله بقاه : كما طرب النشوانُ مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه : كما انتفض العصفور بلله القطرُ ، ومن الامتزاج بولائه : كما التقت الصهباء والبارد العذبُ ، ومن الابتهاج لمزاره : كما اهتز تحت البارح الغصن الرطبُ ، فكيف نشاط الاستاذ سيدى لصديق طرأ اليه من ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف

رث الشمائل مخلق الأثواب * بكرت عليه مغيرة الأعرابِ

وهو أيده الله ولى انعامه ، بانفاذ غلامه ، الى مستقرى ، لأفضى اليه بما عندى

(١) جوف حمار ، أو جوف العير ، اسم لواد مقفر

إن شاء الله » فلما أخذتنا عينه سقانا الدُّردى من أول دنه ، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه ، من طرفٍ نظر بشطره ، وقيام دفع فى صدره ، وصديق استهان بقدره وضيف استخف بأمره ، لـكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، وولّيناه خطة نفاقه ، فواصلناه إذ جانب ، وقاربناه إذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الأمر فى ذلك الى زى استفته ، ولباس استرثه ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونستلين قياده ، ونقيم منآده ، بما هذه نسخته « الاستاذ أبو بكر والله يطيل بقاءه أزرى بضيفه أن وجده يضرب اليه آباط القلة ، فى أطمار الغُربة ، فعمل فى رتبته أعمال المصارفة ، وفى الاهتزاز اليه أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، واشارة بشطر الـكف ودفع فى صدر القيام عن التمام ، ومضغ للـكلام ، وتكلف لرد السلام ، وقد قبلت ترتيبه صبرا ، واحتملته وزرا ، واحتضنته نكرا ، وتأبطته شرا ، ولم آلُهُ عذرا ، فان المرء بالمال ، وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفى هذه الاسمال ، أتقزّز من صف النعال ، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت ان بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح ، وناسا يجرون المطارف ، ولا يمنعون المعارف

وفيهم مقامات حسانٌ وجوههم * وأندية ينتابها القول والفعلُ

ولو طوّحت بأبى بكر أيده الله مطارح الغربة ، لوجد منزل البشر رحيبا ، ومحط الرحل قريبا ، ووجه المضيف خصيبا ، فرأى الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ودّ ، والمر الذى يتلوه شهد ، موفقا ان شاء الله »

فأجاب بما نسخته

وصلت رقعة سيدى ورئيسى أطال الله بقاه الى آخر السكباج[1] وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجرة التى لا يخلو منها من مسة عسر ، أو نبا به دهر ، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه ، ومظنة مشتكى ما فى نفسه ، أما ما شكاه سيدى ورئيسى من مصافتى إياه فى القيام ، فقد وفيته حقه أيده

(١) السكباج : قائمة ألوان الطعام

الله سلاما وقياماً ، على قدر ماقدرت عليه ، ووصلت اليه ، ولم أرفع عليه إلا السيد أبا البركات، أدام الله عزه ! وما كنت لأرفع أحدا على مَنْ أبوه الرسول ، وأمه البتول وشاهداه التوراة والانجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ، فأما القوم الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف : حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وجمال تفصيل وجملة ، ولقد جاورتهم فأحمدت المَراد ، وبلغت المراد

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ   فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للأحرار كافة ، ولسيدى من بينهم خاصة ، فان أعانني الدهر على مافى نفسى بلغت له مافى النية ، وجاوزت به مسافة القدر والأمنية ، وإن قطع علىّ طريق عزمى بالمعارضة ، وسوء المناقضة ، صرفت عنانى عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار

فما النفس إلا نطفة بقرارةٍ   اذا لم تكدّر كان صفواً غديرها

و بعد فحبذا عتاب سيدى اذا استوجبنا عتبا ، واقترفنا ذنبا ، فأما أن يسلمنا الى العربدة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله ، ولست أسومه أن يقول (استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين)ولكن أسأله أن يقول (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)

فحين ورد الجواب وعين العذر رَمِدة تركناه بعَره، وطويناه على غَره،وعمدنا الى ذكره فسحوناه ، ومن صحيفتنا محوناه، وصرنا الى اسمه فأخذناه ونبذناه ، وتنكبنا خطته ،وتجنبنا حطته ،فلا طرنا اليه ، ولا طرنا به ، ومضى على ذلك الاسبوع، ودبت الايام ، ودرجت الليالى ، وتطاولت المدة ، وتصرم الشهر ، وصرنا لا نعير الأسماع ذكره ، ولا نودع الصدور حديثه ، وجعل هذا الفاضل يستزيد ، ويستعيد ، بألفاظ تقطعها الاسماع من لسانه ، وتؤديها الىّ ، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه ، وتعيدها علىّ ، فكاتبناه بما هذه نسخته :

« أنا أرد من الأستاذ سيدى أطال الله بقاه شرعة وده وان لم تصف ، وألبس خلعة

بره وإن لم تضف ، وقُصاراى أن أكيله صاعا عن مد ، فانى و إن كنت فى الادب ، دعى النسب ، ضيق المضطرب،وسيء المنقلب،أمت إلى عشرة أهله بنيقة ،وانزع الى خدمة أصحابه بطريقة ، ولكن بقى ان يكون الخليط منصفا فى الوداد ، اذا زرت زار ، وان عدت عاد . وسيدى أبقاه الله ناقشنى فى القبول أولا ، وصارمنى فى الاقبال آخرا ، فأما حديث الاستقبال وأمر الإنزال والأنزال (١) فنطاق الطمع ضيق عنه ، غير متسع لتوقعه منه ، وبعد فكلفةالفضل بينة ، وفروض الود متعينة ، وأرض العشرة لينة ، وطرقها هينة ، فلِمَ اختار قعود التعالى مركبا ، وصعود التغالى مذهبا ، وهلاّ ذاد الطير عن شجر العشرة ، وذاق الحلو من ثمرها ، فقد علم الله أن شوقى اليه قد قدّ الفؤاد بَرْحًا إلى برح ، ونكأه قرحا الى قرح ، ولكنها مِرّة مُرّة ، ونفس حرة ، لم تقد إلا بالاعظام ، ولم تُلق الا بالاجلال والاكرام ، واذا استعفانى من معاتبته ، وأعفى نفسه من كُلَف الفضل يتجشمها ، فليس الا غصص الشوق أتجرعها ، وحلل الصبر أتدرّعها ولم أعرِهِ من نفسى ، فأنا لو أعرت جناحَىْ طائر لما طرت الا اليه ، ولا وقعت إلا عليه

أحبك ياشمس النهار وبدره ُ وان لامنى فيك السُّهى والفراقدُ
وذاك لأن الفضل عندك باهرٌ وليس لأن العيش عندك باردُ »

فلما وردت عليه الرقعة حشد تلاميذه وخدمه ، وجشم للايجاب قدمه ، وطلع علينا مع الفجر طلوعهُ ، ونظمت حاشيتنا دار الأمير أبى الطيب ، فقلنا الآن تشرق الحشمة وتنوّر ، وتنجد فى العشرة وتغوّر ، وقصدناه شاكرين لما أتاه ، وانتظرنا عادة بره ، وتوقعنا مادة فضله ، فكان خُلَّبا شِمناه ، وآلاً وردناه ، (٢) وصرفنا الأمر فى تأخره ، وتأخرنا عنه ، الى ماقاله ابن المعتز

---

(١) الأنزال : جمع نزل وهو ما يقدم للضيف
(٢) الخلب البرق الكاذب . والآل السراب

انا على البعاد والتفرق لنلتقي بالذكر ان لم نلتق

وأنشدنا قول ابن عصرنا

أحبك في البتول وفي أبيها ولكني أحبك من بعيدِ

وبقينا نلتقي خيالا ، ونقنع بالذكر وصالا ، حتى جعلت عواطفه تهب ، وعقاربه تدبّ

والمجلس طويل جداً

قلت ان كنت خرجت لطول هذا الكلام عن ضبط الشرط ، فلعلى أسامح فيه لفضله ، وعدم مثله ، وهو وان كان في باب الاتصال ، فهو بتقدير الانفصال ، لقيام كل رسالة بذاتها ، وانفرادها بصفاتها

وكتب الى رئيس هراة عدنان بن محمد يصف ماجري بينه وبين الخوارزمي :

«ما ألوم هذا الفاضل على بساط شر طواه ، وموقد حرب اجتواه، ولكني ألومه على مانواه ، ثم لم يتبع هواه ، ورامه ، ثم لم يبلغ آثامه ، وأقول قد ضرب فأين الايجاع وأنذر فأين الايقاع ؟ وهذه بوارقه ، فأين صواعقه ؟ وذلك وعيده ، فأين عديده ؟ وتلك بنوده ، فاين جنوده ؟ وأنشد

(هذى معاهده فأين عهوده)

وما أهول رعده ، لو أمطر بمده : اللهم لا كفران ، ولعن الله الشيطان ! فانه أشفق لغريب أن يظهر عواره ، وان طار طواره [1] ، وإن كان قصد هذا القصد فقد أساء الى نفسه من حيث أبقى عليّ ، وأوهم الناس أنه هاب البحر أن يخوضه ، والأسد أن يروضه ، وشجعني على لقائه ، بعد ما روّعني بإبائه ، فبينا كنت أنشد * إن جنبي على الفراش لنابِ * اذ أنشدت * طاب ليلي وطاب فيه شرابي * وبينا أنا أقول * مالقلبي كأنه ليس مني * إذ قلت * أين من كان موعدا لي يأتي * فلو أن هذا الفاضل قضى حقنا بالزيارة عند قدومنا أو الاستزارة ، لكان في الضرب أحسن

(١) الطوار بالفتح الحوم حول الشيء

وفى طريق المعاشرة أذهب ، لا ، ولكنه وعد بالمباراة أولا ، وهددنا بالمسائل ثانيا ، وأخلف بالتخلف ثالثا ، فأبلغ وجدى اليه ، وأعرض شوقى عليه ، وقل له ان كنت ندمت على النضال ، فلا تندم على الافضال ، فان طويتنا حيث الجهاد ، فانشرنا حيث الوداد ، وإن لم تلقنا فى باب المكاشرة ، فأتنا من باب المعاشرة

خطاب البديع الى سهل بن محمد

وله إلى الامام أبى الطيب سهل بن محمد

« قد كان الشيخ يعدنى عن هذه الحضرة عداة أشم لها الآنف ، لا ذهابا بتلك الفواضل عنها ، لكن استحالة من هذا الزمان أن يجود بها ، فحين أشرفت على الحضرة مالت إلىّ أمواج الشرف منها ، وخلص إلىّ نسيم الكرم عنها ، وأتحفنى على رسم الاجلال بمركوب عز شامخ ، ومركب ذهب سابغ ، وجنيب شرف زائد ، وسرت بحمد الله محفوفا بأعيان الكتاب ، وعيون الرجال ، حتى شافهت بساط العز مستقبلا ملك الشرق،أدام الله علوه ، فجذب ضبعى عن أرض الخدمة ، إلى جوار ولى النعمة ، حرس الله مكانه ، فاهتز اهتزازا فات سمة الاكرام ، وتجاوز اسم الاعظام إلى القيام ، فقبلت من يمناه مفتاح الأرزاق ، وفتاح الآفاق ، ولحقت منه بقاب العقاب[1] وخاطبنى بمخاطبات نشدت بها ضالة الآمال ، وهلم جرًّا إلى ما تبعها من جميل الانزال ، وسنى الاجزال ، وطرأت من الشيخ العميد على شخص يسعه الخاتم ولا يسعه العالم ، ويهتز عند المكارم كالغصن ، ويثبت عند الشدائد كالركن ، وسلطان يحلم حلم السيف مغمدا ، ويغضب غضبه مجردا ، فهو عند الكرم لين كصفحته ، وعند السياسة خشن كشفرته ، وملك يأتى الكرم نية ، والفضل سجية ، ويفعل الشر كلفة أو خطية ، فهو ضرور بآلاته ، نفوع بذاته ، عطارد قلمه ودواته ، والمريخ سيفه وقناته ، عيبه أن لا عيب فيه ، فيصرف عين الكمال عن معاليه ، وصادفت من الشيخ الموفق أيده الله ملكا يشاهد عيانا ، وجبلا قد سمى انسانا ، وحسنا قد ملىء إحسانا

(١) قاب العقاب هو بيضه الذى يضرب به المثل فى عزة المنال

وأسداً قد لقّب سلطانا ، وبحراً قد أمسك عنانا ، وحططت رحلي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عزه فوجدت حكمي في ماله أنفذ من حكمه ، وقسمي من غناه أوفر من قسمه ، واسمي في ذات يده مقدما على اسمه ، ويدي إلى خزانته أسرع من يده. وان قصدت أن أفرد لكل مدحا ، وأعبر الجملة شرحا ، أطلت ، فهلم جرا إلى ما افتتحت الكتاب لأجله : ورد للخوارزمي كتاب يتقلب فيه على جنب الحرد ، ويتقلى على جمر الضجر ، ويتأوه من خمار الخجل ، ويتعثر في أذيال الكلل ، ويذكر أن الخاصة قد علمت لأينا كان الفلج ، فقلت است البائن أعلم ، والخوارزمي أعرف ، والاخبار المتظاهرة أصدق ، وحلبة السباق أحكم ، وما مضى بيننا أشهد ، والعود إن نشط أحمد ومتى استزاد زدنا ، وإن عادت العقرب عدنا ، وله عندي اذا ماشاء ، كل ما ساء »

وهي طويلة فيها هنات صنت الكتاب عنها. وقد أعاد البديع معنى قوله في صدر حكايته مع الخوارزمي فقال في رقعة كتبها إلى أبي سعيد الاسماعيلي وقد وقفت به الضرورة على تلك الصورة من سلب العرب ماله

كتابه الى أبي سعيد الاسماعيلي

« كتابي بل رقعتي أطال الله بقاء الشيخ ، وقد بكرت عليّ مغيرة الأعراب ، كمهلهل ، وربيعة بن مكدم ، وعتيبة بن الحارث بن هشام ، وأنا أحمد الله الى الشيخ الفاضل ، وأذم الدهر ، فما ترك لي من فضة إلا فضها ، ولا ذهب إلا ذهب به ، ولا علق إلا علقه ، ولا عقار إلا عقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مال إلا مال إليه ، ولا سبد إلا استبد به ، ولا لبد إلا لبد فيه ، ولا بزة إلا بزها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعة إلا انتزعها ، ولا خلعة إلا خلعها ، وأنا داخل نيسابور ولا حلية إلا الجلدة ، ولا بُرد إلا القشرة ، والله ولي الخلف يعجله ، والفرج يسهله ، وهو حسبي ونعم الوكيل »

وليس البديع بأبي عذرة هذا الخطاب وسترى نظير هذا المعنى في هذا الكتاب.

المقامة الفزارية

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح الاسكندرى قال :

حدثنى عيسى بن هشام قال : كنت فى بعض بلاد بنى فزارة مرتحلا نجيبة ، وقائداً جنيبة ، يسبحان سبحا ، وأنا أهيم بالوطن : فلا الليل يثنيني بوعيده ، ولاالبعد يلويني ببيده ، وظللت أخبط ورق النهار ، بعصا التسيار ، وأخوض بطن الليل ، بحوافر الخيل ، فبينا أنا فى ليلة يضل بها الغطاط[1] ولا يبصر بها الوطواط ، أسبح ولا سابح إلا السبع ، ولا بارح إلاالضبع ، إذ عنّ لى راكب تامّ الآلات ، يطوى منشور الفلوات ، فأخذنى منه ما يأخذ الأعزل من شاكى السلاح ، لكنى تجلدت فقلت أرضك لا أمّ لك ! فدونك شرط الحداد ، وخرط القتاد ، وخصم ضخم وحمية أزدية ، وأنا سلم ان شئت ، وحرب إن أردت ، فقل من أنت ؟ قال سلما أصبت ، قلت خيرا أجبت ، فمن أنت ؟ قال نصيح ان شاورت ، فصيح ان حاورت ، ودون اسمى لثام ، لا تميطه الأعلام . قلت فما الطعمة ؟ قال أجوب جيوب البلاد ، حتى أقع على جفنة جواد ، ولى فؤاد يخدمه لسان ، و بيان يرقمه بنان ، وقصاراي كريم ينفض إلىّ حقيبته ، ويخفض لى جنيبته ، كابن حرة طلع علىّ بالأمس ، طلوع الشمس ، وغرب عنى بغروبها ، لكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودع وشيعتنى آثاره ، ولا ينبئك عنها ، أقرب منها ، وأومأ إلى ما كان يلبسه ، فقلت شحاذ ورب الكعبة أخاذ ، له فى الصنعة نفاذ ، بل هو فيها أستاذ ، ولا بد أن ترشح له وتسح عليه ، وقلت له يافتى قد جلّيت عبارتك فأين شعرك من كلامك ؟ فقال وأين كلامى من شعرى ! ثم استمدّ غريزته ورفع عقيرته بصوت ملأ الوادى وأنشأ يقول :

وأروع أهداه لى الليل والفلا وخمس تمس الأرض لكن كلا ولا
عرضت على نار المكارم عوده فكان معمًا فى السوابق مخولا

(١) الغطاط بالفتح هو القطا

وخادعته عن ماله فخدعته وساهلته في بره فتسهلا
ولما تجالينا وأحمد منطقى بلانىَ في نظم القريض بما بلا
فما هز إلا صارما حين هزنى ولم يلقنى إلا إلى السبق أولا
فلم أره إلا أغر محجبا وما تحتـه إلا أغر محجلا

فقلت : على رِسلك يافتى ، ولك فيما يصحبنى حكمك . فقال الجنبية، قلت: إنّ[1] وما عليها . ثم قبضت بجمعى عليه ، وقلت لاوالله الذى ألهمها لمسا ، وشقها من واحدة خمسا ، لا تزايلنا أو نعلم علمك ، فحدر لثامه عن وجهه فاذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندرى فما لبثت أن قلت :

توشحت أبا الفتح بهذا السيف مختالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتّالا

كلكم لآدم

وعلى ذكر قوله « إنّ وماعليها » قال أبو عبيدة : وفد عبد الله بن الزبير الأسدى على عبد الله بن الزبير بن العوام فقال يا أمير المؤمنين إن بينى و بينك رحما من قبل فلانة الكاهلية : هى أختنا ، وقد ولدتكم ، وأنا ابن فلان ، ففلانة عمتى . فقال ابن الزبير هذا كما ذكرت ، و إن فكرت فى هذا أصبت ، الناس كلهم يرجعون الى أب واحد ، وأم واحدة ، فقال يا أمير المؤمنين ان نفقتى قد ذهبت ، قال ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك الى أن ترجع إليهم ، قال يا أمير المؤمنين إن ناقتى قد نقبت ودبرت ، فقال له أنجد بها يبرد خفها ، وارقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وسر عليها البردين ، قال يا أمير المؤمنين إنما جئتك مستحملا ، ولم آتك مستوصفا ، لعن الله ناقة حملتنى إليك ! قال ابن الزبير : إنّ وراكبها ! فخرج وهو يقول :

أرى الحاجات عند أبى خبيب نكدن ولا أميـة فى البلادِ
من الأعياص أو من آل حرب أغر كغرة الفرس الجواد

(١) إنّ ـ هنا ـ معناها : نعم

ومالى حين أقطع ذات عرق ... الى ابن الكاهلية من معاد

وقلت لصحبتى أدنوا ركابى ... أفارق بطن مكة فى سواد

فبلغ شعره هذا عبد الله بن الزبير فقال لو علم أن لى أما أحسن من عمته الكاهلية لنسبنى إليها ، وكان ابن الزبير يكنى أبا بكر وأبا خبيب

فرس ابن الزيات

قال الصولى أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرسا أشهب أحمّ ، كان عنده مكينا ، وكان به ضنينا ، فقال يرثيه :

قالوا جزعت فقلت : إن ! مصيبةٌ ... جلت رزيتها وضاق المذهب

قال أبو بكر هكذا أنشدنيه ابن المعتز على أن «إن» بمعنى نعم وأنشد النحويون:

قالوا كبرت فقلت إن وربما ... ذكر الكبير شبابه فتطربا

كيف العزاء وقد مضى لسبيله ... عنا فودعنا الأحم الأشهب

دبّ الوشاة فباعدوه وربما ... بعد الفتى وهو الحبيب الأقرب

لله يومَ غدوت فيه ظاعناً ... وسُلبتُ قربك أىّ علق أسلب

نفس مقسمة أقام فريقها ... ومضى لطيته فريق يُجنب

الآن إذ كملت أداتك كلها ... ودعا العيون اليك حسن معجبُ

وغدوت طنّان اللجام كأنما ... فى كل عضو منك صنجٌ يُضرب

وكأن سرجك إذ علاك غمامة ... وكأنما تحت الغمامة كوكب

أنساك ؟ لا زالت اذاً منسية ... نفسى ولا برحت بمثلك تنكب

أضمرت منك اليأس حين رأيتنى ... وقُوى حبالى من حبالك تُقضب

يا صاحبىّ لمثل ذا من أمره ... صحب الفتى فى دهره من يصحبُ

إن تسعدا فصنيعة مشكورة ... أو تخذلا فصنيعةٌ لا تذهب

عوجا فقولا مرحبا وتزودا ... نظراً وقلّ لمن تحب المرحب

منع الرقاد جوًى تضمنه الحشى ... مما أكابده وهم منصب

مساوى المزاح

قال الحجاج بن يوسف لابن القرّيّة : ما زالت الحكماء تكره المزاح ، وتنهى عنه ، فقال : المزاح من أدني منزلته الى أقصاها عشره أبواب : المزاح أوله فرح ، وآخره ترح ، المزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق ، وينفر الرفيق ، والمزاح يبدى السرائر ، لأنه يظهر المعاير ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدى الخنى ، لم يجرّ المزح خيرا ، وكثيرا ما جر شرا ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كبيره ، وليس بعد الحرب إلا عفو بعد قدرة

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خير من عفو معه قدرة

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : ينشق أحدكم أخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، ويرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : إنما كنت أمزح !

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال

تلقى الفتى يلقى أخاه وخدنه　　فى لحن منطقه بما لا يغفر
ويقول كنت ممازحاً وملاعباً　　هيهات نارك فى الحشى تتسعّر
أو ما علمت وكان جهلك غالباً　　أن المزاح هو السباب الأصغر

نفر فى هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

— المزاحة تذهب بالمهابة ، وتورث الضغينة

— الافراط فى المزاح مجون ، والاقتصاد فيه ظرف ، والتقصير عنه ندامة

— أوكد أسباب القطيعة المراء والمزاح

— ابن المعتز : من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه

— قال أيوب ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ، فالعاقل الدينُ شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وان نطق أصاب

وان سمع العلم وعى ، وان حدث روى . وأما الأحمق فان تكلم عجل ، وان حدث وهل ، وان استنزل عن رأيه نزل ، فان حمل على القبيح حمل ، وأما الفاجرفان ائتمنته خانك ، وان حدثته شانك ، وان وثقت به لم يرعك ، وان استكتم لم يكتم ، وان علم لم يعلم ، وان حُدّث لم يفهم ، وان فُقّه لم يفقه

زجر الطير

قال أبو حية النميرى

جرى يوم رحنا عامدين لأرضنا سنيحٌ فقال القوم مرّ سنيحُ
فهاب رجال منهمُ فتعيفوا فقلت لهم جارٌ الىّ ربيحُ
عُقابٌ بأعقاب من الدار بعد ما نأت نأيةٌ بالظاعنين طروحُ
وقالوا حمامات فحُمٌ لقاؤها وطَلْح فنيلت والمطىُّ طليحُ
وقال صحابى هدهدٌ فوق بانةٍ هدًى وبيانٌ بالنجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ دامت مواثيق بيننا ودام لنا حلو الصفاء صريح
لَعيناك يوم البين أسرع واكفاً من الفنَنِ الممطور وهو مَروح
ونسوةِ شحشاحٍ غيورٍ يخفنهُ أخى ثقةٍ يلهين وهو مُشيحُ
يقلن وما يدرين أنى سمعتهُ وهنّ بأبواب الخيام جُنوحُ
أهذا الذى غنّى بسمراء موهناً أتاح له حسنَ الغناء مُتيح
اذا ما تغنّى أنّ من بعد زفرةٍ كما أنّ من حرّ السلاح جريح
وقائلةٍ يا دَهْمَ ويحك إنهُ على مابه من عنّةٍ لمليح
فلو أن قولا يجرح الجلد قد بدا بجلدى من قول الوشاة قُروح .

وهذا من غريب الزجر مليح التفاؤل

قال أبو العباس محمد بن يزيد أنشدنى اعرابى فى قصيدة ذى الرمة التى أولها

ألا يا اسلمى يا دار مىّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

بيتين لم يروهما الرواة فى ديوانه وهما

رأيت غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ … من القضب لم ينبت لها ورق خُضْرُ
فقلت غراب لاغتراب وقضبةٌ … لقضب النوى هذى العيافة والزجر

وقال آخر

دعا صُرَدٌ يوما على غصن بانةٍ … وصاح بذات البين منها غرابها
فقلت أتصريد وشحطٌ وغربة … فهذا لعمرى نأيها واغترابها

النهى عن الطيرة

وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرة والزجر وكانت تقتدى بذلك وتجرى على حكمه حتى ورد النهى فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عدوى ولا طِيَرة . وقد قال الأول

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى … ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال ضابئ بن الحارث البرجى :

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى … نجاحاً ولا من رَيْثهنّ يخيبُ
ولا خير فيمن لا يوطِّن نفسهُ … على نائبات الدهر حين تنوبُ
وربّ أمور لا تضيرك ضيرة … وللقلب من مَخْشاتهنّ وجيبُ

وقال الكميت بن زيد الأسدى

ولا أنا ممن يزجر الطير همُّه … أصاح غرابٌ أم تعرض ثعلبُ
ولا السانحات البارحات عشية … أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضبُ

وقال شاعر قديم

لا يمنعنّك من بغا … ء الخير تعقاد التمائم
فلقد غدوت وكنت لا … أغدو على واق وحاتم[1]

(١) الحاتم : غراب البين وهو أحمر المنقار والرجلين

فاذا الاشائم كالايا　　من والايامن كالأشائم
وكذاك لا خيرٌ ولا　　شرٌ على أحد بدائم
قد خط ذلك في الزبو　　ر الأوليات القدائم

ولقد أحسن ابن كناسة فى رثاء ولده يحيى أنشده أبو العباس ثعلب

تيممت فيه الفال حتى رُزئته　　ولم أدر أن الفال فيه يفيلُ
فسميته يحيى ليحيا فلم يكن　　الى رد أمر الله فيه سبيلُ

جنازة عزة

وروى المدائى قال خرج كثير من الحجاز يريد مصر فلما قرب منها نزل بمنزل فاذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب ، فأسرع الرحيل ، ومضى لوجهه فلقيه رجل من بنى نهد فقال يا أخا الحجاز مالى أراك كاسف اللون ، قال ما علمت إلا خيراً ، قال فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنكرته ، قال لا والله إلا فى منزلى هذا فانى رأيت غرابا ينتف ريشه على بانة وينعب ، قال أما انك تطلب حاجة لاتدركها ، فقدم مصر والناس منصرفون من جنازة عزة ، فقال :

رأيت غرابا ساقطا فوق بانةٍ　　ينتّفُ أعلى ريشه ويطايرُه
فقلت ولو أنى أشاء زجرتهُ　　بنفسيَ للنهديّ هل أنت زاجره
فقال غراب لاغتراب من النوى　　وفى البان بين من حبيب تجاورهُ
فما أعيفَ النهديّ لادرّ درُّه　　وأزجرَه للطير لاعزّ ناصرُه

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول :

أقول ونضوى واقف عند رأسها　　عليك سلام الله والعين تسفحُ
فهذا فراق الحق لا أن تزيرنى　　بلادَك فتلاء الذراعين صيدحُ
وقد كنت أبكى من فراقك حيّة　　وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزحُ

الذنب للمطايا

وقال جرير:

بان الخليط برامتين فودّعوا ... أوَ كلما نعبوا لبين تجزعُ
ان السوانح بالضحى هيّجننى ... فى دار زينب والحمام الوُقّع

وقال عوف الراهب خلاف هذا

غلط الذين رأيتهم بجهالة ... يلحون كلّهمُ غراباً ينعق
ما الذنب إلا للأباعر انها ... مما يُشتّ جميعهم ويفرّق
ان الغراب بيمنه تدنو النوى ... وتشتت الشمل الجميع الأينُق

وقد تبعه فى هذا المذهب أبو الشيص فقال :

ما فرق الاحباب بعـ ... ـد الله إلا الإبل
والناس يلحون غرا ... بَ البين لما جهلوا
وما على ظهر غرا ... ب البين تُطوى الرّحل
ولا اذا صاح غرا ... بٌ فى الديار احتملوا
وما غراب البين إلا ... ناقة أو جمل

وما أملح ما قال القائل :

زعموا بأن مطيهم عون النوى ... والمؤذنات بفرقة الاحباب
ولو آنها حتفى لما أبغضتها ... ولها بهم سبب من الاسباب

تطير ابن الرومى

وكان على ابن العباس الرومى مفرط الطيرة ، شديد الغلو فيها . قال على بن عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب

الفأل ، ويكره الطِّيَرَة ، أفتراه كان يتفاءل بالشيء ، ولا يتطير من ضدّه ؟ ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقه ويقول ياملمونة ، فقال لا يصحبنا ملعون ، وان عليا رضى الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر فى العقرب ، ويزعم ان الطيرة موجودة فى الطباع ، قائمة فيها ، وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وان الأكثر فى الناس اذا اتى ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم ؟ فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى الىّ عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز فى إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لى أمره ، وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح ، وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب الىّ

أيها المُتْحِفِى بحُولٍ وعُورٍ أين كانت منك الوجوه الحسان
قد لعمرى ركبت أمراً مهينا ساءنى فيك أيها الخُلْصَانُ
فتحلّك المهرجان بالحُول والعُو رِ أرانا ما أعقب المهرجانُ
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر ة مصبوغةً بها الأكفانُ
وتجافى مؤمَّلٍ لى خليلٍ لجَّ منه الجفاء والهجران
وعزيز علىَّ تقريع خلٍ لا يدانيه عندىَ الخُلّانُ
غير انى رأيت إذ كاره الحز م واشعارَه شِعاراً يُصانُ
لا تهاوَنْ بطيرة أيها النظا ر واعلم بأنها عُنوان
قف اذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ثَم ما يقول الزمان
فلما غاب من أُمورك عنوا نٌ مبين والزمان لسانُ
لا تكن بالهوى تكذب بالاخـ ـبارِ حتى تهين ما لا يُهان
لا يقدك الهوى الى نصرة الاخـ ـبار حتى يقدم البرهان
ان عقبى الهوى هوًى وعقبى طول تلك التهاونات هوان

لا تصدق عن النبيين الا بحديث يلوح فيه البيان
خبّر الله انّ مشأمةً كا نت لقوم وخبّر القرآن
أفزور الحديث تقبل أم ما قاله ذو الجلال والفرقان
أترى من يرى البشير بشيراً يمترى فى النذير يا وسْنانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطيرة والنصح مُثْمَنٌ مجّان

وقد فرق حذاق أهل النظر فى المقال ، بين الطيرة والفال ، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجع الى ما تمضيها ، وتجرى على تَقَضّيها ، وكان الذى يهم منهم اذا ما رأى ما يتطير منه رجع عنه ، وفى ذلك ما يصرف عن الاحالة على المقادير الجارية بيد ممضيها ، النازلة على حكم قاضيها ، والفأل لا يردّ المريد عما يريد انما يقوى مُنّته ، ويسر مهجته ، وليس هذا موضع تطويل ، فى ايراد الدليل

عتابه لابن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله اياه يقول معاتبا

ألم ترنى أقرضتك الود طائعاً ولم تر قبلى مُعسراً قط أقرضا
لعمرى لقد صوّرت أبيض مُشرقاً فلِمْ لا ترينى وجه نُعماك أبيضا
فياويح مولاك استغاث بمشربٍ فأشرف فاستشفى شفاء فأقرضا[١]
ولولا اعتقادى أنك الخير كلهُ لأزمعت توديعاً قضى الله ماقضا
وانى وان دارت على دوائرٌ لأعرض عمن صدّ عنى وأعرضا
وما زلت عزّافاً اذا الزاد رابنى بخبثٍ وعياّفاً اذا الماء عرمضا[٢]

وهذا البيت كقول الآخر

وانىَ للماء المخالط للقذى اذا كثرت وُرّاده لعيُوفُ

(١) أقرض : مات
(٢) عرمض : خبث وطحلب

تعازيه فى البنات

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى

اغا تُعَى أعزز علىَّ بنكبةٍ مَنَاك بها صرف القضاء المقدَّرُ
أصبت وما للمرء من حكم ربهِ محيدٌ وأمر الله أعلى وأقهرُ
وقد مات من لايخلف الدهر مثله عليك من الأسلاف والحق يَبْهَرُ
تعزيت عمن أثمرتك حياتُه ووَشْكُ التعزّى عن ثمارك أجدرُ
لأن اختيال الدهر فى ابن وفى ابنةٍ يسيرٌ وكرُّ الدهر شيخيك أعسرُ
تعذّر أنت نعتاض من أمهاتنا وآبائنا والنسل لا يتعذر
فلا تهلِكَنْ حزنا على ابنة جَنةٍ مضت وهى عند الله تحيا وتُحْبَرُ
لعلّ الذى أعطاك ستر حياتها كساها من اللحد الذى هو أستر
فكم من أخى حرية قد رأيتهُ بنار ذوى الاصهار يكوى ويُصهر
فلا تتهم لله فيها ولاية ولا نظراً فالله للعبد أنظرُ
وأنت وان أبصرت رشدك مرة فذو النظر الأعلى برشدك أبصر

ومن مليح تعازيه عن ابنة قوله لعلى بن يحيى المنجم

لا تَبعَدَنّ كريمة أودعتها صهراً من الاصهار لايخزيكا
انى لأرجو أن يكون صداقها من جنة الفردوس مايرضيكا
لا تيأسنّ لها فقد زوجتها كفؤاً وضمّنت الصداق مليكا

خير الاصهار

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يرجّى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذُكر الصهرُ
فبيت يغطيها وبعل يصونها وقبر يواريها وخيرها القبر

لا تصدق عن النبيين الا　　بحديث يلوح فيه البيان
خبرّ الله انّ مشأمة كا　　نت لقوم وخبرّ القرآن
أفزور الحديث تقبل أم ما　　قاله ذو الجلال والفرقان
أترى من يرى البشير بشيراً　　يمترى فى النذير يا وسنْانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطيرة　　والنصح مُثْمَنٌ مجّان

وقد فرق حذاق أهل النظر فى المقال ، بين الطيرة والفال ، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجع الى ما تمضيها ، وتجرى على تقضّيها ، وكان الذى يهم منهم اذا ما رأى ما يتطير منه رجع عنه ، وفى ذلك ما يصرف عن الاحالة على المقادير الجارية بيد ممضيها ، النازلة على حكم قاضيها ، والفأل لايردُّ المريد عما يريد انما يقوى مُنته ، وبسر مهجته ، وليس هذا موضع تطويل ، فى ايراد الدليل

عتابه لابن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله اياه يقول معاتبا

ألم ترنى أقرضتك الود طائعاً　　ولم تر قبلى مُعسراً قط أقرضا
لعمرى لقد صوّرت أبيض مُشرقاً　　فلِمْ لاتريني وجه نُعماك أبيضا
فياويح مولاك استغاث بمشرب　　فأشرف فاستشفى شفاء فأقرضا(١)
ولولا اعتقادى أنك الخير كلهُ　　لأزمعت توديعاً قضى الله ماقضا
وانى وان دارت على دوائرٌ　　لأعرض عمن صدّ عنى وأُعرضا
وما زلت عزّافاً اذا الزاد رابنى　　بخبثٍ وعياًفاً اذا الماء عرمضا(٢)

وهذا البيت كقول الآخر

وانىَ للماء المخالط للقذى　　اذا كثرت وُرّاده لعيوفُ

(١) أقرض : مات
(٢) عرمض : خبث وطحلب

تعازيه فى البنات

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى

اخا ثقتى أعزز علىّ بنكبةٍ منَاك بها صرف القضاء المقدّرُ
أصبت وما للمرء من حكم ربهِ محيدٌ وأمر الله أعلى وأقهرُ
وقد مات من لايخلف الدهر مثله عليك من الأسلاف والحق يَبْهَرُ
تعزيت عمن أثمرتك حياته ووشْك التعزّى عن ثمارك أجدرُ
لأن اختيال الدهر فى ابن وفى ابنةٍ يسيرٌ وكرُّ الدهر شيخيك أعسرُ
تعذّر أن نعتاض من أمهاتنا وآبائنا والنسل لا يتعذر
فلا تهلِكَنْ حزنا على ابنة جَنةٍ مضت وهى عند الله تحيا وتُحْبَرُ
لعلّ الذى أعطاك ستر حياتها كساها من اللحد الذى هو أستر
فكم من أخى حرية قد رأيتهُ بنار ذوى الاصهار يكوى ويُصهر
فلا تتهم لله فيها ولاية ولا نظراً فالله للعبد أنظرُ
وأنت وان أبصرت رشدك مرة فذو النظر الأعلى برشدك أبصر

ومن مليح تعازيه عن ابنة قوله لعلى بن يحيى المنجم

لا تبعَدَنّ كريمة أودعتها صهراً من الاصهار لايخزيكا
انى لأرجو أن يكون صداقها من جنة الفردوس مايرضيكا
لا تيأسنّ لها فقد زوجتها كفؤاً وضمّنت الصداق مليكا

خير الاصهار

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يرجّى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذُكر الصهرُ
فبيت يغطيها وبعل يصونها وقبر يواريها وخيرها القبر

وقال عقيل بن علقمة وكان أغير العرب

إنى وإن سيق إلىّ المهرُ ألفٌ وعُبدانٌ وذَوْدٌ عشرُ
أحب أصهارى إلىّ القبرُ

ومنه أخذ عبيد الله

الرغبة فى موت البنات

قال ابو العباس محمد بن يزيد المبرد دخل علينا ابن خلف البهرانى فأنشدنا

لولا أميمة لم أجزع من العدمِ ولم أجُبْ فى الليالى حِندِس الظلمِ
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى أن اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوما أن يُلمّ بها فيهتك الستر عن لحم على وضمِ
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزّال على الُحرَمِ

وكانت أميمة بنت أخته وكان قد تبناها ثم غابت غيبة فسألناه عنها فأنشد

أمست أميمة مغموراً بها الرَّجَمُ لدى صعيد عليه الترب مرتكمُ
ياشقة النفس إن النفس والهةٌ حرّى عليك ودمع العين منسجم
قدكنت أخشى عليها أن يؤخرها عنى الحمام فيبدى وجهها العُدُمُ
فالآن نمت فلا همٌّ يؤرقنى تهدا العيون إذا ما أودت الُحرَمُ
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى بعد الهدوء ولا وجد ولا حُلُم
للموت عندى أياد لست أنكرها أحيا سرورا وبى مما أتى ألم

ابن الرومى والأخفش

عاد ذكر ابن الرومى ، وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابا مترفا ، ومليحا مستظرفا ، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول : أبو الحسن مرة بن حنظلة ،

فيتطير لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرج من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه فمن أول ما عاتبه به

قولوا لنحوينا أبي حسن　　إن حسامي متى ضربت مضى
وانّ نبلي إذ هممت بأن　　أرمي نصلتها بجمر غضا
لا تحسبنّ الهجاء يحفل بالرفـ　　ـع ولا خفض خافض خفضا
ولا تَخَلْ عودتي كبادية　　سأسعط السم من أبي الحضضا
أعرف في الأشقياء بي رجلا　　لاينتهي أو يصير لي غرضا
يليح لي صفحة السلامة والسلم　　ويخفي في قلبه مرضا
أضحي مغيظا على أن غضب الله　　عليه ونلت منه رضا
وليس تجدي عليه موعظتي　　إن قدر الله حَيْنَه وقضا
كأنني بالشقيّ معتذرا　　اذا القوافي أذقنه المضضا
ينشدني العهد يوم ذاك وللعهـ　　ـد خضاب أذاله فنضا
لا يأمننّ السفيه بادرتي　　فانني عارض لمن عرضا
عندي له السوط إن تلوّم في السير　　وعندي اللجام ان ركضا
أسمعت إنباضتي أبا حسن　　والصفح لاشك نصح من محضا
وهو معافى من السهاد فلا　　يحمل فيمسي فراشه قضضا
أقسمت بالله لا غفرت لهُ　　إن واحد من عروقه نبضا

فاعتذر إليه،وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس اخوانا ، فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها

ذُكر الاخفش القديم فقلنا　　ان للأخفش الحديث لفضلا
واذا ما حكمت والروم قومي　　في كلام معرّب كنتُ عدْلا
أنا بين الخصوم فيه غريبٌ　　لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلا لم ألقب　　فيلسوفا ولم أسمّ هرِقلا

الأخفش القديم هو أبو الخطاب ، وكان أحد أستاذى سيبويه . وهو من المتقدمين فى النحو ، ويعرف بالأخفش الكبير . وكان فى عصر سيبويه « أيضاً[1] » أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، وهو الأخفش الصغير ، وهو الذى قال : كان سيبويه يعرض ماوضع من النحو على ، ويرى انى أعلم منه ، وكان فى وقته ذلك أعلم منى

ثم عاد على بن سليمان الى أذاه ، واتصل به أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها ، فقال قصيدته التى يقول فيها

أعتقت عبدىّ فى القريض معاً	عبدة والعجل من بنى عبده
ان أنا لم أرم بالإساءة من	زاغ عن القصد أو أبى سدده
قلت لمن قال لى عرضت على الأ	خفش ما قلته فما حمده
قصرت بالشعر حين تعرضه	على مبين العمى اذا انتقده
أنشدته منطقى ليشهده	فغاب عنه عمًى وما شهده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من	تفهم عنه الكلاب والقرَدة
ولا أنا المفهم البهائم والطير	ر سليمان قاهر المرَدة
فان يقل انى حفظت فكالدفـ	ـتر جهلا بكل ما اعتقده
سأسمع الناس ذمه أبداً	ما سمع الله حمد من حمده

علقمة ابن عبدة

عبدة بن الطبيب ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، وكانا شاعرين مجيدين ، وقال علقمة بن عَبَدَة لرجل ورأى آخر يعتذر اليه وهو معبس فى وجهه : اذا اعتذر اليك المعتذر فتلقه بوجه مشرق ، و بشر مطلق ، لينبسط المتذلل ، و يؤمن المتنصل

طيرة ابن الرومى

ولابن الرومى فى الأخفش إلحاش صنت الكتاب عنه . قال على بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بدارى جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب منى ،

(١) زدنا كلمة « أيضا »

فبادرت هاربًا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت ، وقالت اتقوا الله فينا ، واسقونا جرعة من ماء ، وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشًا ! فتقدمتُ إلى امرأة كانت عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئًا من المأكول، ثم عادت إلىّ فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومى ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ، ويتعوذ ثم يصير الى الباب ، والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب ، فتقع عينه على جار له كان نازلا بازائه ، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر اليه رجع وخلع ثيابه ، وقال لا يفتح أحد الباب ، فعجبت لحديثها وبعثتُ بخادم كان لى يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه ، وكانت العين تميل اليه ، وتقدمت الى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض الى ابن الرومى ، ويستدعيه الحضور ، فانى لجالس ومعى الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومى فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله ، فدخل مذعورا ، وكان اذافاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حال ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن أيكون شيء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة ، وهى قطع أنثييه ، قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت على بن العباس . قال : الشاعر ؟ قلت نعم فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفُهُ ... بتفريق ما بينى وبين الحبائب
رجعتُ إلى نفسى فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جَوْرِ حكمها ... فأيامه محفوفةٌ بالمصائب
فخذ خلسةً من كل يوم تعيشهُ ... وكن حذرًا من كامنات العواقب

ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطَّرح تطيُّرَ جارٍ أو تفاؤل صاحب

فبقى ابن الرومى باهتا ينظر إليه ، ولم أدر أبه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة و يرذعة معه . فحلف ابن الرومى لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وأومأ إلى جاره ، فقلت : وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحسن مأتاه ، فقلت له : ليتنا كتبناه ! قال : اكتبه فقد حفظته ، وأملاه عليّ

خوفه من ركوب البحر

ومن شدة حذره ، وعظيم تطيره ، قوله لأبي العباس بن ثوابة وقد ندبه الى الخروج إليه وركوب دجلة :

حضضت على حطبي لناري فلا تدع لك الخيرُ تحذيرى شرور المحاطبِ
ومن يلق ما لاقيتُ فى كل مجتنًى من الشوك يزهد فى الثمار الأطايبِ
أذاقتنىَ الأسفار ما كرّه الغنى إلىّ وأغرانى برفض المطالبِ
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبرى على الإقتار أيسر مطلباً علىّ من التغرير بعد التجارب
لقيت من البَرّ التباريح بعد ما لقيت من البحر ابيضاض الذوائبِ
سقيت على رِىّ به ألف مطرةٍ شغفت لبغضيها بحب المجادبِ
ولم أبغها بل ساقها لمكيدتى تلاعب دهر جدّ بى كالملاعب
أبى أن يغيث الأرض حتى إذا رمت برحلى أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرض من أجلى فأضحت مَزَلّةً تمايل صاحيها تمايُلَ شارب
فملت إلى خانٍ مُرِثّ بناؤهُ مَميل غريق الثوب لهفان لاغبِ
فما زلت فى جوع وخوف ووحشةٍ وفى سهر يستغرق الليل واصبِ
يؤرقنى سقف كأنىَ تحتهُ من الوكف تحت المدجنات الهواضب

يظل إذا ما الطين أثقل متنهُ تصرُّ نواحيه صرير الجنادب
وكم خانِ سَفْرٍ خانَ فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب
وما زال ضاحي البر يضرب أهلَهُ بسوطَيْ عذاب جامد بعد ذائب
فان فاته قطرٌ وثلج فانهُ رهينٌ بسافٍ تارة وبحاصب
فذاك بلاء البرِّ عنديَ شاتياً وكم ليَ من صيف به ذي مثالبِ
ألا رب نار بالفضاء اصطليتها من الضِّح يودي لفحها بالحواجب (١)
فدع عنك ذكر البرِّ إنى رأيتهُ لمن خاف هول البحر شر المهارب
وما زال يبغيني الحتوف موار با يحوم على قتلى وغير موارب
فطوراً يغاديني بلص مصلّت وطوراً يمسّيني بورد الشوارب
وأما بلاء البحر عندى فانهُ طواني على روع مع الروح واقب
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضهِ ولكنه من هوله غير ثائب
ولمْ لا ولو أُلقِيت فيه وصخرة لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سباحةٍ سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
وأيسر إشفاقى من الماء أننى أمر به فى الكوز مرَّ المجانب
وأخشى الردى منه على كل شاربٍ فكيف بأمْنِيهِ على نفس راكب

أخذه من قول أبى نواس وقد رأى التمساح بمصر أخذ رجلا :

أضمرت للنيل هجرانا ومَقْلِيَةً مذ قيل لى إنما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين عن كثبٍ فما أرى النيل إلا فى البراقيل (٢)

رجع

أظل إذا هزته ريح ولألأتْ له الشمس أمواجا طوال الغوارب

(١) الضح : بالكسر الشمس
(٢) البراقيل : أوانى الشراب

كأنى أرى فيهن فرسان بُهمةٍ   يليحون نحوى بالسيوف القواضب (١)
فان قلت لى قد يُركب اليم طامياً   ودجلة عند اليم بعض المذانب (٢)
فلا عذر فيها لامرىء هاب مثلها   وفى اللجة الخضراء عذر لهائب
لدجلة خبٌ ليس لليم انها   تراءى بحلم تحته جهل واثب
تطامنُ حتى تطمئن قلوبنا   وتغضب من مزح الرياح اللواعب
ولليم اعذار بعرض متونهِ   وما فيه من آذيِّه المتراكب (٣)

وهى طويلة وفيها مركفاية تنبىء عنه وتدل عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض الكتاب

العيافة والزجر

ومن مليح العيافة والزجر مارواه الصُّولى قال : كان لأبى نواس اخوان لايفارقهم ، اجتمعوا يوما فى موضع أخفوه عنه ، ووجهوا إليه برسول معه ظهر قرطاس أبيض ، لم يكتبوا فيه شيئا ، فخزموه بزير (٤) وختموه بقار ، وتقدموا إلى رسولهم ليرمى بالكتاب من وراء الباب ، فلما رآه استعلم خبرهم ، وعلم أنه من فعلهم ، فتعرف موضعهم وآثارهم ، فأتاهم فأنشدهم

وجدت كتابكم لما أتانى   يمرّ بسانح الطير الجوارى
نظرت إليه مخزوماً بزير   على ظهر ومختوما بقارِ
فقلت الزير مُلهيةُ ولهوٌ   وخلت القار من دن العُقار
وخلت الظهر أهيف قرطقيا   يحيل العقلَ منه باحورار (٥)

(١) يليحون :يشيرون
(٢) المذانب : القنوات
(٣) الآذى : الموج
(٤) "زير : الوتر
(٥) قرطقيا : يلبس القرطق وهو لباس رقيق

فهمت اليكمُ طربا وشوقا ... فما أخطأت داركمُ بدار
فكيف ترونني وترون وجدى ... ألست من الفلاسفة الكبار

وقال الطائى :

أتضعضعت عبرات عينك أن دعت ... ورقاء حين تضعضع الإظلامُ
لا تنشجنّ لها فان بكاءها ... ضحك وإن بكاءك استغرامُ
هنّ الحمام فان كسرت عيافةً ... من حائهن فانهن حِمام

احمد بن المدبر

و روى يموت ابن المزرع قال : كان أحمد بن المدبّر إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره قال لغلامه: امض به إلى المسجد الجامع فلا تفارقه حتى يصلى مائة ركعة ، ثم خلّه. فتحاماه الشعراء ، إلا الأفراد المجيدين ، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى المعروف بالجمل ، فاستأذنه فى النشيد فقال ، قد عرفت الشرط ! قال: نعم، وأنشده

أردنا فى أبى حسن مديحا ... كما بالمدح يُنتجع الولاةُ
فقلنا أكرم الثقلين طرّا ... ومَن كفاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا يقبل المدحات لكن ... جوائزه عليهنّ الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى ... عيالى إنما الشأن الزكاة
فيأمر لى بكسر الصاد منها ... فتصبح لى الصلاة هى الصلات

فضحك واستطرفه ، وقال من أين أخذت هذا ؟ قال من قول أبى تمام الطائى :

هن الحمام فان كسرت عيافةً ... من حائهنّ فانهن حمام

فأحسن صلته .

أبو الفضل الميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى لقوم من أهل مرو انخلعوا عن طاعته

يا راكباً أضحى يخب بعنسه ليؤم مَرْوَ على الطريق المهيعِ
أبلغ بها قوماً أثاروا فتنةً ظلت لها الأكباد رَهْنَ تقطع
إذ أقدموا ظلماً على سلطانهم بالغدر والخلع الذميم المفظع
وبحل عقد لوائه وإباحةِ لجنابه وحريمه المتمنِّع
أبلغهمُ انى اتخذت لفعلهم فألاً له فى القوم أسوأ موقع
أما اللواء وحله فمخبرٌ عن حل عقد بينهم مستجمع
والخلع يخبر أن ستخلع عنهم الأرواح بالقتل الأشد الأشنع
والغدر ينبىء أن تغادَر فى الوغى أشلاؤهم لنُسوره والأضبعِ
والفرقتان فشاهدٌ معناها بتفرق لجميعهم وتصدع
فتسمّوا لمقالتى وتأهبوا بذميم بغيكمُ لشر المصرع
فالله ليس بغافل عن أمركمْ حتى تحلَّ بكم عقوبة موجع

عبد الوهاب الثقفى

قال أبو عثمان الجاحظ : سمعت النظام — وذكر عبد الوهاب الثقفى — يقول : هو أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، ومن خصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصال الدائم ، والشباب الناعم

الجاحظ وابن أبى دواد

وكان الجاحظ مائلا عن ابن أبى دواد الى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما نكب محمد بن عبد الملك أدخل الجاحظ على ابن أبى دواد مقيداً ، فقال له : والله ماعلمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوى ، ومافتّنى باستصلاحى

الك ، ولكن الأيام لاتُصلح منك : لفساد طويتك ، ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك وتغالب طباعك . فقال الجاحظ : خفِّض عليك ، أصلحك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسنُ فى الأحدوثة من أن أحسن فتسيء ، ولأن تعفو عنى على حال قدرتك عليّ ، أجمل بك من الانتقام منى »

فعفا عنه[1]

عتبة بن أبى سفيان

قال سعد القصر مولى عتبة بن أبى سفيان : خطب عتبة الناس فى الموسم سنة إحدى وأربعين والناس إذ ذاك حديثو عهد بالفتنة فقال :

« قد ولينا هذا المقام الذى يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء الوزر ، ونحن على سبيل قصد ، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فانها تنقطع دوننا ، فرب متمن أمرا حتفه فى أمنيته ، فاقبلوا منا العافية ، ماقبلناها منكم[2] وأنا أسأل الله أن يعين كلا على كل »

فناداه اعرابى من ناحية المسجد : أيها الخليفة ، فقال : لست به ولم تبعد ، فقال يا أخاه ، قال سمعت فقل ، فقال :

« تالله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا ، فان كان الاحسان منكم فما أولاكم باتمامه ، وان كان منا فما أولاكم بمكافأتنا عليه ، وأنا رجل من بنى عامر ابن صعصعة يمت بالعمومة ، ويختص بالخؤولة ، كثره عياله ، ووطئه زمانه ، و به فقره وفيه أجر ، وعنده شكر »

فقال له عتبة : أستغفر الله منك ، وأستعين به عليك ! قد أمرت لك بغناك ، فليت إسراعى اليك ، يقوم بابطائى عنك !

---

(١) انظر بقية هذا المجلس فى ارشاد الأديب ج ٦ ص ٥٩

(٢) زاد فى الأمالى « وإياكم ولوًّا فانها أتعبت من كان قبلكم ولن تريح من بعدكم »

الجاحظ وابن الزيات

قال الجاحظ : تشاغلت مع الحسن بن وهب أخى سليمان بن وهب بشرب النبيذ أياما • فطلبنى محمد بن عبد الملك لمؤانسته ، فأخبر باتصال شغلى مع الحسن بن وهب ، فتنكرلى ، وتلون على ، فكتبت اليه رقعة نسختها :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة الى حب الانصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين الى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالما   من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

فان كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيرا لى منك أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى ، فان كنت لاتهب عقابى أيدك الله لخدمة فهبه لأياديك عندى ، فان النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعُد إلى حسن العادة وإلاّ فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ؛ وإلاّ فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذِكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والانعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم أيدك الله أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك . وأعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام »

كلام على بن أبي طالب

قال على بن أبي طالب رضى الله عنه : أعجب ما فى الانسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وان هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الأسف ، وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وان أتاه الخوف شغله الحذر، وان اتسع له الأمن استلبته الغرة ،وان أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وان استفاد مالا أطغاه الغنى،وان عضته فاقة بلغ به البلاء ، وان جهد به الجوع قعد به الضعف ، وان أفرط فى الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له قاتل

عبد الرحمن بن حسان

البيت الذى أنشد الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان فى أبيات يقول فيها

متى مايرى الناس الغنى وجارُهُ ... فقيرٌ يقولوا عاجزٌ وجليدُ
وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ... ولكن أحاظٍ قُسّمت وجدود
وان امرأً يمسى ويصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

محمد بن حازم

والبيت الذى أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلى فى أبيات يقول فيها:

إن كنت لا ترهب ذمى لما ... تعلم من صفحى عن الجاهلِ
فاخش سكوتى إذ أنا منصت ... فيك لمسموع خنى القائل
فسامعُ الشرّ شريكٌ لهُ ... ومُطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء الى أهلها ... أسرع من منحدرٍ سائل

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فلا تهج ان كنت ذا إربة حرب أخي التجربة الغافل
فان ذا العقل اذا هجته هجت به ذا خبل خابل
تبصر فى عاجل شداته عليك غب الضرر الآجل

ابن الزيات

وفى ابن الزيات يقول الجاحظ :

بدا حين أثرى لاخوانه ففلّل منهم شباة العدم
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم

مرض الجاحظ

قال بعض البرامكة : كنت أتقلد السند فاتصل بى أنى صُرفت عنها ، وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار ، فخفت أن يفاجأنى الصارف ، ويُسعى إليه بالمال ، فصغته عشرة آلاف اهليلجة فى كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل ، وجعلتها فى رحلى ، ولم أبعد أن جاء الصارف فركبت البحر ، وانحدرت الى البصرة ، فخبرت أن بها الجاحظ وأنه عليل فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت اليه ، فأفضيت الى باب دار لطيف ، فقرعته فخرجت الىّ خادم صفراء ، فقالت : من أنت ؟ فقلت رجل غريب أحب أن يدخل الى الشيخ فيسر بالنظر اليه ، فأدت ماقلت ، وكانت المسافة قريبة لصغر الدهليز والحجرة فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فأخبرتنى فقلت لابد من الوصول اليه ، فقال هذا رجل قد اجتاز بالبصرة ، فسمع بى وبعلتى ، فقال أراه قبل موته لأقول قد رأيت الجاحظ ، فدخلت فسلمت فرد ردًّا جميلا واستدنانى وقال من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أباك ، وقومك الاسخياء الأجواد ، الكرام الأمجاد ، فلقد كانت أيامهم روض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق ،

فسقياً لهم ورعياً ! فدعوت له ، وقلت : أنا أسأل الشيخ أن ينشدنى شيئاً من الشعر أتذكره به ، فأنشدنى

لئن قُدِّمتْ قبلى رجالٌ فطالما مشيتُ على رِسلى فكنت المقدَّما[1]
ولكنَّ هذا الدهر تأتى صروفه فتُبرم منقوضاً وتنقض مُبرما

ثم نهضت فلما قاربت الدهليز صاح بى فقال : يافتى ، أرأيت مفلوجا ينفعه الاهليلج ؟ فقلت لا ، قال : فأنا ينفعنى الاهليلج الذى معك ، فأنفِذ إلىَّ منه ، فقلت : السمع والطاعة ، وخرجت مفرط التعجب من وقوعه على خبرى ، حتى كأنَّ بعض أحبابى كاتبه بخبرى حين صفته ، فأنفذت إليه مائة إهليلجة

المقامة الجاحظية

(مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ)

حدثنا عيسى بن هشام قال : جمعتنى مع رفقة وليمة ، وأجبت اليها للحديث المأثور فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو دعيت إلى كراع لأجبت ، ولو أُهدى إلىَّ ذراع لقبلت) فأفضى بنا السير الى دار قد فُرش بساطها ، وبُسطت أنماطها ، ومُدَّ سماطها ، وقوم قد أخذوا الوقت بين آس مخضود ، وورد منضود ، ودن مفصود ، وناي وعود ، فصرنا اليهم وصاروا إلينا ، ثم عكفنا على خِوان قد مُلئت حياضه ، ونوّرت رياضه ، واصطفت جفانه ، واختلفت ألوانه ، فمن حالك بازائه ناصع ، ومن قانٍ فى تلقائه فاقع ، ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان ، وتسفر بين الألوان ، وتأخذ وجوه الرغفان ، وتفقأ عيون الجفان ، وترعى أرض الجيران[2] يزحم اللقمة باللقمة ، ويهزم المضغة بالمضغة ، وهو مع ذلك ساكت لاينبس ، ونحن فى الحديث نجرى معه حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ، ووصف ابن المقفع وذرابته ،

---

(١) على رسلى : على مهلى

(٢) فى المقامات هذه الزيادة (وتجول فى القصعة ، كالرخ فى الرقعة)

ووافق أول الحديث آخر الحوان ، وزُلنا عن ذلك المكان ، فقال الرجل : أين أنتم من الحديث الذي فيه كنتم ؟ فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسَنِه ، وحسن سَنَنه في الفصاحة ، وسُنَنِهِ فيما عرفناه فقال : يا قوم ، لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم ، لبطل ما اعتقدتم . فكلٌّ كشر له عن ناب الانكار ، وشم بأنف الاكبار ، وضحكت إليه ، لأجلب ما لديه ، وقلت أفدنا وزدنا ، فقال إن الجاحظ في أحد شِقَّي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ؛ والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يُزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا لا ، قال فهلموا إلى كلامه : فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من مُعْتاصِه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلت لا ، فقال هل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك ، وينم على ما في يديك ؟ فقلت إي والله ، قال فأطلق لي عن خنصرك ، بما يعين على شكرك ، فأنلته ردائي فقال

لعمر الذي ألقى إليَّ ثيابهُ ... لقد حُشيت تلك الثياب به مجداً
فتى قمرته راحة الجود بزةً ... وما ضربت قِدحاً ولا نصبت نردا
أعد نظراً يامن كساني ثيابهُ ... ولا تدع الأيام تهدمني هدا
وقل للأُلى إن أسفروا أسفرواضحى ... وإن طلعوا في غُمة طلعوا سَعْدا
صِلوا رحم العليا وبُلُّوا لَهاتها ... فخير الندى ماسحٌ وابله نقدا

قال عيسى بن هشام: فارتاحت الجماعة إليه ، وانثالت الصلات عليه ، وقلت لما تآنسنا : من أين مطلع هذا البدر ؟ فقال

اسكندرية داري ... لو قرَّ فيها قراري
لكن ليلي بنجدٍ ... وبالحجاز نهاري

أردشير بن بابك

تظلمت رعية أردشير بن بابك إليه فى سنة مجدبة لعجزهم عن الخراج، وسألته أن يخففه عنهم، فكتب لهم ما نسخته:

من أردشير المزين بالبهاء، ابن الملوك العظماء، الى الفقهاء الذين هم حفظة البيضة، والكتّاب الذين هم ساسة المملكة، وذوى الحرث الذين هم عمَرة البلاد، أما بعد فإنا نحمد الله تعالى حمد الصالحين، وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا أتاوتنا الموظفة عليهم سنتنا هذه، ونحن كاتبون مع ذلك اليهم بوصية تنفع الكل: لاتستشعروا الحقد لئلا يغلب عليكم العدو، ولاتحبوا الاحتكار لئلا يشملكم القحط، وكونوا للغرباء مؤوين، لتؤوا غداً فى المعاد، وتزوجوا فى القرابة فانه أحسن للرحم، وأثبت للنسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئاً فانها لاتبقى على أحد، ولا ترفضوها مع ذلك فان الآخرة لا تنال إلا بها

بزرجمهر

وقيل لبزرجمهر: أى الاكتساب أفضل؟ قال: العلم والأدب كنزان لاينفدان، وسراجان لايطفآن، وحلتان لاتبليان، من نالهما أصاب الرشاد، وعرف طريق المعاد، وعاش رفيعاً بين العباد

وقال أنوشروان لبزرجمهر لما ظفر به: الحمد لله الذى أظفرنى بك! قال له: فكافئه بما يحب كما أعطاك ماتحب. قال: وبم أكافئه يافاسق؟ قال بالعفو عمن أظفرك به اليوم كما تحب أن يعفو عنك غدا.

ونظير هذا الكلام قد تقدم لعلى رضى الله عنه

خير الملوك

وقيل لكسرى: أى الملوك أفضل؟ قال الذى إذا حاورته وجدته عليما، وإذا

خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شكى إليه وجد رحيما

بين الميكالى والثعالبى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى إلى أبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي :

كتابي وأنا أشكو إليك شوقاً لو عالجه الاعرابي لما صبا إلى رمل عالج ، أو كابده الخليّ لانثنى على كبدٍ ذات حرق ولواعج ، وأذم زماناً يفرق فلا يحسن جمعا ، ويخرق فلا ينوي رقعا ، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد ، ثم يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد ، قاسي القلب فلا يلين لاستعطاف ، جائر الحكم فلا يميل الى انصاف ، وكم أستعدي على صرفه وأستنجد ، وأتلظّى غيظا عليه وأنشد

متى وعسى يثني الزمان عنانه بعثرة حالٍ والزمان عَثورُ
فتدركَ آمالٌ وتقضي مآربٌ وتحدُثُ من بعد الأمور أمور

وكلاَّ ، فما على الدهر عَتْبٌ، ولا له على أهله ذنب ، وإنما هي أقدار تجرى كما شاء مجريها ، وتنفذ كالسهام إلى مراميها ، فهي تدور بالمكروه والمحبوب ، على الحكم المقدور المكتوب ، لا على شهوات النفوس ، وارادات القلوب ، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد النازح ، وتسهيل الصعب الجامح ، فيعود الأنس بلقاء الاخوان كأتم مالم يزل معهوداً ، ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً ، إنه المليّ به ، والقادر عليه

من الميكالى الى أبيه

وله الى أبيه :

لو ملكت عنان اختياري ، وأسعفني ببعض ما أقترحه القدر الجاري ، لما غبت عن

حضرته آنسها الله ساعةً من دهرى ، كما لا أعد ساعات بعدى عنها واخلائى لبابها من أيام عمرى ، ولكنت أبداً ماثلا بها فى زمرة الخدم والعبيد ، جامعاً بها بين حاشيتى العز المديد ، والشرف العتيد ، لاسيما فى هذا الوقت ، وقد أشرقت البلاد بنور طلعته التى هى فى ظلمة الدهر صباح ، وعز مطالعته التى فيها لصدور ذوى الثنأ شجى ولزند الآمال اقتداح ، ومعاودة ظله الذى أضحت الشمس من حساده ، والزمان من عدد ساكنيه وعتاده ، إلا أن الحريص كما علمه مولانا محلأ عن أعذب موارده ، وممنوع بالعوائق عن أكرم مطالعه ومقاصده

و منه الى بعض اخوانه

وله يستفتح مكاتبة بعض اخوانه :

أنا و إن لم تتقدم بينى و بينه المكاتبة وعادة المساجلة والمفاوضة ، مع فرط حرصى على افتتاحها وتعاطيها ، واعتراض العوائق دون المراد والغرض فيها ، فان قلبى بوده مغمور ، وضميرى على مصافاته مقصور ، فاعتدادى لفضائله التى أصبح فيها أوحدىّ العنان ، وزاحم فيها منكب العنان ، واستأثر فيها بالغرر والأوضاح ، ما أوفى بها على غرة الصباح ، حتى تشاهدت بها ضمائر القلوب ، وتهادت أنباءها ألسنة البعيد والقريب ، اعتداد من يجمع بالاعتداد لها بين شهادة قلبه ولسانه ، ومن ينظم فى اجلال قدرها صفقة إسراره واعلانه ، فهو يتنسم الريح إذا هبت من ناحيته شوقاً ونزاعاً ، ويستملى الوارد والصادر خبر سلامته انصياعاً بالود إليه وانقطاعاً

شذور من كلامه

شذور من كلامه فى أثناء رسائل شتى

— أياديه التى غمرتنى سجالها ، واتسع عندى مجالها ، وأعيا شكرى عفوها واثنيالها ، تناولت فيها المنى دانية القطوف ، واجتليت أنوار العيش مأمونة الكسوف

— ليس يكاد يبرد غليل شوقى وحنينى ، أو ترجع نافرة أنسى وسكونى ، أوتخلو

من الاهتمام والفكرة فيه خواطرى وظنونى، إلا بالتقاء يدنو أمدُه، ويقرب موعده، وتعلو على الفراق يده، فنعاود العيش طلقاً غزيراً، ونجتنى ثمر المنى غضاً نضيراً، ونجتلى وجه الزمان مشرقاً منيراً.

— فوائده لها عندى أثر الغمام أو أنفع، ومحل السماك أو أرفع

— حالى فى مفارقة حضرته حال بنات الماء قد نضب عنها الغدير، وبنات الأرض أخطأها النوء المطير

— لهفى على دهر الحداثة إذ غصن شبابى غض وريق، وثقل شرابى غض وريق.

— كلام أحلى من ريق النحل، وأصفى من ريّق الوبل

— من تسوَّد قبل وقته وآلته، فقد تعرض لمقته وإذالته.

نظمهُ له

إن من يلتمس الصد — رَ بلا وقت وآلة
لحقيق أن يُلقّى — كل مقت وإذالة

— الشكل للكتاب، كالحلى للكعاب

— لو كان الشباب فضة لكان الشيب له خبثاً

— النعمة عروس مهرها الشكر، وثوب صونه النشر

— الخضاب تذكرة الشباب

— لاتقاس المهاوى بالمراقى، ولا الأقدام بالتراقى، ولا البحور بالسواقى

— كم أبلانى من عرف جزيل لايبلى الدهر جِدَّة ردائه، وقضانى من دين تأميل لايقضى الشكر حق نعمائه

— الشكر للنعمة نتاج، والكفران لها رتاج، وكلما زدت النعمة شكراً، زادت طيباً ونشراً

نماذج من شعره

(قطعة من شعره فى تجنيس القوافى) قال فى أبيه :

مبدعاً فى شمائل المجد خيماً   ما اهتدينا لأخذه واقتباسه
فهو فظ بالمال وقت نداه   وجواد بالعفو فى وقت باسه

وقال فيه :

إذا ما جاد بالأموال ثنّى   ولم تدركه فى الجود الندامه
وإن هَجَمت خواطرُه بجمع   لريب حوادث قال الندى مَه [1]

وقال فيه :

ولما تنازع صرف الزمان   فزعنا إلى سيد نابه
إذا كشر الدهر عن نابه   كشفنا الحوادث عنا به

وقال فيه :

ان نابنا خطب فآراؤه   تغنى عن الجيش وتسريبه
وان دجا ليل بدا نوره   للركب نجماً فهو يسرى به

وقال يفتخر :

وكم حاسد لى انبرى فانثنى   لغصة نفس شجاها شجاها
ومن أين يسمو لنيل العلى   وما بث مالاً ولا راش جاها

ومنها قوله :

وسائلة تسائل عن فعالى   وعما حاز فى الدنيا جمالى
فقلت إلى المعالى حنّ قلبى   وفى سبل المكارم لجّ مالى
وللعلياء نهجٌ مستقيم   فما لى تاركا ذا النهج مالى

---

(١) مه : اسم فعل بمعنى اكفف

إذا أسرجت فى فخر سما بى فعالى والنجار فألجا لى

وقال فى نوع من هذا الجنس :

ومن يسر فوق الأرض يطلب غاية من المجد يسرى فوق جمجمة النسر
ومن يختلف فى العالمين نجاره فإنا من العلياء نجرى على نجر (١)
ومن يتجر فى المال يكسب ربحه فبالمال نشرى رابح الحمد والنشر

وعلى نحو هذا الحذو يقول أبو الفتح البستى :

أبا العباس لاتحسب بأنى لشىء من حُلى الأشعار عار
ولى طبع كسلسال المجارى زلال من ذرى الأحجار جارى
اذا ما أكبت الادوار زنداً فلى زند على الأدوار وارى

وقال أبو الفتح البستى أيضاً

بسيف الدولة اتّسقت أمور رأيناها مبدّدة النظام
سما وحمى بنى سام وحام فليس كمثله سامٍ وحام

أدب الحاجب

قال بعض الملوك لحاجبه : انك عينى التى أنظر بها ، وجُنتى التى أستنيم اليها ، وقد وليتك بابى ، فما تراك صانعا برعيتى ؟ قال أنظر اليهم بعينك ، وأحملهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم لك فى إبطائهم عن بابك ، ولزومهم خدمتك ، مواضع استحقاقهم ، وأرتبهم حيث جعلهم ترتيبك ، وأحسن ابلاغك عنهم ، وابلاغهم عنك . قال قد وفيت بما عليك قولا ، ان وفيت به فعلا ، والله ولىّ كفايتك ومعونتك .

مراتب الوافدين على الملوك

قال المهدى للفضل بن الربيع : انى قد وليتك ستر وجهى وكشفه ، فلا تجعل الستر بينى و بين خواصى سبباً لضغنهم بقبح ردّك ، وعبوس وجهك ، وقدّم أبناء الدعوة

(١) النجر والنجار : الاصل

فانهم أولى بالتقديم ، وثن بالأولياء ، واجعل للعامة وقتاً اذا دخلوا أعجلهم ضيقه عن التلبُّث ، وصرفهم عن التمكُّث

الحسن بن سهل

وقال الحسن بن سهل : إذا كان الملك محتجباً عن الرعية ولم ينزل الوزير نفسه منزلة من تكون وسائلُ الناس اليه أنفسَهم واستحقاقَهم دون الشفاعات والحرمات ، حتى يختص الفاضل دون المفضول ، ويرتب الناس على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير ، واختلت الأمور ، ولم يميز بين الصدور والأعجاز ، والنواصي والأذناب ، وكان الناس فوضى ، ووهت أسباب الملك ، وانتقضت مرائره ، وشاعت سرائره ، وإن أقرب ما أرجو به صلاح ما أتولاه اسماعي من المنتمين لأنفسهم ، المتوسلين بأفهامهم ، المتوصلين بكفايتهم ، وابتذال نفسي لهم ، وصبري عليهم ، وتصفُّحي ما توسلوا به وانتحلوه : من العقول ، والآداب ، والحماية والكفاية . فمن ثبتت له دعواه أنزلته تلك المنزلة ، ولم أحيفه حقه ، ولا نقصته حظه ، ومن قصر عما ادّعى كانت منزلته منزلة المقصرين ، ولم أخيب أمله من مقدار ما يستحقه

حكمة مأثورة

وقال بعض البلغاء : إذا سدل الوالي على نفسه ستر الحجاب وَهَى عمود تدبيره واسترخت عليه حمائل الحزم ، وازدلفت اليه وفود الندم ، وتولى عنه رشد الراجي ، ونال أموره خلل الانتشار ، وآفة الاهمال ، وتسرع اليه العائبون بلواذع ألسنتهم ، ودبيب قوارصهم

سعيد بن عبد الملك

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب اليه : سرت إلى بابك أعزك الله ، عند ماحدث من أمرك ، فلم يُقض لقاؤك ، وعلمت أن ثقتك بما عندي

قد مثلت لك حالي من السرور بنعمة الله عندك ، وأرتك موضعي من الاعتداد بكل ماخصك ، ووصل اليك ، فوكلت العذر إلى ذلك ، ثم إنا نأتيك متيمنين بطلعتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجبنا عنك ملاحظ ، وهو كما علمت زنيم الصنيعة ، لئيم الطبيعة ، يحجب عنك الكرام ، ويأذن عليك اللئام ، كلما نجمت له يد بيضاء ، أتبعها يداً سوداء ، فان رأيت أعزك الله أن تصرفه عن باب مكارمك فعلت إن شاء الله

وصف فتى ماجد

وقال أبو السمط بن أبي حفصة

فتى لا يبالي المدلجون بنوره   إلى بابه أن لا تضيء الكواكبُ
له حاجبٌ في كل خير يعينهُ   وليس له عن طالب العُرف حاجبُ

أخذ البيت الأول من قول جده مروان بن أبي حفصة الأكبر

إلى المصطفى المهدي خاضت ركابنا   دجى الليل يخبطن السَّريجَ المخدَّما
يكون لها نور الامام محمدٍ   دليلاً به تسرى اذا الليل أظلما

وقال ادريس بن أبي حفصة وذكر إبلا

لها أمامك نور تستضيء بهِ   ومن رجائك في أعناقها حادي
لها أحاديث من ذكراك تشغلها   عن الرتوع وتلهيها عن الزاد

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدي

اذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا   كفى لمطايانا بوجهك هاديا
أليس يزيد العيس خفة أذرع   وان كُنّ حَسْرى أن تكون أماميا[1]

النجاة باسم الحبيب

وقال بعض أهل العصر

وليل وصلنا بين قُطْرَيه بالسُّرى   وقد جدَّ شوق مطمع في وصالكِ

(١) حسرى : متعبات

أدبّت علينا من دجاه حنادِسٌ　　أعدْن الطريق النهجَ وعْر المسالك
فناديت يا أسماء باسمك فانجلت　　وأسفر منها كل أسود حالك
بنا أنت من هادٍ نجونا بذكرهِ　　وقد نشبت فينا أكفّ المهالك
منحتك اخلاصي وأصفيتك الهوى　　وان كنتِ لمّا تُخطريني ببالك

ضوء الأحساب

وقال القطامي :

ذكرتكمُ ليلاً فنوّر ذكركمْ　　دجى الليل حتى انجاب عنه دياجرُه
فوالله ما أدري أضوءٌ مسجّرٌ　　لذكراكمُ أم يسجر الليل ساجرُه

وقال القيني :

وابى من القوم الذين هُمُ هُمُ　　اذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما انقض كوكبٌ　　بدا كوكب تأوى اليه كواكبُهْ
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم　　دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه

وقال الحطيئة :

نمشي على ضوء أحساب أضأن لنا　　كما أضاءت نجوم الليل للساري

وقد ردّده في موضع آخر فقال :

هم القوم الذين اذا ألمّت　　من الأيام مظلمةٌ أضاءوا

وكلام القاسم بن حنبل المدني من هذا حيث يقول :

من البيض الوجوه بني سنانٍ　　لو آنك تستضيء بهم أضاءوا
فلو أن السماء دنت لمجدٍ　　ومكرمة دنت لهمُ السماء
همُ حازوا من الشرف المعلّى　　ومن كرم العشيرة حيث شاءوا

وقال بعض المتقدمين :

اذا أشرقتْ في جُنح ليل وجوهُهُمْ　　كفوا خابط الظلماء فقد المصابيحِ

وان ناب خطب أو ألمت ملمةٌ ... فكم ثمَّ من آسى جراحٍ وجارحِ

وقال أبو بديل الوضاح بن محمد التيمي فى المستعين

وقائلة والليلُ قد نشر الدجى ... فغطّى بها مابين سهل وقرددِ(١)

أرى بارقاً يبدو من الجوسق الذى ... به حل ميراث النبى محمد

أضاءت له الآفاق حتى كأنما ... رأينا بنصف الليل نورضحىً غدِ

فظل عذارى الحى ينظمن تحته ... سلوكا من الجزع الذى لم يسرَّد

فقلت هو البدر الذى تعرفونهُ ... وإلا يكن فالنور من وجه أحمد

حث الشوق

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة فى معنى قول عمرو بن شأس فى حث الاشتياق.

خليلى ما بال المطايا كأنما ... تراها على الأعقاب بالقوم تنكُصُ

فقد اتعب الحادى سُراهن وانحنى ... بهنّ فما بالوا عَجولٌ مقلَّصُ

وقد قطِّعت أعناقهن صبابةً ... فأعينها مما تكلَّف تشخص

يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا ... إذا ازداد قرب الدار والبعد ينقص

وقال بعض الرجاز وذكر ابلا :

ان لها لسائقاً خَدلَّجا(٢) ... لم يدلج الليلة فيمن أدلجا

يريد امرأة يحبها فيحثه ما يجده من الشوق على اجهاد مطاياه بالسوق . كما أنشد اسحق الموصلى

صب يحث مطاياه بذكركُمُ ... وليس ينساكُم إن حل أو سارا

لو يستطيع طوى الأيام نحوكُمُ ... حتى يبيع بعمر القرب أعمارا

يرجو النجاة من البلوى بقربكُمُ ... والقرب يلهب فى أحشائه نارا

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبى ربيعة . يقول كلما دنا ازداد حرصا على اللقاء.

(١) القردد : ما ارتفع من الارض والجمع قراديد
(٢) خدلج : ممتلىء الذراعين والساقين

أسحق الموصلي

وشخَصَ اسحق الموصلي إلى الواثق بسُرَّ من رأى وأهله ببغداد فتصيَّد الواثق وهو معه إلى نواحي عكبراء فلما قرب من بغداد قال

طربتَ إلى الأصيبية الصغارِ وهاجك منهمُ قرب المزارِ
وكل مسافر يزداد شوقاً اذا دنت الديار من الديار

ولحنه وغناه الواثق فاستحسنه وأطربه فصرفه الى بغداد على ما أحب ، وكان اسحق قال أولا

وكل مسافر يشتاق يوماً اذا دنت الديار من الديار

فعابوا قوله (يوماً) وقالوا هي لفظة قلقة في هذا الموضع ، لم تحل بمركزها ، ولا لها هنا موقع ، قال فضعوا مكانها مثلها لا خيراً منهـا فما استطاعوا ذلك ، فغيرها إلى ما أنشدت أولا

وقال أبو نواس :

أما الديار فقلما لبثوا بهـا بين اشتياق العيس والركبانِ
وضعوا اسياط الشوق فوق رقابها حتى طلعن بهـا على الأوطان

مخلد بن بكار

وقال مخلد بن بكار الموصلي

أقول لنضو أنفد السير نَيَّها [1] ولم يبق منهـا غير عظم مجلَّدِ
خِدِي بي ابتلاك الله بالشوق والهوى وشاقك تحنان الحمام المغردِ [2]
فمرت سريعا خوف دعوة عاشقٍ تشق بي الموماة في كل فدفدِ
فلما ونت في السير ثَنَّيت دعوتي فكانت لها سوطا إلى ضحوة الغدِ

---

(١) الني : الشحم (٢) خدى : سيرى

وكان مخلد حلو الطبع وهو القائل يمدح رجلا :

يطلع النجم على صَعدته ... فاذا واجَهَ نحراً أفلا
مَعشرٌ ان ظمئت أرماحهمْ ... أوردوهن مجاجات الطلا
تحسن الألوان منهم فى الوغى ... حين تُستنكر للرعب الحلَى
سُخط عبد الله يدني الاجلا ... ورضاه يتعدّى الاملا
يُعشب الصّلدُ إذا سالمهُ ... وإذا حارب روضاً أمحلا
حل بالبأس ابن عمرو منزلاً ... طال حتى قصرت فيه العلى
حط رحلى فى ذراه جودهُ ... وتمشى فى نداه الخيزَلَى[1]

جودة الخط

سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة، فقال : إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدورُه ، وتفتحت عيونه ، ولم تشتبه راؤه ونونه ، وأشرق قرطاسه ، وأظلمت أنقاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تصوّره ، والى العقول ثمره ، وقدرت فصوله ، واندمجت أصوله ، وتناسب دقيقه وجليله ، وخرج من نمط الوراقين ، وبعد عن تصنع المحدرين ، وقام لصاحبه مقام النسبة والحلية ، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف فى صفة خط

اذا ما تجالل قرطاسَهَ ... وساوره القلم الأرقشُ
تضمن من خطه حُلّةً ... كنقش الدنانير بل أنقشُ
حروف تعيد لعين الكليل ... نشاطا ويقرؤها الأخفش

شكوى وراق

قال أبو هفان سألت ورّاقا عن حاله فقال : عيشي أضيق من محبرة ، وجسمي أدق من مسطرة ، وجاهي أرق من الزجاج ، ووجهي عند الناس أشد سوادا من الحبر بالزاج ، وحظي أخفى من شق القلم ، ويداي أضعف من قصبة ، وطعامي أمر من

(١) الخيزلى : مشية فى تثاقل

المفص ، وشرابى أحر من الجبر ، وسوء الحال ألزم لى من الصمغ ! فقلت له : عبرت عن بلاء ببلاء !

شعر الحمدونى

وقال الحمدونى :

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا · عنان شأوى عمارمت من همى
أما الدواة فأدمى جرمها جسدى · وقلّم الخط تحريفٌ من القلم
وحبّرت لى صحف الحرف محبرةٌ · تذود عنى سوام المال والنعم
والعلم يعلم أنى حين آخذهُ · لمعمق نافرٌ خلو من العصم

والحمدونى فى الحرفة أشعار مستظرفة ، وكان مليح الافتنان ، حلو التصرف وهو اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه ، وحمدويه جده وهو صاحب الزنادقة فى أيام الرشيد ، والحمدونى القائل

من كان فى الدنيا له شارة · فنحن من نَظّارة الدنيا
نرمقها من كثَب حسرةً · كأننا لفظٌ بلا معنى

وقال :

قد قلت اذ خرجوا لكى يستمطروا · لا تقنطوا واستمطروا بثيابى
لو فى حزيران هممت بغسلها · غطى ضياء الشمس جوٌ سحاب
فكأنها العباس يستسقى بهِ · عمرٌ فيرويهم دعاء مجاب.

حرفة الأدب

وقال آخر فى المعنى الأول :

لما أجدتُ حروف الخط حرّفنى · عن كل حظ وجاءت حرفة الأدبِ
أقوتْ منازلُ مالى حين وطّنها · مخيّما سَقَطُ الأقلام والكتبِ

وقال يعقوب الخزيمي :

ما ازددت فى أدبى حرفاً أُسَرُّ بهِ   الا تزيدت حرفاً تحته شُومُ
كذاك من يدّعى حذقا بصنعتهِ   أنى توجه فيها فهو محرومُ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز وزعم أنه مات حتفَ أنفه قال على بن محمد ابن بسام :

لله درك من مَيْتٍ بمضيعةٍ   ناهيك فى العلم والآداب والحسبِ
ما فيه لوٌّ ولا ليتٌ فينقصهُ   وإنما أدركته حرفة الأدبِ

فتنة وحرمان

قال ابن الرومى :

ياليت أهل البيت اذ حُرِموا   عُصموا من الشهوات والفتنِ
لكنهم حرموا وما عصموا   فقلوبهم مرضى من الحزَن
وهُمُ أطبُّ على بليتهم   من غيرهم بمضاضة الشجن

وقال جعفر بن محمد : ان الله وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعقل ولا حيلة ، إلا أن كسب المال بالحظ ، وحفظه بالعقل

ابراهيم النظام

قال ابراهيم بن سيار النظام : الذهب لئيم لأن الشكل يصير الى شكله ، وهو عند اللئام أكثر منه عند الكرام

قال المتنبي وأخذ هذا المعنى

وشبه الشيء منجذبٌ اليه   وأشبهنا بدنيانا الطَّغامُ

وكان النظام له نظر بوجوه التصرف ، وكان السلطان يصله بالكثير ، وكان محظوظا ، فاذا اجتمع له مال حبس لنفسه بلغة وفرق الباقى فى أبواب المعروف ، فقيل له فى ذلك فقال : من حق المال علىّ أن أطلبه من معدنه ، وأصيب به الفرصة عند

أهله ، ومن حق عليه أن يقيني السوء بنفسه ، ويصون عرضي بابتذاله ، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به ، ألا ترى ذا الغنى ما أدْوَم نَصَبه ، وأقل راحته ، وأخسّ من ماله حظه ، وأشد من الأيام حذره ، وأغرى الدهر بثلبه ونقصه ! ثم هو بين سلطان يرعاه ، وذوى حقوق يسبونه ، وأكفاء ينافسونه ، وولد يريدون فراقه ، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الذم ، ومن الولد الملال . وذو البُلغة قنع فدام له السرور ، ورفض الدنيا فسلم من المحذور ، ورضى بالكفاف فتنكبته الحقوق

أفكار الوراقين

قال الصولى أنشدني محمد بن أحمد بن اسحاق :

أدمى البكا جفنىَّ والمآقى ... فظَلْتُ ذا هم وذا احتراقِ
ما إن أرى فى الأرض والآفاقِ ... أدنى ولا أشقى من الورّاقِ
اذا أتى فى القُمُص الأخلاقِ ... رأيته مَطيرة العشاقِ (١)
يفرح بالأقلام والأوراقِ ... كفرحة الجندىّ بالأرزاقِ

وقال بعض الوراقين :

اذا كنتُ بالليل لا أكتبُ ... وطول النهار أنا ألعبُ
فطوراً يبطِّلنى مأكلٌ ... وطورا يبطِّلنى مشربُ
فان دام هذا على ما أرى ... فبيتىَ أوّل ما يخرب

وقيل لوراق : ما تشتهى ؟ فقال : قلما مشاقا ، وحبرا براقا ، وجلودا رقاقا .

وكل امرىء أمنيته على ما يطابق غريزته ، و يوافق نحيزته

(١) القمص جمع قيص ، والأخلاق جمع خلق بفتحتين وهو البالى

أماني الشعراء

قال على بن جبلة العكوك قال الأصمعى سئل امرؤ القيس : ما أطيب لذات الدنيا ؟ قال بيضاء رُعبوبة[1] ، بالحسن مكتوبة ، بالشحم مكروبة[2] بالمسك مشبوبة.

وسئل الأعشى عن ذلك فقال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية

وسئل طرفة عن ذلك فقال : مركب وطى ، وثوب بهى ، ومطعم شهى

قال العكوك فحدثت بهذا أبا دُلَف فقال :

أطيب الطيبات قتل الأعادى واختيالٌ على مُتون الجيادِ
ورسول يأتى بوعد حبيبٍ وحبيب يأتى بلا ميعادِ

وحدثت بذلك حُميدا الطوسى فقال :

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدى
فمنهن سبق العاذلات بشربةٍ كُميت متى ماتُعل بالماء تُزبد[3]
وكرّى اذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضى ذى السوْرة المتوردِ
وتقصير يوم الدّجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المدّد[4]

الشعر لطرفة بن العبد ، وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله فقال ما أدرى ما قالوا ، ولكنى أقول :

فاقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عينا بعيشه نفعه

فكان أسدّهم .

---

(١) رعبوبة : حلوة أو ناعمة

(٢) مكروبة : مفتولة

(٣) الكميت من الكمتة وهو لون بين الاسود والاحمر

(٤) البهكنة : البضة الناعمة البشرة

الاضبط بن قريع

والبيت للأضبط بن قريع أنشده أبو العباس ثعلب . قال و بلغني أن هذه الأبيات قيلت قبل الاسلام بدهر طويل

لكل ضيق من الأمور سَعَة ... والصبح والمسى لا فلاح معه
ما بال من سره مصابك لا ... يملك شيئاً من أمره وزعه
أذود عن حوضه ويدفعني ... ياقوم مَن عاذري من الخُدَعه
حتى اذا ما انجلت عمايته ... أقبل يلحى وغيُّه فجعه
قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه
فاقبل من الدهر ما أتاك به ... من قرّ عينا بعيشه نفعه
وصِلْ حبال البعيد ان وصل الحبـ ... ـل وأقص القريب ان قطعه
ولا تعادِ الفقير علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

هذا البيت شبيه بما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستنشدني قول اليهودي

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفهُ ... يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وان من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فأنشده فيقول : اني فطنٌ لها

وكان الاضبط سيد بني سعد ، وكانوا يشتمونه ويؤذونه ، فانتقل الى حي من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم ، فقال حيثما أُوجّه ألق سعدا ! فذهبت مثلا ، قال الطائي :

فلا تحسبنْ هنداً لها الغدر وحدها ... سجيةَ نفس كل غانيةٍ هندُ

وصف محبرة

قال بعض الكتاب يصف محبرة :

ولقد مضيت إلى المحدث آنفاً ... وإذا بحضرته ظباء رتع
وإذا ظباء الإنس تكتب كل ما ... يملى وتحفظ ما يقول وتسمع
يتجاذبون الحبر من ملمومة ... بيضاء تحملها علائق أربع
من خالص البلور غير لونها ... فكأنها سبج يلوح ويلمع
إن نكسوها لم تسل ومليكها ... فيما حوته عاجلا لا يطمع
ومتى أمالوها لرشف رضابها ... أداه فوها وهى لا تتمنع
وكأنها قلبى يضن بسره ... أبداً ويكتم كل ما يستودع
يمتاحها ماضى الشباة مذلق ... يجرى بميدان الطروس فيسرع
رجلاه رأس عنده لكنه ... يلقاه برد حفاه ساعة يقطع
وكأنه والحبر يخضب رأسه ... شيخ لوصل خريدة يتصنع
لم لا ألاحظه بعين جلالة ... وبه الى الله الصحائف ترفع

وقال أبو الفتح كشاجم :

محبرة جاد لى بها قمر ... مستحسن الخلق مرتضى الخلق
جوهرة خصنى بجوهرة ... ناطت له المكرمات فى عنق
بيضاء والحبر فى قرارتها ... أسود كالمسك جد منفتق
مثل بياض العيون زينه ... مسود ما شابه من الحدق
كأنما حبرها اذا شربت ... أقلامنا ظله على الورق
كحل مرته العيون من مقل ... نجل فأوفت به على يقق
خرساء لكنها تكون لنا ... عونا على علم أفصح النطق

وقال عبد الله بن أحمد : القلم أمره ، ما لم يكتحل بأثمد الدواة (١)

(١) أمره : فسدت عينه من قلة الكحل

العلم قبل المال

وكتب ابراهيم بن العباس كتابا فأراد محو حرف فلم يجد منديلا فمحاه بكمه ، فقيل له فى ذلك فقال : المال فرع ، والعلم أصل ، وانما بلغنا هذه الحال ، واعتقدنا هذه الأموال ، بهذا القلم والمداد ، ثم قال :

اذا ما الفكر أضمر حسن لفظ ... وأدّاه الضمير الى العيان
ووشّاه ونمنمه مسدٍّ ... فصيح بالمقال وباللسان
رأيت حُلى البيان منورات ... تضاحك بينها صور المعاني

آلات الكتابة

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام :

— الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عِتاد ، وللخاطر زناد

— غدير لا يرده غير الافهام ، ولا يمتح بغير أرشية الأقلام (١)

— دواة أنيقة الصنعة ، رشيقة الصبغة ، مسكية الجلد ، كافورية الحلية

— غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره ، وتنشأ سحب البلاغة من قراره

— دواة تداوى مرض عُفاتك ، وتدوى قلوب عداتك ، على مرفع يؤذن بدوام رفعتك ، وارتفاع النوائب عن ساحتك ، ومداد كسواد العين ، وسويداء القلب ، وجناح الغراب ، ولعاب الليل ، وألوان دهم الخيل .

وهذا من قول ابن الرومى :

حبر أبى حفص لُعاب الليل ... كأنه ألوان دُهْم الخيل

— قال الماصر : مداد ناسب خافية الغراب ، واستعار لونه من شرخ الشباب .

— أقلام جمة المحاسن . بعيدة من المطاعن . تعاصى الكاسى ، وتنانم الغامز القاسى .

— أنابيب ناسبت رماح الخط فى أجناسها ، وشاكلت الذهب فى ألوانها ، وضاهت

(١) الارشية : جمع رشاء وهو حبل الدلو

الحديد فى لمعانها ، كأنها الأميال استواء ، والآجال مضاء ، بطيئة الحفا ، قوية القوى ، لا يشظيها القط ، ولا يتشعب بها الخط .

— أقلام بحرية موشية الليط (١) ، رائقة التخطيط .

— قلم معتدل الكعوب ، طويل الأنبوب ، باسق الفروع ، روىّ الينبوع

— هو أولى باليد من البنان ، وأخفى للسر من اللسان ،

— هو للأنامل مطية ، وعلى الكتابة معونة مرضية

— نعم العدّة القلم ، يقلم أظافير الدهر ، ويملك الأقاليم بالنهى والأمر ، إن أردت كان مسجوناً لا يمل الإسار ، وإن شئت كان جواداً جاريا لا يعرف العثار ، لا ينبو إذا نبت الصفاح ، ولا يحجم إذا أحجمت الرماح .

قال أبو الفتح كشاجم يصف محبرة ومقلمة وأقلاما وسكينا :

حسبي من اللهو وآلات الطربْ ومن عِتاقٍ وثَراء ونشبْ

ومن مدام ومثانٍ تصطحبْ وهمة طمّاحة الى الرتبْ

مجالسٌ مصونة من الرِّيَبْ معمورة من كل علم وأدبْ

تكاد من حر الحديث تلتهب شعراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ

ولغة تجمع ألفاظ العربْ وفِقرا كالوعد فى قلب المحب

أو كتأتّي الرزق من غير طلبْ أجلْ وحسبي من ذوي تنتخب

محليّات بلجين وذهَبْ محبرة يزهى بهـا الحبر الأديب

مثقوبة آذانها وفى الثقب مثل شنوف الخرّد البض العُرُب (٢)

تضمن قطراً فيه للكتب عُشُب أسود يجرى بمعان كالشُهب

لا تنضب الحكمة إلا إن نضب نيطت الى يُسرى يدىّ بسبب

كالقُرط فى الجيد تدلّى فاضطرب تصحبها والأخوات تصطحب

(١) الليط بالكسر : القشر

(٢) العرب بضمتين جمع عروب وهى المرأة المتحببة إلى زوجها

كأنه يودع نبلا من قصب — لم يعلها ريش ولم تحمل عقب
لا تضحك الأوراق حتى ينتحب — ترمى بها عيناى أعراض الكتب
رميا متى أقصد به السمت أصب — ومدية كالعضب ماس القصب
غضبى على الأقلام من غير سبب — تسطو بها فى كل حين وتثب
وانما ترضيك فى ذاك الغضب — فتلك آلاتى وآلاتى تحب
والظرف فى الآلات مما يستحب — لا سيما ما كان منها للأدب

عمال المامون

تظلّم رجل الى المأمون من عامل له فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فضة إلا فضها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقاً إلا علقه ، ولا عرَضاً إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها ، ولا جليلا إلا أجلاه ، ولا دقيقاً إلا دقه . فعجب من فصاحته وقضى حاجته

قال عمرو بن سعد بن سلم : كانت نوبة أنوبهـا فى حرس المأمون فكنت فى نوبتى ليلة فخرج متفقداً من حضر فعرفته ولم يعرفنى ، فقال من أنت قلت عمرو عمرك الله ، ابن سعيد أسعدك الله ، ابن سلم سلمك الله . فقال تكلؤنا منذ الليلة ؟ قلت الله يكلؤك قبلى ، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين

فقال المأمون :

ان أخاك الحق من يسعى معك — ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا صرف الزمان صدعك — بدد شمل نفسه ليجمعك

الورد والنرجس

وقال على بن عباس الرومى :

خجلت خدود الورد من تفضيله — خجلا تورّدها عليه شاهدُ

لم يخجل الورد المورّد لونه الا وناحله الفضيلةَ عاندُ
للنرجس الفضل المبين اذا بدا بين الرياض طريفه والتالد

وكان ابن الرومى متعصباً للنرجس ، كثير الذم للورد
وكتب الى أبى الحسن بن المسيب :

أدرك ثقاتك إنهم وقعوا فى نرجس معه ابنة العنب
فهمُ بحال لو بصُرت بها سبّحت من عُجب ومن عَجب
ريحانهم ذهب على دُرَرٍ وشرابهم در على ذهب
فى روضة شتوية رضعت دَرَّ الحيا حلَبا على حلب
واليوم مدجون فحرّتهُ فيه بمطّلع ومحتجب (١)
ظلت تسامرنا وقد بعثت ضوأ يلاحظنا بلا لهب

وكان كسرى أنو شروان مستهترا بالنرجس، وكان يقول: هو ياقوت أصفر، بين در أبيض، على زمرد أخضر. نقله بعض المحدثين فقال :

وياقوتة صفراء فى رأس درةٍ مركبة فى قائم من زبرجدِ
كمثل بهى الدر عقد نظامها تبر فرندٍ قد أطاف بعسجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

رجع ابن الرومى

فصل القضية أن هــذا قائدٌ زهر الربيع وان هذا طاردُ
شتان بين اثنين هذا مُوعدٌ بتصرم الدنيا وهــذا واعدُ
فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيًّا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع مساعدُ
اطلب بعقلك فى الملاح سميّهُ أبدا فانك لا محالة واجــدُ
والورد ان فتشت فردٌ فى اسمه ما فى الملاح له سميٌّ واحد

---

(١) حرة اليوم شمسه

هذى النجوم هى التى ربّيتها ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر الى الولدين من أدناهما ... شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسةً ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هذا المذهب وذهبوا الى تفضيل الورد فما دانوه وما استطاعوه . قال احمد بن يونس الكاتب رادا عليه :

يا من يشبّه نرجساً بنواظرٍ ... دُعْجٍ تنبّهْ ان فهمك راقدُ
ان القياس لمن يصح قياسهُ ... بين العيون وبينه متباعد
والورد أصدق للخدود حكايةً ... فعلام تجحد فضله يا جاحدُ
ملك قصير عمره مستأهلٌ ... تخليده لو أن حيا خالد
ان قلت ان الورد فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سميٌّ واحد
فالشمس تفرد باسمها والمشترى ... والبدر يُشرك فى اسمه وعطارد
أو قلت ان كوا كبا ربينها ... بحيا السحاب كما يربى الوالد(١)
قلنا أحقهما بطيب أبيه فى الـ ... ـجدوى هو الزاكى النجيب الراشد
زُهر النجوم تروقنا بضيائها ... ولها منافع جمة وعوائد
وكذلك الورد الأنيق يروقنا ... وله فضائل جمة وفوائد
وخليفة ان غاب غاب بنفعهِ ... وبنفحه أبدا مقيم راكد
ان كنت تنكر ما ذكرنا بعدما ... وضحت عليه دلائل وشواهد
فانظر الى المصفرّ لونا منهما ... وافطن فما يصفر الا الحاسد

صفات الانوار والازهار

نبذ من النظم والنثر فى صفات النّور والزهر

قال على بن الجهم :

لم يضحك الورد الا حين أعجبهُ ... حسن الرياض وصوت الطائر الغَرِدِ

(١) حيا السحاب ماؤه

بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح فى أثوابها الجُدُد
وقابلته يد المشتاق تُسْنِدُهُ ... إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... أو مانعاً جفن عينيه من السُّهُدِ
بين النديمين والخلين مصرعُهُ ... وسيره من يد موصولةٍ بيدِ
ماقابلت طلعة الريحان طلعتَهُ ... إلا تبينت فيه ذلة الحسدِ
قامت بحجته ريح معطرةٌ ... تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبهُ ... بمسمع بارد أو صاحب نكِدِ

وصف الورد

وكان أزدشير بن بابك يصف الورد ويقول: هو در أبيض، وياقوت أحمر، على كراسى زبرجد أخضر، وتوسطه شذور من ذهب أصفر، له رقة الخمر، ونفحات العطر[1] أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال:

كأنهن يواقيت يطيف بها ... زمردٌ وسطَهُ شَذْرٌ من الذهبِ
فاشرب على منظر مستظرف حسن ... من خمرة مَزة كالجمر فى اللهب[2]

المتوكل وابن الضحاك

وقال يزيد المهلبى أحب المتوكل أن ينادم الحسين بن الضحاك الخليع البصرى وأن يرى ما بقى من ظرفه وشهوته لما كان عليه، فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى سكر، وقال لخادمه شفيع: اسقه، فسقاه وحياه بوردة، وكانت على شفيع أثواب موردة، فمد الحسين يده إلى درع شفيع، فقال المتوكل: أتحمش غلامى بحضرتى؟ كيف لو خلوت به! ما أحوجك ياحسين إلى أدب! وكان المتوكل غمز

(١) بعض هذا الكلام مر آنفا منسوبا الى كسرى انو شروان
(٢) مزة: لذيذة الطعم

شفيعا على العبث به ، فقال الحسين ياسيدى أريد دواة وقرطاسا ، فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاءِ حيّاً بأحمر ... من الورد يسعى فى قراطق كالوردِ

له عبثاتٌ عنـد كل تحيةٍ ... بكفّيه يستدعى الخلى إلى الوجد

تمنيت أن أسقى بكفيه شربةً ... تذكرنى ماقد نسيت من العهد

سقى الله عيشا لم أبت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

ثم دفع الرقعة إلى شفيع ، وقال ادفعها إلى مولاك ، فلما قرأها استملحها ، وقال: لوكان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك ، ولـكن بحياتى ياشفيع إلا كنت ساقيه بقية يومه ! وأمر له بمال كثير حُمل معه لما انصرف . قال يزيد المهلبى فصرت إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام فقلت : ويحك أتدرى ما صنعت ؟ قال : لاأدع عادتى بشىء ، وقد قلت بعدك

لا رأى عطفة الأحبـ ... ـة من لا يصرح

أصغر الساقيين أشـ ... ـكل عندى وأملح

لو تراه كالظبى يسـ ... ـنح طوراً ويبرحُ

خِلْت غصنا على كثيـ ... ـب بنَور يُوشَّح

قال الصولى والأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف

بيضاء فى حمر الثياب كوردةٍ ... بيضاء بين شقائق النعمانِ

تهتز فى غَيَد الشباب إذا مشت ... مثل اهتزاز نواعم الاغصانِ

ظبى يأكل النيلوفر

قال أبو بكر الصولى كان عند الخصى الوزير ظبى داجن ربيب فى داره فعمد إلى نيلوفر فأكله فاستملح الغزال وأنسه وقال . لو عُمِلَ فى أنس هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمال العمل على معنى مليح ! فبلغ الخبر أبا عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة نِفطويه فبادر لئلا يسبق وعمل أبياتا أولها

جرت ظبية غناء ترعى بروضة   تنوش لدى أفنانها ورقا خُضْرا

فى أبيات غير طائلة ، فاستبرد ما أتى به ، قال الصولى فقلت :

ونَيلوفرٍ يحكى لنا المسك طيبهُ   تراه على اللذات أفضل مسعدِ
قد اجتنّ خوف الحادثات بجنةٍ   تروق كثوب الراهب المتعبد
تركب كالكاسات فى ذهبيةٍ   على قُضُبٍ مخضرة كالزبرجدِ
وألبس ثوبا يفضل اللحظ حسنهُ   كما عبثت عينٌ بخد مورد
غذته أهاضيب السماء بدرِّها   تروح عليه كل يوم وتغتدى
تلبّس للأنوار ثوب سمائه   ففضل عنه الحسن فى كل مشهد
وفى وسطه منه اصفرارٌ يزينهُ   كياقوتة زرقاء فى رأس عسجدِ
أطاف به أحوى المدامع شادنٌ   حكى طرف من أهوى وحسن المقلَّد
كما أخذ الظمآنُ بالفم كأسَهُ   ولم يستعن فى أخذه الكاس باليد

وصف أيام الربيع

وقال أبو الحسن محمد بن على بن وكيع

يومٌ أتاك بوجهه المتهلل   ناهيك من يوم أغرّ محجَّلِ
خلع الغمام على اخضرار سمائهِ   خِلَعا فمن ممسك ومُصَنْدَلِ
وكسا الربى حللا تخالف شكلها   بمورّد ومعصْفر ومكحَّلِ
وتمايلت فيه قدود غصونهِ   من شرب كاسات العيون الهُطُّل
وعلا على الأشجار قطر سمائها   فهدت لعين الناظر المتأمل
يحكي قباب زمرد قد كللت   بمنظَّم من لؤلؤ ومفصَّل
وأتاك نَور الباقلاء كأنما   يرنو إليك بعين أكحلَ أقبل (١)
الورد يخجل كل نور طالع   وتراه منتقبا بحمرة مخجلِ

---

(١) أقبل من القبل بالتحريك وهو فى العين اقبال السواد على الأنف

وحكى بياض الطلع فى كافوره　　وجه الخريدة فى الخمار الصندلى
فكأنما الدنيا عروس أقبلت　　فى كل أنواع الملابس تجتلى
فاشرب معصفرة القميص سلافةً　　من صنعة البردان أو قطربل

وقال أبو الفتح البستى:

يوم له فضل على الأيام　　مزج السحاب ضياءه بظلام
فالبرق يخفق مثل قلب هائم　　والغيم يبكى مثل طرف هام
وكأن وجه الأرض خد متيم　　وُصِلت سِجامُ دموعه بسجام
فاطلب ليومك أربعاً هن المنى　　وبهن تصفو لذة الأيام
وجه الحبيب ومنظراً مستشرقا　　ومغنيا غَرِداً وكأس مدام

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

سلّ الربيعُ على الشتاء صوارما　　تركته مجروحا بلا إغماد
وبكت له عين السماء بأدمع　　ضحكت لساجمها ربى الأنجاد
وبدت شقائقها خلال رياضها　　تُزهى بثوبَىْ حُمرة وسواد
فكأنها بنت الشتاء توجعت　　لمُصابه كشقيقة الأولاد
فقنوء حمرتها خضاب نجيعه　　وسواد كسوتها لباس حداد

وقال :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقا　　كعقد عقيق بين سمط لآلى
وفيهن أنوار الشقائق قد حكت　　خدود عذارى نُقّطت بغوالى

وقال :

كأن الشقائق إذ أبرزت　　غلالة داد وثوبا أحم
قطاع من الجمر مشبوبةٌ　　فأطرافها لمَعَ من حُمَم

وقال فى حديقة ريحان:

أعددت محتفلا ليوم فراغى　　روضا غدا إنسان عين الباغ[1]

(١) الباغ قيم البستان

روض يروض هموم قلبي حسنهُ فيه لـكأس الأنس أى مساغ
فاذا بدت قضبان ريحان به حيت بمثل سلاسل الاصداغ

وقال فى النرجس :

أهلا بنرجس روضٍ يزهى بحسن وطيب
يرنو بعين غزالٍ على قضيبٍ رطيبِ
وفيـه معنى خفى يزينه للقـلوب
تصحيفه ان نسقت الا حروف بر حبيب

وقال :

وما ضم شمل الانس يوما كنرجس يقوم بعذر اللهو عن خالع العذر (١)
فأحداقه أحداق تبرٍ وساقهُ كقامة ساقٍ فى غلائله الخضرِ

وقال البحترلى :

سقى الغيثُ أكنافَ اللوى من محلةٍ الى الحقف من رمل اللوى المتقاودِ
ولا زال مخضر من الروض يانعٌ عليه بمحمر من النوّر جاسدِ
شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائدِ
ومن لؤلؤ فى الاقحوان منظمٍ ومن نُكَتٍ مصفرة كالفرائدِ
كأن جنى الحوذان فى رونق الضحى دنانير تبرٍ من تُوام وفاردِ
رباع تردّت بالرياض مجوُدَةً بكل جديد الماءِ عذب الموارد (٢)
اذا راوحتها مزنة بكرت لها شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد

(١) العذر : جمع عذار
(٢) تردت بالرياض : اتخذت منها رداء

فى مجلس المبرد

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه قال لى البحترى وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلكنا مسلكا من المذاكرة : أشعرت انى سبقت الناس كلهم الى قولى

شقائق يحملن الندى فكأنهُ دموع التصابى فى خدود الخرائدِ
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد

هكذا أنشد . فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه ، وقال : ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرطبة ، والعبارة العذبة ، لأحد تقدمك ولا تأخر عنك . فاعترته أريحية جرّ بها رداء العُجب ، فكأنه أعجبنى مايعجب الناس من مراجعة القول ، فقلت : ياأبا عبادة ! لم تسبق الى هذا ؟ بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب الى البيت الأول بقوله :

عَذُبَ الفراق لنا قُبيل وداعنا ثم اجترعناهُ كسمّ ناقعِ
وكأنما أثر الدموع بخدها طَلٌّ تساقط فوق ورد يانعِ

وشركك فيه صديقنا أبو العباس الناشى بما أنشدنيه آنفاً

بكت للفراق وقد راعنى بكاء الحبيب لبعد الديارْ
كأن الدموع على خدها بقية طل على جُلّنار (١)

وما أساء على بن جريج بل أحسن فى زيادته عليك بقوله :

لو كنت يوم الوداع شاهدنا وهنّ يطفين غُلة الوجْدِ
لم تر إلاّ دموع باكيةٍ تسفح من مقلةٍ على خدِ
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

---

(١) الجلنار : زهر الرمان ، وهو فارسى معرب

وسبقك أبو تمام الى معنى البيتين معا بقوله :

من كل زاهرة ترقرق بالندى　　فكأنها عين اليه تحدّرُ
تبدو ويحجبها الجميم كأنها　　عَذْراء تبدو تارة وتخفّرُ (١)
خلق أطل من الربيع كأنهُ　　خلق الامام وهَدْيهُ المتنشرُ
فى الارض من عدل الامام وجوده　　ومن الربيع الغض سَرح يزهر (٢)
يُنسى الربيعَ ومايروّض جودهُ　　أبدا على مر الليالى يذكر

قال فشق ذلك عليه ، وحل حبوته ونهض ، فكان آخر عهدى بمؤانسته وغلظ ذلك على محمد بن يزيد وقدح ذلك فى حالى عنده.

الهيثم بن عثمان الغنوى

وقال البحترى يمدح الهيثم بن عثمان الغنوى :

ألست ترى مدّ الفرات كأنهُ　　جبال شرورى جئن فى البحر عوّما
وما ذاك من عاداته غير أنهُ　　رأى شيمة من جاره فتعلما
وقد نبّه النوروز فى غبش الدجا　　أوائلَ وردٍ كُنّ بالأمس نُوّما
يُفتّحها برد الندى فكأنهُ　　يبث حديثا بينهن مكتّما
ومن شجر رد الربيع لباسه　　عليه كما نشّرت بُرداً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة　　وكان قَذّى للعين مُذ كان محرِما
فما يمنع الراح التى أنت خلها　　وما يمنع الاوتار أن تترنما
ومازلت خِلاً للندامى إذا اغتدوا　　وراحوا بدوراً يستحثون أنجما
تكرمت من قبل الكؤوس عليهمُ　　فما اسطَعن أن يحدثن فيك تكرما

---

(١) الجميم : النبت الغزير

(٢) السرح : كل شجر طال

الطيور فى الربيع

وقال :

حيتك عنا شمال طاف طائفها ... بجنة فجرت راحا وريحانا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه ... سرا بها وتداعى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة ... تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هزه عطفيه نشوانا

بستانية ابن المعتز

ولابن المعتز فى أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصبوح صفة جامعة إذ قال :

أما ترى البستان كيف نورا ... ونشر المنثور بردا أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائق ... واعتنق الورد اعتناق الوامق
فى روضة كحلية العروس ... وحرم كهامة الطاووس
وياسمين فى ذرى الأغصان ... منظم كقطع العقيان
والسرو مثل قضب الزبرجد ... قد استمد الماء من ترب ندِ
على رياض وثرى ندىّ ... وجدول كالبرد الحلىّ
ومرج الخشخاش جيبا وفتق ... كأنه مصاحف بيض الورق
أو مثل أقداح من البلور ... تخالها تجسمت من نور
وبعضه عريان من أثوابه ... قد خجل اليابس من أصحابه
تبصره عند انتثار الورد ... مثل الدبابيس بأيدى الجند
والسوسن الآزاد منشور الحلل ... كقطن قد مسه بعض بلل
نور فى حاشيتى بستانه ... ودخل الميدان فى صميانه
وقد بدت فيه ثمار الكنكر ... كأنها جماجم من عنبر

وحلّق البهار بين الآسِ ... جمجمة كهامة الشماسِ
خلال شيح مثل شيب النصف ... وجوهر من زهر مختلف
وجلنار كاحمرار الوردِ ... أو مثل أعراف ديوك الهندِ
والاقحوان كالثنايا الغرِّ ... قد صقلت أنواره بالقطرِ

أمطار الربيع

وقال أبو الفتح كشاجم :

وروض عن صنيع الغيث راضٍ ... كما رضيَ الصديق عن الصديقِ
اذا ما القطر أسعده صَبُوحاً ... أتمّ له الصنيعة فى الغَبُوقِ
يعير الريح بالنفحات ريحاً ... كأن ثراه من مسك فتيقِ
كأن الطل منتشراً عليه ... بقايا الدمع فى خد المشوق
كأن غصونه سُقيت رحيقاً ... فمالت مثل شُرّاب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه ... مخضّرةً شقائق من عقيق
يذكرنى بنفسجه بقايا ... صنيع اللطم فى الخد الرقيق.

وقال :

غيث أتانا مؤذنا بالخفضِ ... متصل الوَبْل سريع الركْضِ
دنا فخلناه دُوَيْن الأرض ... متصلا بطوله والعَرْض
إلفا إلى إلفٍ بسر يُفضى ... ثم سما كاللؤلؤ المُرْفضّ
فالأرض تجلى بالنبات الغضّ ... فى حَلْيها المحمرِّ والمبيضّ
من سَوْسَنٍ أحوى وورد غضٍ ... مثل الخدود نُقّشت بالعض
وأقحوان كاللجين المحضِ ... ونرجس زاكى النسيم بضِ
مثل العيون رنّقت للغمضِ ... ترنو فيغشاها الكرى فتغضى.

صفات الأزهار

جملة من هذا النوع لأهل العصر — قال أبو فراس الحمدانى :

وجُلّنارٍ مشرقٍ على أعالى شجرِهْ
كأنَّ فى رؤوسهِ أحمرِهِ واصفرِهْ
قراضة من ذهب فى خرقة معصفره

وقال :

و يوم جلا فيه الربيع رياضهُ بأنواع حَلْىٍ فوق أثوابه الخُضْر
كأن ذيول الجلنار مطلةً فضول ذيول الغانيات من الأُزر

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها :

و بنت أيكٍ كالشباب النضْرِ كأنها بين الغُصُون الخُضر
جَنان باز أو جنان صَقرِ قد خفقته لَقْوة بوكر[1]
كأنما سَحّت دماً من نحْرِ أو نبتت فى تربة من جمْرِ
أو سقيت بجدول من خمْرِ لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كمثل النهد فوق الصدر تفترّ عن مثل اللثات الحمرِ
فى مثل طعم الوصل بعد الهجر

أوصاف الرياض

ولهم فى هذا المعنى :

— روضة رقت حواشيها ، وتأنق واشيها
— روضة كالعقود المنظمة ، على البرود المنمنمة
— روضة قد راضتها كف المطر ، ودبجتها أيدى الندى
— أخرجت الأرض أسرارها، وأظهرت يد الغيث آثارها ، وأبدت الرياض أزهارها

(١) اللقوة : العقاب

— الرياض كالعرائس فى حليها وزخارفها ، والقيان فى وشيها ومطارفها ، باسطة زرابيها وانماطها ، ناشرة حبراتها ورياطها ، زاهية بحمراتها وصفراتها ، تائهة بعيدانها وغدرانها ، كأنما احتفلت لوفد ، أو هى من حبيب على وعد

— روضة قد تضوعت بالأرج الطيب أرجاؤها ، وتبرجت فى ظلل الغمام صحراؤها ، وتناجت بنوافج المسك أنوارها ، وتعارضت بغرائب النطق أطيارها

— بستان رق نوره النضيد ، وراق عوده النضير

— بستان عوده خضر ، ونوره نضر ، وينعه خضل ، وماؤه خصر

— بستان أرضه للبقل والريحان ، وسماؤه للنخل والرمان

— بستان أنهاره مفروزة بالازهار ، وأشجاره موقرة بالثمار

— أشجار كأن الحور أعارتها قدودها ، وكستها برودها ، وحلتها عقودها

— الربيع شباب الزمان ، ومقدمة الورد والريحان

— زمن الورد مرموق ، كأنه من الجنة مسروق

— قد ورد كتاب الورد ، باقباله الى أهل الود

— اذا ورد الورد ، صدر البرد

— مرحبا باشراف الزهر ، فى أطراف الدهر ، وأنشد :

سقى الله ورداً صار خدّ ربيعنا   فقد كان قبل اليوم ليس له خدّ

— كأن عين النرجس عين ، وورقه ورق (١)

— النرجس نزهة الطرف ، وظرف الظرف ، وغذاء الروح

— شقائق كتيجان العقيق على رؤوس الزنوج ، كأنها أصداغ المسك على الوجنات الموردة

— شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دماؤها ، وضعفت فسال ماؤها

— كأن الشقيق جام من عقيق أحمر ، ملئت قرارته بمسك اذفر

(١) العين الذهب ، والورق الفضة

— الأرض زمردة والاشجار وشى ، والماء سيوف والطيور قيان

— قد غردت خطباء الاطيار ، على منابر الأنوار والأزهار

— اذا صدح الحمام ، صدع الحمام ، قلب المستهام

— انظر الى طرب الأشجار ، لغناء الاطيار

— ليس للبلابل (١) كغناء البلابل ، وخمر بابل

أيام الربيع

(ولهم فيما يتعلق بهذا النحو فى وصف أيام الربيع)

— يوم سماؤه فاختية ، وأرضه طاوسية

— يوم جلابيب غيومه رواق ، وأردية نسيمه رقاق

— يوم ممسك السماء ، معصفر الهواء ، معنبر الروض ، مصندل الماء

— يوم زُر عليه جيب الضباب ، وانسحب فيه ذيل السحاب

— يوم سماؤه كالخز الأدكن ، وأرضه كالديباج الأخضر

شادنٌ يرتعى القلوب بيغدا ... دَ ولا يرتعى الكلا بالنباجِ

أقبلت والربيع يختال فى الرو ... ض وفى المزن ذى الحيا الثجّاجِ

ذو سماء كأدكن الخز قد غيـ ... ـمت وأرض كأخضر الديباج

فتجلى عن كل ما يتمنى ... موعد الكدخداة والهيلاج

فظللنا فى نزهتين وفى حسـ ... ـنين بين الارمال والاهزاج

بفتاة تسرنا فى المثانى ... وعجوز تسرنا فى الزجاج

أخذت من رؤوس قوم كرام ... ثارها عند أرجل الاعلاج

— يوم حسن الشمائل ، ممتع المخايل ، سجسج الهواء ، مونق الارجاء

— يوم تبسم عنه الربيع ، وتبرج عنه الروض المريع

— يوم كأن سماءه مأتم تتباكى ، وأرضه عروس تتجلى

(١) البلابل الاشجان

— يوم مشهر الأوصاف ، أغر الاطراف

— يوم يغني فيه النور وينتبه ، وتسفر فيه الشمس وتنتقب ، وتعتنق الغصون وتفترق ، ويوشي الغيم وينسكب

— يوم غاب نحسه وهوى ، وطلع سعده واعتلى ، والزمان ساقطة جماره ، مفعمة أنهاره ، مونقة أشجاره ، مغردة أطياره

— نحن في غب سماء ، قد أقلعت بعد الارتواء ، واقشعت عند الاستغناء ، فالنبت خضل ممطور ، والنقع ساكن محصور

— يوم جوه طاروني ، وأرضه طاووسي

— يوم دجنه عاكف ، ومطره واكف

— يوم من أعياد العمر ، وأعيان الدهر

الربيع والرفاق

﴿ ولهم في تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الاخوان والسادة ﴾

— غيث متشبه بكفك ، واعتداله مضاه لخلقك ، وزهره موازٍ لنشرك ، كأنما استعار حلله من شيمتك ، وحليه من سجيتك ، واقتبس أنواره من محاسن أيامك ، وأمطاره من جودك وانعامك

— قدم الربيع منتسبا الى خلقك ، مكتسيا محاسنه من طبعك ، متوشحاً بأنوار لفظك ، متوضحا بآثار لسانك ويدك

— أنا في بستان أذكرني ورده المفتح بخلقك ، وجدوله السابح بطبعك ، وزهره الجني بقربك

— أنا في بستان كأنه من شمائلك سُرق ، ومن خُلُقك خلق ، وقد قابلتني أشجار تمايل ، فتذكرني تبريح الأحباب ، اذا تداولتهم أيدي الشراب

— أنهار كأنها من يدك تسيل ، ومن راحتيك تفيض

— أنا على حافة حوض أزرق كصفاء مودتي لك ، ورقة قولي في عتبك

الصوم فى الربيع

وقال ابن عون الكاتب :

جاءنا الصوم فى الربيع فهلا اختا ... رَ رُبعًا من سائر الارباعِ
وكأن الربيع فى الصوم عِقدٌ ... فوق نحرٍ غطّاه فضل قِناعِ

يوم الشك

وكتب أبو الفتح كشاجم الى بعض اخوانه يستدعيه الى زيارته فى يوم شك :

هو يوم شك يا علىٌّ ... وبشره مُذْ كان يُحْزَرْ
والجوّ حلته ممسّكة ... ومِطْرَفه مُعنبر
والماء فضى القميـ ... ـص وطيلسان الأرض أخضر
نبت يصعّد زهره ... فى الروض قطر ندًى تحدّر
ولنا فضيلات تكو ... ن ليومنا قوتا مقدّر
ومدامة صفراء أد ... رك عمرها كِسْرَى وقيْصر
فانشط لنا انحث من ... كاساتنا ما كان أكبر
أوْلا فانك جاهل ... ان قلت انك سوف تعذر

شهر رمضان

وكتب بديع الزمان الى بعض أهل همذان :

« كتابى أطال الله بقاك عن شهر رمضان ، عرّفنا الله بركة مقدمه ، ويمن مختتمه ، وخصك بتقصير أيامه ، واتمام صيامه وقيامه ، فهو وان عظمت بركته ، ثقيل حركته ، وان جل قدره ، بعيد قعره ، فان حسن وجهه فليس يقبح قفاه ، وما أحسنه فى القذال ، وأشبه ادباره بالاقبال ، جعل الله قدومه سبب ترحاله ، وبدره فداء هلاله ، وأمد

فلكه تحريكا ، بتقضى مدته وشيكا ، وأظهر هلاله نحيفا ، ليزف الى اللذات زفيفا .
وعفا الله عن مزح يكرهه ، ومجون يسخطه »

عوّل البديع فى هذا الكلام على قول أبى الفضل بن العميد فى رسالة له فى مثل ذلك :

« أسأل الله أن يعرفنى بركته ، ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه فى أن يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ، ويرد علىّ غرة شوال ، فهى أسنى الغُرر عنــدى ، وأقرها لعينى ، ويطلع بدره ، ويرينى الأيدى متطلبة هلاله بشر ، ويسمعنى النعى لشهر رمضان ، ويعرض علىّ هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر ، وأبلى من أسير الهجر .
وأستغفر الله جل وجهه مما قلت إن كرهه ، وأستعفيه من توفيق لما يذمه ، وأسأله صفحا يفيضه ، وعفوا يوسعه . انه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »

عواقب الطيش

قال المأمون لطاهر بن الحسين : صف لى أخلاق المخلوع ، فقال : كان واسع الصدر ، ضيق الأدب ، يبيح من نفسه ما تأنفه همم الأحرار ، ولا يصغى الى نصيحة ، ولا يقبل مشورة ، يستبد برأيه ، ويُبَصَّر سوء عاقبته فلا يردعه ذلك عما يهم به .
قال فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتائب بالتبذير ، ويفرقها بلا تدبير .
فقال المأمون : لذلك حل ما حل به ، أما والله لو ذاق لذات النصائح ، واختار مشورات الرجال ، وملك نفسه عن شهواتها ، لما ظفر به

الامين والمأمون

ولما عقد الرشيد البيعة للأمين وهو أصغر من المأمون لأجل أمه زبيدة ، وكلام خيها عيسى بن جعفر . وقدّمه على المأمون ، حمل يرى فضل عقله فيندم على ذلك فقال :

لقد بان وجهُ الرأى لى غير أننى غُلبت على الأمر الذى كان أحزما
فكيف يُرَد الدَّرّ فى الضَّرع بعد ما توزّعَ حتى صار نهباً مقسّما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وان يُنقض الحبل الذى كان أُبرما

قال أسد بن يزيد بن مزيد : بعث الىّ الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الانبارى ، قال فأتيته وهو فى صحن داره . وفى يده رقعة قد غضب لما نظر فيها ، وهو يقول : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته فرجه ، لايفكر فى زوال نعمة ، ولا يتروّى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد شمر له عبد الله عن ساقه ، وفوّق له أشد سهامه ، يرميه على بعد الدار ، بالحتف الناقر والموت الفاقر ، قد عبّى له المنايا على متون الخيل وناط له البلاء فى أسنة الرماح وشفار السيوف ، ثم تمثل بشعر البعيث

يقارع أتراك ابن خاقان ليلهُ الى أن يرى الإصباح لا يتلعثمُ
فيصبح فى طول الطراد وجسمهُ نحيل وأضحى فى النعيم أصمّمُ
فشتان ما بينى وبين ابن خالد أمية فى الرزق الذى الله يقسم

ثم قال يا أبا الحارث أنا وأنت نجرى الى غاية ان قصرنا عنها ذممنا ، وان اجتهدنا فى بلوغها انقطعنا ، وانما نحن شعبة من أصل ان قوى قوينا ، وان ضعف ضعفنا ، ان هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا ، وقد أمكن أهل اللهو والخسار من سمعه ، فهم يمنونه الظفر ، ويعدونه عواقب الأيام ، والهلاك اليه أسرع من السيل ، الى قيعان الرمل ، وقد خشيت أن نهلك بهلاكه ، ونعطب بعطبه ، وأنت فارس العرب ، وابن فارسها ، وقد فزع اليك فى لقاء طاهر لأمرين : احدهما صدق طاعتك ، وفضل نصيحتك ، والثانى يُمن نقيبتك ، وشدة بأسك ، وقد أمرنى أن أبسط يدك ، غير ان الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح البركة فبادر بما تريد ، وعجل النهضة ، فانى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح ، ويلم بك شعث الخلافة ، فقلت له انا لطاعتك وطاعة أمير المؤمنين مقدم ، ولما وهن عدوكما مؤثر

بعضهم أن المحارب لا يفتتح أمره بتقصير ، وانما ملاك أمره بالجنود ، والجنود لا تكون بلا مال ، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائب الى قوم لم يُجدوا عليه ، ومتى سُمت من أقدر على الانتفاع به الرضى بدون ما أخذه غيره ممن لم يكن عنده غناء ولا معونة ، لم ينتظم بذلك التدبير ، وأحتاج لأصحابي رزق سنة قبضا ، وحملا الى الف فرس ، احمل من لا أرتضي فرسه ، والى مال أستظهر به لا ألام على وضعه حيث رأيت . فقال شاور أمير المؤمنين ، فأدخلني عليه فلم تدر بيني و بينه كلمتان حتى أمر بحبسي

طاهر بن الحسين

ويروى أن الأمين لما أعيته مكائد طاهر قال :

بُليت بأشجع الثقلين نفسا ... تزول الراسيات وما يزول
له مع كل ذي بدن رقيب ... يشاهده ويعلم ما يقول
فليس بمغفل أمراً عناه ... اذا ما الأمر ضيعه الجهول

الفضل والربيع

وفي الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء :

كم من مقيم ببغداد على طمعٍ ... لولا رجاء أبي العباس لم يُقِمِ
البدر ان نظروا والبحر ان رغبوا ... والحصن ان رهبوا والسيف ذو النقم

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : ما مدحنا شاعر بشعر أحب الينا من قول أبي نواس :

ساد الملوك ثلاثةٌ ما منهمُ ... ان حُصِّلوا إلا أغر قريعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعده ... وعلت بعباس الكريم فروعُ
عباس عباسٌ اذا احتدم الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع

وقيل للعتابي : أمدحت أحداً ؟ قال لا ، وليس لي على ذلك قدرة . فقيل له فقد مدحت الربيع . فقال ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت :

ومعضلة قام الربيع ازاءها ليعمد ركن الدين لما تهدما
بمكة والمنصور رهن كما أتى أخا الوحي داعي ربه فتقدما
غداةَ عداةُ الدين شاحذة المُدَى اليه وغول الحرب فاغرةٌ فما

وكان المنصور قد توفى بمكة وهو حاج فى ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة فأخذ الربيع للمهدى البيعة على الناس ، وأخذ بتجديدها على المنصور ، على أنه حي ، وأدخل اليه قوماً فرأوه من بعيد وقد جلله بثوب ، وأقعد الى جنبه من يحرك يده وكأنه يومي بها اليهم ، فلم يشكوا فى حياته ، فما خالف أحد ، فشكره المهدى لذلك ، وفى ذلك يقول أبو نواس فى مدحه الفضل بن الربيع

أبوك جلّى عن مضر يوم الرواق المحتضر
والحرب تفرى وتذر لما رأى الأمر اقمطر
قام كريماً فانتصر كهزة العضب الذكر
ما مس من شيء هبر وأنت تقتاف الأثر
من ذي حُجول وغُرر

وقال أيضاً :

آل الربيع عصلتمُ فصل الخيس على العشير (١)
من قاس غيركمُ بكم قاس الثماد الى البحور
أين القليل بنو القليـ ـل من الكثير بنى الكثير
أين النجوم الثاقبا ت من الأهلة والبدور
قوم كفوا أيام مكة بازل الخطب الكبير
وتداركوا نصر الخلا فة وهي ساهمة النصير
لولا مقامهم بها هوت الرواسي من ثبير

(١) الخيس : الخس ، والعشير : العسر

ومن قول أبي نواس : (من قاس غيركم بكم) البيت ، أخذ أبو الطيب المتنبي :

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فتى ماسرينا في ظهور جدودنا ... الى عصره الا نُرجّي التلاقيا

كلمات الفضل بن الربيع

وقال الفضل بن الربيع :

من كلم الملوك في الحاجات في غير وقت الكلام لم يظفر بحاجته ، وضاع كلامه ، وما أشبههم في ذلك الا بأوقات الصلوات لا تقبل الصلاة الا فيها ؛ ومن أراد خطاب الملوك في شيء فليرصد الوقت الذي يصلح في مثله ذكر ما أراد ، و يسبب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذكره بعقبه

وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يا فضل ، أكان في حق عليك ، وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تثلبني ، وتسبني ، وتحرض على دمي ؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي ؟ فقال يا أمير المؤمنين ان عذري يحقدك اذا كان واضحا جميلا ، فكيف اذا حفّته العيوب ، وقبحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر فيك

صفوحٌ عن الاجرام حتى كأنهُ ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى ... اذا ما الأذى لم يغشَ بالكره مسلما

والشعر للحسن بن رجاء بن أبي الضحاك

المنصور والربيع

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع فقال سلني ما تريد ، فقد سكت حتى نطقت ، وخففت حتى ثقلت ، وأقللت حتى أكثرت . فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ، ولا أستقصر عمرك ، ولا أستصغر فضلك ، ولا أغتنم مالك ، وان يومي بفضلك عليّ أحسن من أمسي ، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ،

ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد . قال صدقت ، علمى بهذا منك أحلك هـذا المحل ، فسلنى ما شئت ، قال أسألك أن تقرب عبدك الفضل ، وتؤثره وتحبه . قال : يا ربيع ، إن الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وانما تؤكده الأسباب . قال : فاجعل لى طريقا اليه ، بالتفضل عليه ، قال صدقت ، وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولم أصل بهـا أحداً غير عمومتى ، لتعلم ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، ثم قال فكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، تُستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه . قال صدقت وأتيت بما أردت فى بابه

أخذ قوله خففت حتى ثقلت أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات

على ان افراط الحيـاء استمالنى ... اليك ولم أعدل بعرضىَ مَعْدِلا
فثقّلت بالتخفيف عنك وبعضهم ... يخفف فى الحاجات حتى يثقلا

سهل بن هارون والرشيد

ودخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبيا على أمسه ، مقصرا عن غده ! فقال له الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، اذا رام أن يقول لم يعجزه القول . فقال سهل بن هارون يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدا تقدمنى الى هذا المعنى ، قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك أمس خير بنى لؤىّ ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

شعر الفضل بن الربيع

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولى :

إنى امرؤ من هاشم ... بفناء معمور النواحى
أهل الهدى وذوى التقى ... وأولى البسالة والسماح
أهـل المعالم والمكا ... رم فى المساء وفى الصباح
أهل النبوّة والخـلا ... فة والكمال برغم لاحى
يتألمون من الصدو ... د ويصبرون على الجراح

أبو العيناء وابن خاقان

حمل محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دابة زعم انها غير فاره ، فكتب اليه : أعلم الوزير أعزه الله ان أبا على محمدا أراد أن يبرنى فعقنى ، وأن يركبنى فأرجلنى ، أمر لى بداية تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجفاً ، وكالعاشق المهجور دنفا ، قد أذكرت الرواة عذرة العذرى ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله ، حباقه مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجيت ، ولو أفرد لتعزيت ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول نوّله الشعير ، قد حفظ الاشعار ، وروى الاخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحق وصدق ، عن جابر الجعفى ، وعامر الشعبى ، وانما أتيت من كاتبه الأعور ، الذى اذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وان اختار لغيره أخبث وأنزر ، فان رأى الوزير أن يبدلنى به ، ويريحنى منه ، بمركوب يضحكنى كما ضحك منى ، يمحو بحسنه وفراهته ، ماسطره العيب بقبحه ودمامته! ولست أذكر أمر سرجه ولجامه ، فان الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه ، أو ينقض ما يمضيه

فوجه عبد الله اليه برذونا من براذينه بسرجه ولجامه ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله

عند أبيه فقال عبيد الله شكوت دابة محمد ، وقد أخبرنى الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لايشتكى منه . فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيدا ، لم أنصرف مستفيدا ، وانى واياه لكما قالت امرأة العزيز (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فضحك عبيد الله وقال حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك ، أبلغ من حجة غيرك البالغة

طرفة أدبية

﴿ قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابى عن أبى العباس ابن سابور المستخرج الى الخير بن مبرة عن رقعة وردت منه فى صفة حمل أهداه ﴾

وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفظ مونق ، وعبارة مصيبة، ومعان غريبة ، واتساع فى البلاغة يعجز عنه عبدالحميد فى كتابته ، وقس وسحبان فى خطابته ، وتصرف بين جد أمضى من القدر ، وهزل أرق من نسيم السحر ، وتقلب فى وجوه الخطاب ، الجامع للصواب ، إلا أن الفعل قصر عن القول ، لأنك ذكرت حملا ، جملته بصفتك جملا ، فكان المعيدي الذى تسمع به ولا أن تراه. وحضر فرأيت كبشا ، متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور ، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينته ، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته ، صغر عن الكبر ولطف عن القدم ، فبانت دمامته ، وتقاصرت قامته ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليا هزيلا ، بادي السقام ، عارى العظام ، جامعا للمعايب ، مشتملا على المثالب ، يعجب العاقل من حلول الحياة به، وتأتى الحركة فيه ، لأنه عظم مجلد ، وصوف ملبد ، لا تجد فوق عظامه سلبا ، ولا تلقى يدك منه الا خشبا ، لو ألقى الى السبع لأباه ، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه ، قد طال للكلأ فقده ، و بعد بالمرعى عهده ، لم ير القت الا نائما ، ولا عرف الشعير إلا حالما ، وقد خيرتنى بين أن اقتنيه ، فيكون فيه غنى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرحل ، فملت الى استبقائه لما تعرف من محبتى فى التوفير ، ورغبتى للتثمير ، وجمعى

للولد ، وادخاري للعتد ، فلم أجد فيه مستمتعاً للبقاء ، ولا مدفعاً للفناء ، لأنه ليس بأنثى فتحمل ، ولا بفتى فينسل ، ولا بصحيح فيرعى ، ولا بسليم فيبقى ، فملت الى الثاني من رأييك ، وعولت على الآخر من قوليك ، وقلت أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال ، فأنشدني وقد أضرمت النار ، وحُدّت الشفار ، وشمر الجزار

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً ... ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحي ، وأنا لم يبق مني إلا نَفَسٌ خافت، ومقلة إنسانها باهت ، لست بذي لحم فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا جلدي يصلح للدباغ، لان الأيام قد مزقت أدمي ، ولا لي صوف يصلح للغزل ، لأن الحوادث قد حصت وبري ؛ فان أردتني للوقود فكف بعر أبقى من نارى ولن تفي حرارة جمرى بريح قتارى ، فلم يبق الا أن تطلبني بذحل ، أو بيني و بينك دم ، فوجدته صادقا فى مقالته ، ناصحاً فى مشورته ، ولم أعلم من أى أمريه أعجب أمن مماطلته الدهر بالبقاء، أم صبره على الضر واللأواء ، أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهيلك الصديق به مع خساسة قدره ، ويا ليت شعرى إذ كنت و إليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ فى الضأن والمعز ، وكل كبش سمين ، وحمل بطين ، مجلوب اليك ، مقصور عليك، تقول فيه قولا فلا تُرد ، وتريده فلا تُصد ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنت مهديا لو أملك رجل من عرَض الكتّاب كأبي على وأبي الخطاب ، ما كنت تهدى إلا كلبا أجرب ، أو قرداً أحدب

شاة سعيد بن أحمد

وقال الحمدوني فى شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذ

أسعيد قد أعطيتني أضحيةً ... مكثت زمانا عندكم ماتطعمُ

نِضوٌ تعاقرت الكلاب بها وقد ... ببذوا سلبها كى تموت وتولم

فاذا الملا ضحكوا بها قالت لهم لا تهزؤا بى وارحمونى تُرحموا
مرت على علف فقامت لم تَرِم عنه وغنت والمدامع تسجم
«وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخَّر عنه ولا متقدَّمُ (١)»

وقال أيضاً

أبا سعيد لنا فى شاتك العبرُ جاءت وما إن لها بول ولا بعَرُ
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت طعامها الا بيضان الشمس والقمر
لو أنها أبصرت فى نومها علفاً غنت له ودموع العين تنحدر
يا مانعى لذة الدنيا بأجمعها انى ليفتننى من وجهك النظر

وقال أيضاً

شاة سعيد فى أمرها عِبَرُ لما أتتنا قد مسها الضرر
وهى تغنّى من سوء حالتها حسبى بما قد لقيت ياعمر
مرّت بقطف خضر ينشّرها قوم فظنت بأنها خُضرُ
فأقبلت نحوها لتأكلها حتى إذا ما تبين الخبر
وأبدلتها الظنون من طمع يأسا تغنت والدمع منحدر
كانوا بعيداً وكنت آملهم حتى اذا ما تقربوا هجروا

وقال:

لسعيد شُوَيْهةٌ سلّها الضرُّ والعجف
قد تغنّت وأبصرت رجلا حاملاً علف
بأبى من بكفهِ بره مابى من الدنَف
فأتاها مطمّعا وأتته لتعتلف
فتولى فأقبلت تتغنى من الأسف
ليته لم يكن وقف عذّب القلب وانصرف

(١) البيت من شعر دعبل الخزاعى

طيلسان ابن حرب

وإذ قد جرت بعض تضمينات الحدونى فى هذا الموضع فأنا أذكر هنا قطعة من شعره فى الطيلسان وأنعطف فى غير هذا الموضع اليها وأكر عليها ، وكان أحمد بن حرب المهلبي من المنعمين عليه ، والمحسنين اليه ، وله فيه مدائح كثيرة . فوهب له طيلسانا أخضر لم يرضه . قال أبو العباس المبرد فأنشدنا فيه عشر مقطعات ، فاستحلينا مذهبه فيها فجعلها فوق الخسين فطارت كل مطار ، وسارت كل مسار ، فمنها :

يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا   ملّ من صحبة الزمان وصدا
فحسبنا نسج العناكب قد حال   الى ضعف طيلسانك سدا
طال ترداده الى الرفو حتى   لو بعثناه وحده لتهدّى

وقال فيه أيضا

ياطيلسان بن حرب قد هممت بأن   تودى بجسمى كما أودى بك الزمن
مافيك من ملبس يغنى ولا ثمن   قد أوهنت حيلتى أركانك الوهن
فلو ترانى لدى الرفاء مرتبطا   كأننى فى يديه الدهرَ مرتهن
أقول حين رآنى الناس ألزمهُ   كأنما لىَ فى حانوته وطن
من كان يسأل عنا أين منزلنا   فالاقحوانة منا منزل قمن

وقال :

قل لابن حرب طيلسا   نك قوم نوح منه أحدثْ
أفنى القرون ولم يزل   عمن مضى من قبل يورث
واذا العيون لحظنهُ   فكأنه باللحظ يحرث
يودى اذا لم أرفهُ   فاذا رفوت فليس يلبث
كالكلب ان تحمل عليه الدهر أو تتركه يلهث

وقال :

قل لابن حرب طيلسانك قد   أوهى قواى بكثرة الغرم

متبين فيـه لمبصره آثار رفو أوائل الأمم
وكأنه الخمر التي وصفت في (ياشقيق الروح من حكم)
فاذا رمناه فقيل لنـا قد صح قال له البلى انهدم
مثل السقيم برا فراجعهُ نكس فأسلمه الى سقم
أنشدت حين طغى فأعجزني (ومن العناء رياضة الهرم)

الخمر التي وصفت من قول أبي نواس :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
فاسقني البكر التي اعتجرت بخمار الشيب في الرحم
ثمتَ انصاتَ الشباب لها بعد أن جازت مدى الهرم
فهي لليوم الذي بُزلت وهي تلوُ الدهر في القدم
عُتّقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم ماثلةً ثم قصت قصة الأمم
فرَعتها بالمزاج يدٌ خلقت للكاس والقلم

وقال الحمدوني

طيلسان لابن حرب جاءني خِلعة في يوم نحس مستمرْ
فاذا ماصحت فيه صيحةً تركته كهشيم المحتضر
واذا ما الريح هبت نحوهُ طيرته كالجراد المنتشر
مهطع الداعي الى الراقي اذا ما رآه قال ذا شيء نكر
واذا رفّاؤه حاول أن يتلافاه تعاطى فعقر

وقال :

أيا طيلسانيَ أعييت طبي أسلٌ بجسمك أم داء حب
ويا ريح صيرتني أتقيك وقد كنت لا أتقي ان تهبي
ومستخبر خبر الطيلسان فقلت له (الروح من أمر ربي)

وقال فيه :

طيلسان لابن حرب جاءني   قد قضى التزيق منه وطره
أنا من خوف عليه أبداً   سامريٌّ ليس يألو حذره
يا ابن حرب خذه أو فابعث بما   نشتري عجلا بصُفرٍ عُشُره
فلعل الله يحييه لنا   ان ضربناه ببعض البقره
فهو قد أدرك نوحاً فسمى   عنده من علم نوح خبره
أبدا يقرأ من أبصرهُ   (أئذا كنا عِظاماً نخِرَه)

وقال فيه :

يا ابن حرب أطلت فقري برفوى   طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر   ض على النار غدوة وعشيا
زرت فيه مَعاشراً فازدروني   فتغنيت اذ رأوني زريا
جئت في زي سائل كي أراكم   وعلى الباب قد وقفت مليا

وقال فيه :

وهبت لنا ابنَ حرب طيلساناً   يزيد المرء ذا الضعة اتضاعا
يسلم صاحبي فيعيد شتمي   لأن الروح يكسبه انصداعا
أجيل الطرف في طرفيه طولا   وعرضا ما أرى الا رقاعا
فلست أشك ان قد كان قدما   لنوح في سفينته شراعا
فقد غنيت اذ أبصرت منه   جوانبه على بدني تداعى
(قفي قبل التفرق يا ضباعا   ولا يك موقف منك الوداعا)

الحسن بن رجاء

دخل المأمون بعض الدواوين فرأى غلاماً جميلا على أذنه قلم فقال من أ
يا غلام ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشيء في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤ
لخدمتك ، خادمك وابن خادمك الحسن بن رجاء ، فقال أحسنت ياغلام ، وبالاحس

فى البديهة تفاضلت العقول ، فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان . قال أبو اسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج قال لى أبو العباس المبرد ما رأيت فى أصحاب السلطان مثل اسماعيل والحسن ، كنت اذا رأيته رأيت رجلا كأنما خلق لذروة منبر ، أو صدر مجلس ؛ يتكلم وكأنه يتنفس ، يسهب ويطنب ، ويعرب ويغرب ، ولا يعجّب ويعجب * أراد القاضى اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل حماد بن زيد بن درهم والحسن بن رجاء ابن أبى الضحاك

بديهة المبرد

وكان أبو العباس يعدّ فى البلغاء ، وقال لما دخلت على المتوكل اختار لى الفتح ابن خاقان وقت شربه وكان الشراب قد أخذ منه فسألنى وقال : يا بَصرى أرأيت أحسن وجها منى ؟ فقلت لا والله ولا أسمح راحة ، ثم تجاسرت فقلت :

جهرتُ بحلفةٍ لا أتقيها بشك فى اليمين ولا ارتياب
بأنك أحسن الخلفاء وجهاً واسمح راحتين ولا أحابى
وان مطيعك الاعلى محلاً ومن عاصاك يهوى فى تباب

فقال أحسنت وأجملت فى حسن طبعك ، و بديهتك ، فقلت ما طاقتى أبلغ هذا الشرف ، ولا أنال هذه الرتبة ، فلا زال أمير المؤمنين يسمو بخدمه الى أعلا المراتب ، و يصرفهم فى المذاهب

وصف رجل ماجد

وكان ابن المعتز قد غضب على بعض وكلائه فصار الى أبى العباس المبرد يسأله أن يكلمه له فكتب اليه المبرد : أنت والله كما قال مسلم بن الوليد فى حدك الرشيد

بأبى وأمى أنت ما أندى يداً وأبر ميثاقاً وما أزكاكا
يعدو عدوك خائفاً فاذا رأى ان قد قدرت على العقاب رجاكا

وهذا معنى كثير . أنشد احمد بن يحيى ثعلب لأعرابى :

كريم يغض الطرف فضل حيائه ... ويدنو وأطراف الرماح دوانى
وكالسيف ان لاينته لان متنهُ ... وحدّاه ان خاشَنْتَهُ خشنان

وهذا يناسب قول ابن المعتز فى بعض جهاته

ويجرح احشائى بعين مريضة ... كالان متن السيف والحدُّ قاطعُ

وقال الأخطل فى بنى مروان :

صمٌّ عن الجهل ، عن قيل الخنى أُنُفٌ ... اذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شُمُسٌ العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا

أبو جعفر المنصور

وقال على بن هرمة يمدح أبا جعفر المنصور

كريم له وجهان : وجهٌ لدى الرضى ... طليقٌ ، ووجه فى الكريهة باسل
وليس بمعطى الحق من غير قدرة ... ويعفو اذا ما أمكنته المقاتل
له لحظات من حفافَىْ سريرةٍ ... اذا كرّها فيها عقاب ونائل
فأمٌّ الذى أمّنت آمنة الردى ... وأمٌّ الذى حاولت بالثكل ثاكل

محمد بن يوسف

وقال الطائى فى أبى سعيد محمد بن يوسف :

هو السيل ان واجهته انقدت طوعَهُ ... وتقتاده من جانبيه فيتبعُ

اسماعيل بن محمد

وكان عصابة الجرجانى واسمه اسماعيل بن محمد منقطعاً الى الحسن بن رجاء متصلا به وهو القائل فيه :

ومحجَّب بالنور ليس بمدركٍ ... الا بما تأتى به الانباء
ملك يحب الله فهو يحبهُ ... ويطيعه فتطيعه الأشياء
يمشى الهوينا للصلاة يقيمها ... واذا مشى للحرب فالخيلاء

لله درك أيها ابن عزيمة   يشوى الزمان وماله إشواء

ثم عتب عليه فى بعض الأمر فهجاه هجاء قبيحا ، فهرب الى عمان ثم اعتذر اليه بقصيدته التى أولها

لاتخضبن عوالى المران   الامن العلق النجيع القانى

وهى أجود شعر قيل فى معناه وهى التى يقول فيها :

اقرَ السلام على الأمير وقل له   ان المنادمة الرضاع الثانى

ما إن أتى حشمى بأنك ساخط   حتى استخف بموضعى غلمانى

وغدت على مطاعمى ومشاربى   وملابسى من أعون الأعوان

فكتب اليه الحسن

أبلغ أبا اسحاق أن محله   منى بحيث الرأس والعينان

لا تبعدن بك الديار لنزغة   ولتبعدن نوازع الشيطان

فليفرخ الروع الذى روعته   ان المحل محل كل أمان

ابن أبى ربيعة وجميل

اجتمع جميل بن معمر العذرى بعمر بن أبى ربيعة المخزومى فأنشده جميل قصيدته التى أولها :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى   بثينة أو أبدت لنا جانب البخل

يقولون مهلا يا جميل واننى   لأقسم مالى عن بثينة من مهل

خليلى فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

نقله أبو العتاهية فقال :

يا من رأى قبلى قتيلا بكى   من شدة الوجد على القاتل

فلما أتمها قال لعمر يا أبا الخطاب هل قلت فى هذا الروى شيئاً ؟ قال نعم ثم أنشده

جرى ناصح بالود بينى وبينها   فقربنى يوم الحصاب الى قتلى

فما أنس م الأشياء لا أنس قولها　　وموقفها يوماً بقارعة النخل

فلما تواقفنا عرفت الذى بها　　كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

فسلمت واستأنست خيفة أن يرى　　عدوٌ مكانى أو يرى حاسدٌ فعلى

واقبل أمثال الدُّمى يكتنفنها　　وكلٌ يفدى بالمودة والأهل

فقالت وأرخت جانب الستر انما　　معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى

فقلت لها ما بى لهم من ترقُّب　　ولكنّ سرى ليس يحمله مثلى

فاستخذى جميل وصاح : هذا والله الذى طلبت الشعراء فاخطأته ، فتعللوا بوصف الديار ، ونعت الاطلال

خليفة ابن أبى ربيعة

ولما مات عمر بن أبى ربيعة نُعى لامرأة من مولّدات مكة وكانت بالشام فبكت وقالت : من لأباطح مكة ، ومن يمدح نساءها ، ويصف محاسنهن ، ويبكى طاعتهن ! فقيل لها قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته فقالت أنشدونى له فأنشدوه

وقد أرسلت فى السر ليلا بأن أقم　　ولا تقربنا فالتجنب أجمل

لعل العيون الرامقات لوصلنا　　تكذب عنا أو تنام فتغفل

أناس أمنّاهم فنثوا حديثنا　　فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

فما حفظوا العهد الذى كان بيننا　　ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا

فتسلّت وقالت : هذا أحل عوض ، وأفضل خلف ، فالحمد لله الذى خلف على حرمه وأمته مثل هذا !

العرجى

وقال عروة بن أذينة أنشدت ابن أبى عتيق للعرجى

فما ليلة عندى وان قيل ليلةٌ　　ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر

بعادلة الاثنين عندى وبالحَرى   يكون سواء مثلها ليلة القدر
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها   لجارتها قومى سلى لى عن الوتر
فجاءت تقول الناس فى ست عشرة   ولا تعجلى عنه فانك فى أجر

فقال ابن أبى عتيق هذه أفقه من ابن أبى شهاب ، أشهدكم أنها حرة من مالى إن أجاز أهلها ذلك

والعرجى هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وكان ينزل عرج الطائف فنسب اليه ، وهو القائل :

هل فى ادّكارى الحبيب من حرج   أم هل لهمّ الفؤاد من فرج
أم كيف أنسى مسيرنا حرما   يوم حللنا بالنخل من أمج
يوم يقول الرسول قد أذنت   فأت على غير رقبة فلج
أقبلت أهوى الى رحالهم   أهدى اليها بريحها الارج

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم واليا على مكة وهو خال هشام بن عبد الملك بلغه أن العرجى هجاه فضربه ضربا مبرحا وأقامه على أعين الناس ، فجعل يقول

سيغضب لى الخليفة بعد رقّى   ويسأل أهل مكة عن مساقى
علىّ عباءة برقاء ليست   من البلوى تجاوز نصف ساقى
وتغضب لى بأسرتها قصىّ   ولاة الشعب والطرق العتاق

فحلف محمد بن هشام أن لا يخرجه مادامت له ولاية ، فأقام فى السجن سبع سنين حتى مات ، وهو القائل فى سجنه :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر
وخلونى ومعترك المنايا   وقد شرعت أسنتها لنحرى
كأنى لم أكن فيهم وسيطا   ولم تك نسبتى فى آل عمرو
أجرر فى الجوامع كل يوم   ألا لله مظلمتى وصبرى

عسى الملك المجيب لمن دعاه　　سينجيني فيعلم كيف شكرى
فأجزى بالكرامة أهل ودى　　وأجزى بالضغائن أهل ضرى

نثر ابن المعتز

(جملة من الفصول القصار لابن المعتز)

— البشر دال على السخاء كما يدل النور على الثمر

— اذا اضطررت الى الكذاب فلا تصدقه ولا تعلمه أنك تكذبه ، فينتقل عن وده ، ولا ينتقل عن طبعه

— كما أن الشمس لاتخفى ضوءها وان كانت تحت السحاب كذلك الصبي لاتخفى غريزة عقله وان كان مغموراً بأخلاق الحداثة

— كَرَمُ الله عزوجل لاينقض حكمته ، ولذلك لايعجل الاجابة فى كل دعوة

— كما أن جلاء السيف أهون من صنعه ، كذلك استصلاح الصديق أهون من اكتساب غيره

— اذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهب الآخرة

— لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب .

— الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جزيلة ، من صواب مدخر ، وتطهير من ذنب ، وتنبيه من غفلة ، وتعريف بقدر النعمة ، ومرون على مقارعة الدهر

ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذى الرياستين قاله بعقب علة ، أعار عليه ابن المعتز

وكتب إلى أحمد بن محمد جواباً عن كتاب استزاده فيه : قيد نعمتى عندك بما كنت استدعيتها به ، وذب عنها أسباب سوء الظن ، واستدم ماتحب منى بما أحب منك

وكتب اليه : والله لا قابل احسانك منى كفر ، ولا تبع احسانى اليك منّ ، ولك عندى، يد لا أقبضها عن نفعك ، وأخرى لا أبسطها إلى ظلمك ، فتجنب

ما يسخطني فاني أصون وجهك عن ذل الاعتذار

وكان أحمد بن سعيد يؤدبه فتحمل البلاذري على قبيحة أم ابن المعتز بقوم سألوها أن تأذن له أن يدخل الى ابن المعتز وقتا من النهار، فأجابت أو كادت تجيب، قال ابن سعيد فلما اتصل الخبر بي جلست في منزلي غضبان لما بلغني عنها فكتب إلى ابن المعتز وله ثلاث عشرة سنة

أصبحت يا ابن سعيد خدن مكرمة عما يقصر من يحفى وينتعل
سربلتني حكمة قد هذبت شيمي وأججت نار ذهني فهي تشتعل
أكون ان شئت قسا في خطابته أو حارثا وهو يوم الحفل مرتجل
وان أشأ فكر زيد في فرائضه أو مثل نعمان لما ضاقت الحيل
أو الخليل عروضياً أخا فطن أو الكسائي نحويا له علل
تعلو بداهة ذهني في مراكبها كمثل ما عرفت آبائيَ الأول
وفي فمي صارم ما سله أحد من غمده فدرى ما العيش والجدل
عُقباك شكر طويل لا نفاد له يبقى بجدته ما أطّت الابل

وقس الذي ذكر هو قس ابن ساعدة الأيادي وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم شعره وعجب منه

وحارث هو الحرث بن حلزة اليشكري وصف ارتجاله يوم فخره بقصيدته التي انشدها بحضرة عمرو بن هند التي أولها

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يُمل منه الثواء

وزيد هو زيد بن ثابت الأنصاري، واليه انتهى علم الفرائض، ونعمان هو أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه ابن ثابت، وسبق أهل العراق في الفقه، والخليل بن أحمد الفرهودي ويقال الفراهيدي منسوب إلى حي من الارد، والكسائي على ابن حمزة الكوفي

رسائل ابن العميد

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض اخوانه :

« أنا أشكو اليك جعلني الله فداك دهراً خؤونا غدوراً ، وزمانا خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح الاريث ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب الاريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمُا ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدى لما يبسطه وشك انقباض ، وكنا نلبسه على ما شرط ، وان خاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتا بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة ، وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن بكل خلة من المكروه خلالا ، وبيان ذلك جعلني الله فداك انه كان يقنع من معارضته الالفين ، بتفريق ذات البين ، فقد أنشى عموداً فيك بجميع ما أوغره ، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره . وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، وألزمته جرماً لم يكن قدره يحيط به وقدرته ترتقي اليه ، لولا أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخلق وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع ، واطرحتني اطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تجدني هناك ، وأنفت من حل ماعقدت من غير جريمة ، ونكث ماعهدت من غير جريرة ، فاحسني عن واحدة منهما ، ماهذا التغالي بنفسك ، والتعالي على صديقك ، ولم نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القذاة ، ولم تلفظني من فيك ، وتمجني من حلقك ، وأنا الحلال الحلو ، والبارد العذب ، وكيف لا تخطرني سالك خطوة ، وتصيرني من أشغالك مرة ، فترسل سلاما إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرني فيمن تذكر ان لم تكن مخاطبة ، وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ،

ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك أيضاً تتعجب من طمعي فيك وقد توليت ، واستمالتي لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أن ودي وقفٌ عليك ، وحَبْسٌ في سبيلك ، ومتى عدت اليه وجدته غضاً طريا ، فجربه في المعاودة فانه في العود أحمد »

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار . حل قوله فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال من قول ابن الرومي

ياشبيه البدر في الحسن وفي بُعد المنالِ

جُد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلالِ

وفي هذه الرسالة في ذكر فتح وان لم يستبق منه المعنى:

« وقد خصنا الله تعالى معاشر عبيد الأمير عضد الدولة بنعمة يعلو مراتب النعم موقعها ، ويفوت مقدار المواهب موضعها ، فباسمه أبقاه الله فُتح الفتح ، وبشماره استُنزل النجح ، وبيمن نقيبته فرج الكرب ، وبسعادة جده كشف الخطب ، وباهتزازه للدولة وحمايته عاد اليها ماؤها ، وراجعها بهاؤها ، فعز الملك ونصر ، وذل العدو وقهر ، وحميت أطراف الدولة ، وحفظت أكناف الملة ، واستجد نظام النعمة ، وسدلت ستور الصيانة دون الحرمة ، ولو جعل المولى تقدس اسمه لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاء غير الاخلاص في شكره ، وقبل ماقى مقابلة الموهبة التي يستجدها عند خلقه غير الاغراق في حمده ؛ لرأيت أن لا أقتصر في قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ، ولجعلنا في صدر ما أبدل عن هذه النعمة الأعزين الأهل والولد ، والأنصرين الساعد والعضد ، بل العميدين القلب والكبد ، بل النفس كلها ، والمهجة بأسرها . »

أجمل ما قيل فى العتاب

وقال سعيد بن حميد يعاتب بعض اخوانه :

أقلل عتابك فالبقاء قليلُ والدهر يعدل تارةً ويميلُ
لم أبك من زمن ذممت صروفهُ إلا بكيت عليه حين يزولُ
ولكل نائبة ألمت مدةٌ ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الاخاء جماعةٌ ان حُصّلوا أفناهم التحصيل
ولعل أحداث المنية والردى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكينّ بحسرة وليكثرنّ علىّ منك عويل
ولتفجعنّ بمخلص لك وامق حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتَ ولا سبقتَ ليمضينْ من لا يشا كله لدىّ خليل
وليذهبن بهاء كل مروءةٍ وليفقدن جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صاف عليه من الوفاء دليل
ود بدا لذوى الاخاء جمالهُ وبدت عليه بهجة وقبول
ولعل أيام الحياة قليلةٌ فعلام يكثر عتبنا ويطول

وقال أيضاً

لقد ساءنى أن ليس لى عنك مذهب ولا لك عن سوء الخليقة مرْغَب
أفكر فى ود تقادم بيننا وفى دونه قربى لمن يتقرب
وأنت سقيم الود رث حبالهُ وخيرٌ من الود السقيم التجنب
تسىء وتأبى آن تعقّب بعدهُ بحسنى وتلقانى كأنىَ مذنب
وأحذر إن جازيت بالسوء والقلى مقالة أقوام هُمُ منك أعجب
أساء اختياراً أو عرته ملالةٌ فعاد يسىء الظن أو يتعتّبُ

فخبت من الود الذى كان بيننا ... كما خاب راجي البرق والبرق خُلَّب

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إلى كم يكون الصد فى كل ساعة ... ولم لا تملّ القطيعة والهجرا

رويدك إن الدهر فيه بقية ... لتفريق ذات البين فانتظر الدهرا

آخر

ولقد علمت فلا تكن متجنبا ... ان الصدود هو الفراق الأول

حسب الأحبة أن يفرق بينهم ... صرف الزمان فمالنا نستعجل

آخر

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضا :

ذودينا من حسن وجهك مادا ... م فحسن الوجوه حال يحول

وصلينا نصلك فى هذه الد ... نيا فان المقام فيها قليل

كلام الاعراب

وقف أعرابي يسأل فعبث به فتى ، فقال ممن أنت ؟ فقال من بني عامر بن صعصعة ، فقال من أيهم ؟ فقال ان كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة فليس مقامي مقام مجادلة ولا مفاخرة ، وأنا أقول فان لم أكن من هاماتهم ، فلست من أعجازهم ، فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص فى حسبك . فامتعض الاعرابي لذلك ، فجعل الفتى يعتذر ويخاط الهزل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام فقال له الاعرابي : ياهذا انك منذ اليوم آذيتني بمزحك وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك ، وانك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك ، ويحك ان الجاهل ان مزح أسخط ، وان اعتذر أفرط ، وان حدث أسقط ، وان قدر تسلط ، وان

عزم على أمر تورط ، وإن جلس مجلس الوقار تدسّط ، أعوذ منك ومن حال اضطرتني إلى احتمال مثلك !

وقال اسحق الموصلي قال أعرابي لرجل كان يعتمده بالعطية : أسأل الذي رحمني بك أن يرحمك بي !

وسأل أعرابي رجلا فأعطاه فقال : الحمد لله الذي ساقني إلى الرزق وساقك إلى الأجر

المقامة البلخية

ومن إنشاء البديع من مقامات الاسكندري قال حدثنا عيسى بن هشام قال : أفضت بي إلى بلخ تجارة البز ، فوردتها وأنا بفروة الشباب[1] ، وبال الفراغ ، وحلية الثروة ، لايهمني إلا نزهة فكر أستفيدها[2] ، أو شريدة من الكلام أصيدها ، فما استأذن على سمعي مسافة مقامي ، أفصح من كلامي ، ولما حنى التفرق بنا قوسه أو كاد ، دخل إليّ شاب في زي ملء العين ولحية تشوك الأخدعين[3] ، وطرف قد شرب بماء الرافدين[4] ، ولقيني من البر والسناء ، بما زدته من الشكر والثناء ، ثم قال : أظعنًا تريد ؟ قلت إي والله ، فقال أخصب الله رائدك ، ولا أضل قائدك ، فمتى عزمت ؟ فقلت غداة غد ، فقال :

صباح الله لا صبح انطلاق وطير الوصل لا طير الفراق

قال أين تريد ؟ قلت الوطن ، قال بلغت الوطن ، وقضيت الوطر ، فمتى العود ؟ قلت القابل ، قال طويت الربط[5] وثنيت الخيط ، فأين أنت من الكرم ؟ قلت بحيث أردت ، قال اذا رجعك الله من هذا الطريق فاستصحب لي عدوا في بردة

---

(١) الفروة : الشعر . وفي رواية (بعذرة الشباب) والعذرة الناصية وهي الخصلة من الشعر في مقدم الرأس (٢) في رواية أخرى (مهرة فكر أستفيدها) (٣) الأخدعان عرقان في صفحة العنق (٤) الرافدان دجلة والفرات والكلام هنا كناية عن قوة الشباب (٥) الربط جمع ريطة وهي الملاءة

صديق ، من تجار الصفر ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظفر ، كدارة العين ، يحط ثقل الدين ، وينافق بوجهين ! فعلمت أنه يلتمس دينارا ، فقلت لك ذلك نقدا ومثله وعدا ، فأنشأ يقول

رأيك فيما خطبت أعلى ... لازلت للمكرمات أهلا
صلبت عوداً وفقت جُودا ... وطبت فرعاً وطبت أصلا
لا أستطيع العطاء حملا ... ولا أطيق السؤال ثِقلا
قصرت عن منتهاك ظنا ... وطُلت عما ظننت فعلا
يارجمة (١) الدهر والمعالى ... لا لقيَ الدهر منك ثكلا

قال عيسى بن هشام فنلته الدينار . وقلت : من أين نبت هذا الفضل ؟ قال نمتني قريش ومُهد لى الشرف فى بطحائها . فقال بعض من حضر : ألست أبا الفتح السكندرى ؟ ألم أرك بالعراق ، تطوف بالأسواق ، مكديا بالأوراق ؟ (٢) فأنشأ يقول:

ان لله عبيـداً ... أخذوا العمر خليطا
فهُم يمسون أعرا ... با ويضحون نبيطا

من البديع الى الميكالى

— ١ —

وله الى أبى نصر الميكالى يشكو إليه خليفته بهراة :

كتابي أطال الله بقاء الشيخ الجليل ، والماء إذا طال مكثه ، ظهر خبثه ، واذا سكن متنه ، تحرك نتنه ، كذلك الضيف يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، اذا انتهى محله ، وقد حلبت أشطر خمسة أشهر بهراة ، ولم تكن دار مثلى لولا مُقامهُ ، وما كانت تسخى لولا ذمامُه ، ولى فى بنى قيس مثل صدق ، وأن صدرا مصدرعشق

(١) الرجمة بالضم مايبنى تحت النخلة الكريمة لتعتمد عليه لضعفها أولثقل حملها
(٢) كدى الرجل تكدية سأل الناس

وأدنيتني حتى اذا ما سبيتني　　بقول يحل العُصم سهل الاباطح

تجافيت عني حيث لا ليَ حيلةٌ　　وخلفت ما خلفت بين الجوانح

نعم قنصتني نِعم الشيخ ، فلما علِق الجناح ، وقلق البَراح ، طرت مطار الريح ، بل مطار الروح ، وتركتني بين قوم ينقض مسُّهم الطهارة ، وتوهن أكفهم الحجارة ، وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن استطعت أن تراني محتاجا ، فاستطع أن أراك محتاجا اليك ، أف لقولك وفعلك ، وللدهر أحوج إلى مثلك ! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يبيض وجهي بكتاب يسوّد وجهه ، ويعرفه قدره ، ويملأ رعبا صدره ، الى أن تبين على صفحات جنبه ، آثار ذنبه

— ٢ —

وله اليه يعاتبه :

قد عرف الشيخ الجليل اتّسامي بعبوديته ، ولو عرفت وراء العبودية مكانا لبلغته معه ، وأراني كلما تقدمت صُحْبة ، رجعت رتبة ، وكلما طالت خدمة ، قصُرت حِشمة ولست ممن يذهب عليه ان للسلطان أن يرفع عبداً حبشياً ، ويضع قرشياً ، ولكن أحب أن أقف من مكاني على رتبة كوكبها لا يغور ، ومنزلة لولبها لا يدور ، فاذا عرفت قدري وخطه ، لم أتخطه ، ثم ان رأيت محلي وحدّه ، لم أتعده ، وإن قدمني يوماً عليها علمت أن عناية قدمتني ، وان اخرني عنها علمت أن جناية أخرتني ، رُفع عليّ اليوم فلان ولست أنكر سنه وفضله ، ولا أجحد بيته وأصله ، ولكن لم تجر العادة بتقدمه ، لا في الأيام الخالية ، ولا في هذه الأيام العالية ، وشديد على الانسان ما لم يُعوّد ، فان كان حاسد قد همّ ، أو كاشح قد نمّ ، أو خطب قد ألم ، أو أمر قد وقع وتمّ ، فالشيخ الجليل أولى من يعرفه ويعرفنيه ، وإلا فما الرأي الذي أوجب اصطناعي ثم ضياعي ، والسبب الذي اقتضى بيعي بعد ابتياعي ؟

ابراهيم بن المهدى والمأمون

ولما رضى المأمون عن ابراهيم بن المهدى أمر به فأدخل عليه ، فلما وقف بين يديه قال :

ولىُّ الثأر محكّم فى القصاص ، ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الرجاء أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله تعالى فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان أخذت فبحقك ، وان عفوت فبفضلك .

ثم قال :

ذنبى اليك عظيمٌ   وأنت أعظم منهُ
فخذ بحقك أوْلا   فاصفح بفضلك عنه
ان لم أكن فى فعالى   من الكرام فكُنهُ

فقال المأمون شاورت أبا إسحق والعباس فى قتلك فأشارا به ، قال فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت لهما : نبدؤه بإحسان ، ونستأمره فيه ، فإن غيّر فالله يغير ما به . قال أما ان يكونا قد نصحا فى عظيم ما جرت عليه السياسة فقد فعلا و بلغا ما يبلّغك وهو الرأى السديد ، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عوّدك الله ، ثم استعبر باكيا ، فقال له المأمون ما يبكيك ؟ قال جذلا ! إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الانعام . ثم قال إنه وإن كان قد بلغ جرمى استحلال دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله بلّغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأبوة بعد الأب . فقال : يا إبراهيم لقد حُبّب إلىّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه ، أما لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تثريب عليك يغفر الله لك ! ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك ، لبلّغك ما أملت حسنُ تفضلك ، ولطف توصلك .

ثم أمر برد ضياعه وأمواله . فقال :

رددت مالى ولم تبخل علىّ به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى

وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم

فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسلّ النعل من قدمى

ما كان ذاك سوى عارية سلفت ... لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

أخذ معنى قول المأمون (لقد حبب إلى العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه) أبو تمام الطائى فقال :

لو يعلم العافون كم لك فى الندى ... من لذة وقريحة لم تحمد

فكان أبو تمام فى هذا كما قال أبو العباس بن المعتز فى القاسم بن عبيد الله :

اذا ما مدحناه استعنا بفعله ... فنأخذ معنى قولنا من فعاله

وكان تصويب إبراهيم لرأى أبى إسحق المعتصم والعباس بن المأمون ألطف فى طلب الرضا ودفع المكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الازراء عليهما فى رأيهما

وكان إبراهيم يقول : والله ما عفا عنى لرحم ولا لمحبة ، ولكن قامت له سوق فى العفو كره أن يفسدها

وكان المأمون شاور فى قتل إبراهيم أحمد بن أبى خالد فقال : إن قتلته فلك نظير ، وإن عفوت عنه فلا نظير لك ، فأختار لك العفو

وقال المأمون لاسحق بن العباس : لا تحسبنى أغفلت أمر ابن المهدى وتأييدك له و إيقادك لناره ، قال والله يا أمير المؤمنين لإجرام قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمى اليك ، ولرحمى بك أمتن من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة فى الطول وممتثل لخلال العفو والفضل . قال هيهات تلك أجرام جاهلية عفا عنها الاسلام ، وجرمك جرم فى إسلامك ، وفى دار خلافتك . قال يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم

أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر . وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف.
قال صدقت ، وريت بك زنادك ، ولا برحت أرى من أهلك أمثالك !

استعطاف

قال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه :

أسألك بالذى أنت بين يديه غدا أذل منى بين يديك اليوم ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابى ، إلا ما نظرت فى أمرى نظر من برئى أحب اليه من سقمى وبراءتى أحب اليه من بليتى

وعتب المأمون على بعض خاصته فقال

يا أمير المؤمنين ، ان قديم الحرمة ، وحديث التوبة ، يمحوان ما بينهما من الاساءة.

قال صدقت وعفا عنه

معاوية وروح بن زنباع

وأراد معاوية عقوبة روح بن زنباع فقال :

يا أمير المؤمنين أنشدك الله تعالى أن لاتضع منى خسيسة أنت رفعتها ، أوتنقض منى مريرة أنت أبرمتها ، أو تشمت بى عدوا أنت كبته ، وحاسدا أنت وقمته ، وأسألك بالله الا أربى حلمك على خطآتى وصفحك على جهلى

فقال معاوية رضى الله عنه « إذا الله سنّى عقد شىء تيسّرا »

أشار إلى هذا أبو الطيب المتنبى إذ قال :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم ... فانت الذي صيرتهم لى حُسَّدا
إذا شد زندى حسن رأيك فى يدى ... ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا

أحد ملوك الفرس

وكان فى ملوك فارس ملك عظيم المملكة ، شديد النقمة ، فقرب له صاحب المطبخ طعامه فنقطت نقطة من الطعام على المائدة ، فزوى له الملك وجهه ، وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله، فعمد إلى الصحفة فكفأها على المائدة ثم ولى ، فقال له الملك ماحملك على ما فعلت ، وقد علمت أن سقوط النقطة أخطأت بها يدك ، ولم يجر بها تعمدك ، فما عذرك فى الثانية ؟ قال استحييت للملك أن يوجب قتلى ويبيح دم مثلى ، فى سنى وحرمتى ، وقديم اختصاصى وخدمتى ، فى نقطة أخطأت بها يدى ، فأردت أن يعظم ذنبى ، ليحسن بالملك قتلى ! قال لئن كان اعتذارك ينجيك من القتل ، فليس ينجيك من التأديب . اجلدوه مائة جلدة واخلعوا عليه خلع الرضا

بهرام جور

وخرج بهرام جور متصيدا فعنّ له حمار وحش فاتبعه حتى صرعه ، وقد انقطع عن أصحابه فنزل عن فرسه يريد ذبحه ، و بصُر براع فقال أمسك علىّ فرسى ، وتشاغل بذبح الحمار ، وحانت منه التفاتة فنظر الى الراعى يقطع جوهر عذار فرسه ، فحول بهرام حور وجهه وقال : تأمل العيب عيب ، وعقوبة من لايستطيع الدفاع عن نفسه سفه ، والعفو من أفعال الملوك ، وسرعة العقوبة من أفعال العامة .

ثم قال : ياغلام مابال شر يانك يضطرب لعلك آداك تكسيرنا أرضك بحوافر خيلنا فقال نعم ، وقد عزمت على أن أقلع مائة فرسخ ، فقال بهرام لا تُرع فهذا الموضع ومافيه لك ، وكان الراعى خبيثا ، فقال ان الملوك إذا قالت قولا تمت على قولها . فرجع بهرام إلى عسكره وقال : اتبعنى لأوثق لك من هذه الأرض ، فاتبعه ، فلما بصر به الوزير قال : أيها الملك السعيد أنى لأرى جوهر عذار فرسك مقلعا ، فتبسم وقال : أخذه من لايرده ، ورآه من لاينم به ، فمن أخذه صاحبنا ولا نطالبه به

نقل ابن الرومي قول بهرام (تأمل العيب عيب) كما اتفق موزونا فقال :

تأمل العيب عيبٌ ... ما في الذي قلت ريبُ
وكل خير وشر ... دون العواقب غيبُ
ورب جلباب همٍّ ... فيه من الصنع جيبُ
لا تحقرن سُبيبا ... كم قاد خيرا سُبيب

أخذ البيت الأخير من قول الطائي

رُبَّ قليلٍ غداً كثيراً ... كم مطر بدؤه مُطيرُ

وقوله :

لا تزيلنْ صغير همك وانظر ... كم بذي الأثل دوحة من قضيبِ

وقد أعاد ابن الرومي قوله

وكل خير وشر ... دون العواقب غيب

في قصيدته التي مدح بها أحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره ، وقال لو أتى لبيد لتعجب منه ، فاستجزله وقال :

ولما دعاني للمثوبة سيدٌ ... يرى المدح عارا قبل بذل المثاوبِ
تنازعني رغب ورهب كلاهما ... قويٌّ وأعياني طلوع المعايب
فقدمت رجلا رغبة في رغيبةٍ ... وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين والغايات بعد المذاهب

كتاب البديع الى أبي علي اسماعيل

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبي علي اسمعيل يعتذر إليه :

سوء الأدب من سكر الندب ، وسكر الغضب من الكبائر التي تنالها المغفرة ، وتسعها المعذرة ، وقد جرى بحضرة الشيخ ما جرى ، وقد أفنيت يدي عضا ، وأسناني

رضاً ، وان لم أوف ماجرى فالعذر أمدّ خطا ، فان كان بساطاً يطوى ، وحديثاً لا يروى فأولى من عَذَر اللاعب ، وأحرى من غَفر الصاحب ، وان كان ميتاً ينشر ، وسبباً يذكر ، فليكن العقاب ما كان ، إذا لم يكن الهجران ، على أنى قد أخذت قسطى من العقاب ، واستفدت من رد الجواب ، ما كفى ، وأوجع القفا ، فكان من موجب أدب الخدمة ، إبقاء الحشمة ، لولى النعمة : باحتمال الشتم ، والإغضاء عن الخصم ، لكنى أحدقت بى ثلاثة أحوال لايسلم صاحبها : اللعب وسكره ، والخصم وهُجْره ، والادلال والثقة ، وهى اللواتى حملننى على ماء الوجه فهرقته ، وحجاب الحشمة فخرقته ، وقد منعنى الآن فرط الحياء ، من وشك اللقاء ، وعهدى بوجهى وهو أصفق من العُدم الذى حملنى على جهله ، وأوقح من الدهر الذى أحوجنى إلى أهله ، لكن النعم إذا توالت على وجه رققت قشرته ، وألانت بشرته ، وأنا منتظر من الجواب مايريش به جناحى إلى خدمته ، فان رأى أن يكتب فعل إن شاء الله

كتابه الى ابن مسكويه

وله رقعة الى أبى على بن مسكويه أولها

ويا عز إن واش وشى بى عندكم ... فلا تمهليه أن تقولى له مهلا

كما لو وشى واش بعزة عندنا ... لقلنا تزحزح لاقريباً ولا أهلا

بلغنى أطال الله بقاء الشيخ أن قيصة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره ، وأنه أدام الله عزه أذن لها على مجال أذنه ، وفسح لها فناء ظنه ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجير مغفولها ، بل قد كان بينى و بين الشيخ عتاب لاينزل كنفه ولا يجدف ، وحديث لايتعدى النفس وضميرها ، ولا يعرف الشفة وسميرها ، وعربدة كعربدة أهل الفضل ، لاتتجاوز الدلال والادلال ، ووحشة لايكشفها عتاب لحظة ، كعتاب جحظة ، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ، وتأبط شراً ، وأوحب عذراً ، وأوحش حراً ، وسبحان من جعلنى فى حيز العدو أشيم بارقته ،

والخوف صاعقته ، وأنا المساء إليه ، والجني عليه . ولكن من بلي من الأعداء بمثل ما بليت ، ورمى من الحسد بما رميت ، ووقف من التوحد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، اعتذر مظلوماً ، وضحك مشتوماً ، ولو علم الشيخ عدد أولاد الجدد ، وأبناء العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همٌّ إلا في سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية ، لضن بعشرة غريب إذا بدر ، و بعيد اذا حضر ، ولصان مجلسه عمن لايصونه عما رقى اليه . وهبني قد قلت ما حكى : أليس الشاتم من أسمع ، والجاني من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الاستاذ نفساً لاتستفز ، وجبلا لايهز ، وشوا الى خدمه بما أرثوا نارهم ، وردٌّ على ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فان تك حرب بين قومي وقومها   فاني لها في كل نائبة سلمُ

وليعلم الأستاذ أن في كبد الأعداء مني جمرة ، وأن في أولاد الزنا عندنا كثرة ، وقُصاراهم نار يشبونها ، وعقرب يدبيونها ، ومكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر اقرار بما قيل ، وأكره أن أستقيل ، لبسطت في الاعتذار شاذروانا ، ودخلت في الاستقالة ميدانا ، لكنه أمر لم أضع أوله ، فلم أتدارك آخره ، وقد أبى الشيخ أبو محمد أيده الله إلا أن يوصل هذا النثر الفاتر بنظم مثله فها كه يلعن بعضه بعضا

مولاي ان عدت ولم ترض لي   أن أشرب البارد لم أشربِ
امتطِ خدي وانتعل ناظري   وصِد بكفي حُمة العقرب
تالله ما أنطق عن كاذب   فيك ولا أبرق عن خُلَّبِ
فالصفو بعد الكدر المفترى   كالصحو بعد المطر الصيِّب
إن أجنّ الغلطة من سيدي   فالشوك عند الثمر الطيب
أو يفسد الزور على ناقد   فالخمر قد يعصب بالثيب

ولعل الشيخ أبا محمد أيده الله يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلم واللسان ، فنعم رائد الفضل هو والسلام

سهل بن هرون

فقر من كلام سهل بن هرون للمأمون

كان المأمون استقل سهل بن هرون فدخل عليه يوماً والناس على مراتبهم ، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هرون على الجمع فقال :

مالكم تسمعون ولا تمون ، وتشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تنصفون ؟ والله إنه ليقول و يفعل فى اليوم القصير ، ما فعل بنو مروان فى الدهر الطويل ،عربكم كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرف بالدواء ، من لايشعر بالداء ؟

فرجع المأمون فيه الى الرأى الأول

وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل ميسان نزل البصرة فنسب اليها وهو القائل :

يا أهل ميسان السلام عليـ ـكم طيبون الفرع والجذم
أما الوجوه ففضة مزجت ذهبا وأيد سحة هُضُم
أتريد كلب أن أناسبها قد قل من كليب العـلم
أجهلت بيتاً فوق رابيـة فرع النجوم كأنه نجم
كم بيت شعر وسط مجهلة بفنائه الجعلان والبهم

وكان سهل شعوبيا — والشعوبية فرقة تتعصب على العرب وتتنقصها ، وكان أبو عبيدة يرمى بهم — وسهل ظريف عالم حسن البيان وله كتب طريفة صنفها معارضا للأوائل فى كتبهم بما لايستصو به منهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام

وقال يمدح رجلا

عـدو تلاد المال فيما ينوبه منوع اذا ما منعه كان أحزما

مذلل نفس قد أبت غير أن ترى | مكاره ما تأتى من العيش مغنما

هذا نظير قوله فى كتاب نملة وعفرة الذى عارض به كليلة ودمنة :

اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الابطاء عن الفريضة مظاهر على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ، مخل بالاختبار ، وليس فى نفع عمدته عوض من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة .

وكتابه هذا مملوء حكما وعلماً . وسهل القائل :

تقسمنى همان قد كسفا بالى | وقد تركا قلبى محلة بلبال
هما أذريا دمعى ولم تذر عبرتى | رهينة خدر ذات سمط وخلخال
ولا قهوة لم يبق منها سوى الذى | على أن تحاكى النور فى رأس ذبال
تحلل منها جرمها وتماسكت | لها نفس معدوم على الزمن الخالى
ولكنما أبكى بعين سخينة | على حدث تبكى له عين أمثالى
فراق خليل لايقوم به الأسى | وخلة حر لايقوم بها مالى
فواحسرتى حتى منى القلب موجع | لنفر خليل أو تعذر افضال
وما الفضل الا أن تجود بنائل | والا لقاء الحل ذى الخلق العالى

وهو القائل :

اذا امرؤ ضاق عنى لم يضق خلق | من أن يرانى غنيا عنه باليأس
لا أطلب المال كى أغنى بفضلته | ما كان مطلبه فقراً من الناس

وأنشد له الجاحظ يهجو رجلا

من كان يعمر ما شادت أوائله | فأنت تعمر ما شادوا وما سمكوا
ما كان فى الحق أن تحوى فعالهم | وأنت تحوى من الميراث ما تركوا

وقال محمد بن زياد الزيادى : وجدت على سهل بن هرون فى بعض الأمر فهجوته فكتب الى :

أما بعد فالسلام على عهدك وداعَ ذى ضن بك ، فى غير مقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، واقرار بالعجزة فى استعطافك ، الى أوان يينك أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك ، والسلام .

وكتب فى أسفل الكتاب

ان تعف عن عبدك المسيء فنى عفوك مأوى للفضل والمننِ
أتيت ما أستحق من خطأ فد بما تستحق من حسَنِ

الحسن البصرى

وقال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم عيد وقد رأى الناس وهيآتهم :

ان الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا . فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن باحسانه ومسيء باساءته

ونظر الى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : الله المستعان ! إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تقبل فما هذا محل الشاكرين وان علموا أنه لم يقبل فما هذا محل الخائبين

وكان الحسن من الخطباء النساك الفقهاء الأجواد ، ويقال انه لم يكن تابعى أفضل منه . هذا قول أهل العراق جميعا ، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه ، وكان سعيد أحسن من الحسن ورعاً ، وأشد الناس جزعا ، وأقلهم كلاما . وكان الحسن لا يدع أن يتكلم بما هجس فى نفسه ، وجاش فى صدره

التهنئة برمضان

وعلى ذكر الحسن شهر رمضان تقول :

(ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بإقبال شهر رمضان مع ما يتصل بها من الأدعية)

— ساق الله تعالى اليك سعادة إهلاله ، وعرّفك بركة كماله

— قسم الله لك من فضله ، ووفقك لفرضه ونفله

— لقاك الله فيه ما ترجوه ، ورقاك الى ما تحبه فيما يتلوه

— جعل الله ما أظلك من الصوم مقرونا بأفضل القبول ، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأمول ، ولا أخلاك من بر مرفوع ، ودعاء مسموع

— قابل الله تعالى بالقبول صيامك ، و بعظيم المثوبة تهجدك وقيامك

— عرفك الله من بركته ما يربى على عدد الصائمين والقائمين ، ووفقك الله تعالى لتحصيل أجر المتهجدين المجتهدين

— أسأل الله تعالى أن يضاعفه بمنه لك ، ويجعله وسيلة تقبوله الى مرضاته عنك

— أعاد الله إلى مولاى أمثاله ، وتقبل منه أعماله ، وأصلح فى الدين والدنيا أحواله و بلغه منها آماله

— أسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المثوبة والأجر، ووفر حظه من كل ما يرتفع من دعاء الداعين ، ويترل من ثواب العاملين ، وقبل مساعيه وزكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، و بلغه من الآمال منتهاها ، وظفر بأبعدها وأقصاها

أخلاق المؤمن

وقال الحسن : من أخلاق المؤمن : قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وحرص على

العلم ، وقناعة فى فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء فى حق ، و بر فى استقامة ، وفقه فى يقين ، وكسب فى حلال

وقال محمد بن سليمان لابن السماك بلغنى عنك شيء . قال : لا أباليه ! قال ولم ؟ قال لأنه إن كان حقا عرفته ، و إن كان باطلا كذبته

وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك :

خير الاخوان أقلهم مصانعة فى النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان مالم يخالطه البطر ، واغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرا ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الاخلاق أعونها على الورع . وإنما يختبر ذل الرجال عند الفاقة والحاجة

وصف رجل ماجد

ووصف بعض البلغاء رجلا فقال :

إنه بسيط الكف ، رحب الصدر ، موطأ الأكناف ، سهل الخلق ، كريم الطباع ، غيث مغوث ، وبحر زخور ، ضحوك السن ، بشير الوجه ، بادى القبول ، غير عبوس ، يستقبلك بطلاقة ، ويحييك ببشر ، ويستدرك بكرم غيب ، وجميل سر ، تبهجك طلاقته ، ويرضيك بشره ، ضحاك على مائدته ، عبد لضيفانه ، غير ملاحظ لأكيله ، بطين من العقل ، خميص من الجهل ، راجح الحلم ، ثاقب الرأى ، طيب الخلق ، محصن الضريبة ، معطاء غير سائل ، كاس من كل مكرمة ، عار من كل ملامة ، ان سئل بذل ، وان قال فعل

قال أبو الفتح كشاجم

مزاجك للمثنى من العود والصبا ... من الريح والصافى الرقيق من الخمر
فلو كنت وردا كنت وردا مضاعفا ... ولو كنت طيبا كنت من عنبر البحر
ولو كنت لحنا كنت تأليف معبد ... ولو كنت عودا ما افتقرت الى زمر

وصف حسناء

وقال أعرابى :

ألا حبذا البُرد الذى تلبسينهُ ويا حبذا من باعك البرد من تَجرْ [1]
فلو كنت ماء كنت ماء غمامةٍ ولو كنت درا كنت من درة بكر
ولو كنت لهوا كنت تعليل ساعةٍ ولو كنت نوما كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلا كنت قراء جنبت نحوس ليالى الشهر أو ليلة القدر

غرر المدائح

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر تجرى فى المدح مجرى الأمثال لحسن استعارتها وبراعة تشبيهاتها

— فلان مرتضع ثدى المجد ، مفترش حجر الفضل

— له صدر تضيق به الدهناء ، وتفزع اليه الدهماء

— له فى كل مكرمة غرة الاصباح ، وفى كل فضيلة قادمة الجناح

— له صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح ، و يترقرق فيها ماء الكرم ، وتقرأ فيها صحيفة حسن البشر ، تحيا القلوب بلقائه ، قبل أن يموت الفقر بعطائه

— له خلق لو مزج به البحر لنفى ملوحته ، وكفى كدورته

— هو غذاء الحياة ، ونسيم العشق ، ومادة الفضل

— آراؤه سكاكين فى مفاصل الخطوب

— له همة تعزل السماك الاعزل ، وتجر ذيلها على المجرة

— هو راجح فى موازين العقل ، سابق فى ميادين الفضل ، يفترع أبكار المكارم ، ويرفع منار المحاسن

(١) التجر بالفتح هو التاجر

— ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماء يضحك من فواضله

— هو بيت القصيدة ، وأول الجريدة ، وعين الكتيبة ، وواسطة القلادة ، وانسان الحدقة ، ودرة التاج ، ونقش الفص

هو ملح الارض ، ودرع الملة ، ولسان الشريعة ، وحصن الأمة

— هو غرة الدهر والزمان ، وناظر الايمان

— له أخلاق خلقن من الفضل ، وشيم تشام منها بوارق المجد

— أرج الزمان بفضله ، وعقم النساء عن الاتيان بمثله

— الجميل لديه معتاد ، والفضل منه مبدوء ومعاد

— ماله للعفاة مباح ، وفعاله فى ظلمة الدهر مصباح

— كأن قلبه عين ، وكأن جسمه سمع ، يرى بأول رأيه آخر الأمر .

— جوهر من جواهر الشرف ، لامن جواهر الصدف ، وياقوتة من يواقيت الأحرار ، لايواقيت الأحجار

— طلعته للبشاشة عليها ديباجة خسروانية ، وفيها للطلاقة روضة ربيعية

— وجه كأن نشرته نشر البشر ، ومواجهته أمان من الدهر . يصل بشره قبل أن يصل بره . قد لحظت من وجهه الأنوار ، ومن بنانه الأنوار

— أنا من كرم عشرته ، وطلاقة أسرته : فى روضة وغدير ، وجنة وحرير

— هو بحر العلم ممدود بسبعة أبحر . ويومه من يوم الأدب كعمر سبعة أنسر

— العلم حشو ثيابه ، والأدب ملء إهابه

— هو شخص الأدب ماثلا ، ولسان العلم قائلا ، شجرة فضل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرتها عقل ، وعروقها شرف ، تسقيها سماء الحرية ، وتغذيها أرض المروءة

— هم ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارة الأرض إذا خربت ، ومعرض الأيام إذا احتشدت

— هم جمال الأيام ، وخواص الأنام ، وفرسان الاسلام ، وفلاسفة الكلام

— فلان غصن طبعه نضير ، ليس له فى مجده نظير ، قد جمع الحفظ الغزير ، والفهم الصحيح ، والأدب القوى القويم ، وما يؤنسه من الوحشة إلا الدفاتر ، ولا يصحبه فى الوحدة إلا المحابر

— فلان يحل دقائق الاشكال ، ويزيل معترض الاشكال ، له خلق كنسيم الأسحار ، على صفحات الانوار ، كالماء صفاء ، والمسك ذكاء

— أخلاق قد جمعت المروءة أطرافها ، وحرست الحرية أكنافها

— أخلاق تجمع الأهواء المتفرقة على محبته ، وتؤلف الآراء المتشتتة على مودته

— أخلاق أعذب من ماء الغمام ، وأحلى من ريق النحل ، وأطيب من زمان الورد

— أخلاق أحسن من الدر والعقيان ، فى نحور الحسان ، وأذكى من حركات الروح والريحان

— فلان يستحط القمر بطرفه ، ويستنزل النجم بلطفه

— هو حلو المذاق ، سهل المساغ ، أجمل الناس فى جد ، وأحلاهم فى هزل ، يتصرف مع القلوب ، كتصرف السحاب مع الجنوب ، ذو جد كعلو الجد ، وهزل كحديقة الورد ، له عشرة ماؤها يقطر ، وصحوها من الغضارة يمطر

— هو ريحانة على القدح ، وذريعة على الفرح

— عشرته ألطف من نسيم الشمال ، على أديم الزلال ، وألصق بالقلب ، من علائق الحب

— إذا أردت فهو سبحة ناسك ، أو أحببت فهو تفاحة فاتك ، أو اقترحت فهو مدرعة راهب ، أو آثرت فهو تحية شارب

— أخباره زكية ، وآثاره ذكية

— أخباره تأتينا كما وشى بالمسك رياه ، وينم على الصباح محياه ، قد انتشر من طيب أخباره ما زاد على المسك الفتيق ، وأوفى على الزهر الأنيق

— مناقب تشدخ فى جبينها غرة الصباح ، وتتهادى أنباءها وفود الرياح

— فلان أخباره آثاره ، وعينه قراره ، قد حصل له من حميد الذكر ، وجميل النشر ، مالا تزال الرواة تدرسه ، والتواريخ تحرسه

— سألت عن أخباره فكأنى حركت المسك فتيقاً ، أو صبحت الروض أنيقاً

— أخباره متضوعة كتضوع المسك الاذفر ، ومشرقة إشراق الفجر الأنور ، أحببته بالخبر ، قبل الأثر ، وبالوصف ، قبل الكشف

— هو ممن يثقل ميزان وده ، ويخف ميثاق عهده ، كريم العهد ، صحيح العقد ، سليم الصدر ، حميد الورد فيه والصدر

— هو لاخوانه عدة تشدهم وتقويهم ، ونور يسعى بين أيديهم

— هو ثابت ركن الإخاء ، صافى شرب الوفاء ، حافظ على الغيب ما يحفظه على اللقاء

— هو ممن لاتدوم المداهنة فى عرصات قلبه ، ولا تحوم المواربة على جنبات صدره

— هو يسرى إلى كرم العهد ، فى ضياء الرشد ، عهده نقش فى صخر ، ووده نسب ملاق من فخر

— يقبل من اخوانه العفو ، كما يوليهم الصفو ، فى وده غنى للطالب ، وكفاية للراغب ، ومراد للصحب ، وزاد للركب

— هو فى حبل الوفاء حاطب ، وعلى فرض الإخاء مواظب ، النجح معقود فى نواصى آرائه ، واليمن معتاد فى مذاهب أنحائه

— له الرأى الثاقب الذى تخفى بطلحة مكايده ، وتظهر عوائده ، والتدبير النافذ الذى تنجح مآربه ، وتنهج قوالبه

— رأى كالسهم أصاب غرة الهدف ، ودهاء كالبحر فى بعد الغور وقرب المغترف

لايضع رأيه إلا مواضع الاحالة ، ولا يطرق تدبيره إلا على مواقع السداد والاصالة ، يعرف من مبادىء الأقوال خواتم الأفعال ، ومن صدور الأمور ، أعجازها فى الصدور

— رويته رأى صليب ، و بديهته قدر مصيب

— سافر رأيه وهو دان لم يبرح ، و يسير تدبيره وهو ثاو لم يسرح

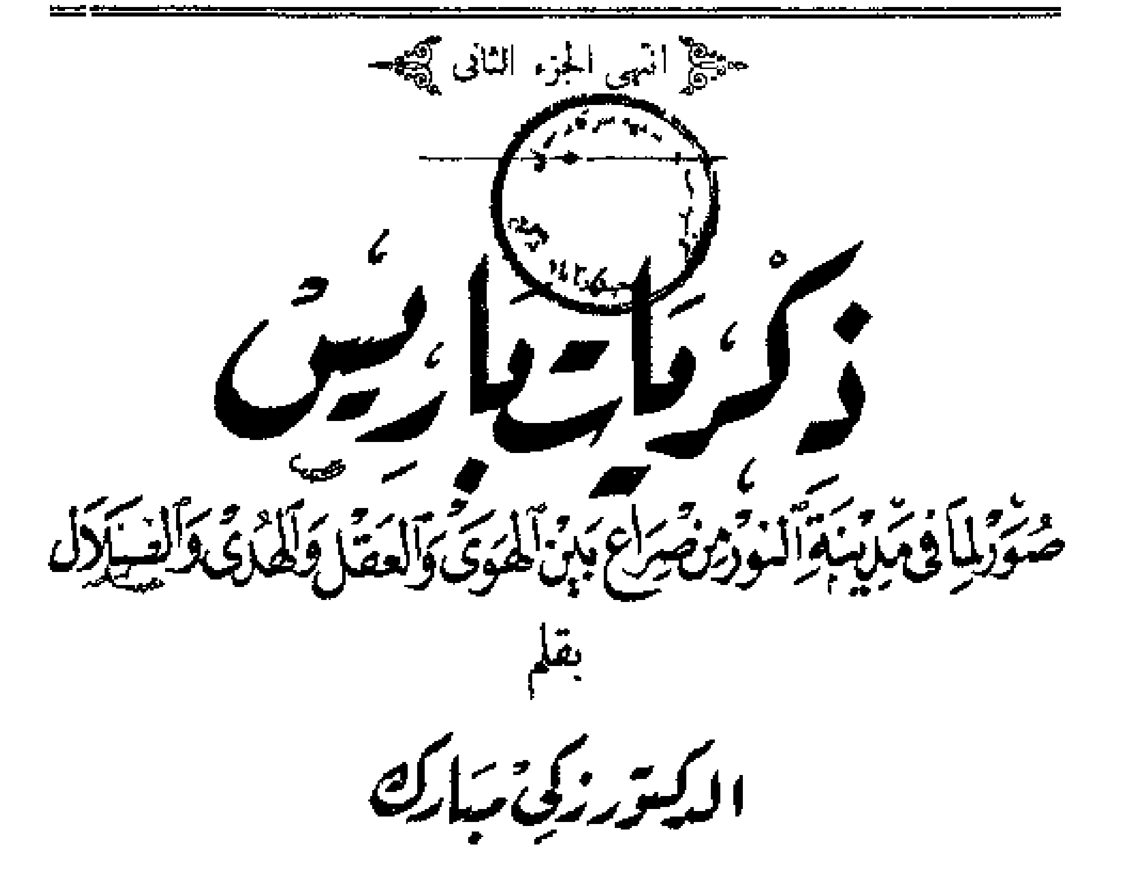
— له رأى لا يخطىء شاكلة الصواب ، ومحض الرأى إذا أذكى سراج الفكر أضاء ظلام الأمر

— هو قطب صواب تدور به الامور ، ومستنبط صلاح يرد اليه التدبير ، يرى العواقب فى مرآة عقله ، وذكائه وفضله

— له رأى يرد الخطب مسلماً ، والرمح معلماً ، كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، و يطالعه بعين السداد والتوفيق ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب .

— قد سرنا من مشورته فى ضياء ساطع ، ومن رأيه الصائب فى حكم قاطع

انتهى الجزء الثانى



فهرس

الجزء الثانى